سينا للنشر
الهجرة إلى العنف
التطرف الديني
من
هزيمة يونيه
إلى
اغتيال اكتوبر
عادل حمودة

الناشـر

سينا للنشر

المدير المسئول

راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد ـ القصر العينى

ص . ب ٢٦٧٤ ـ القاهرة ـ ج م ع

تليفون ٣٥٤٧١٧٨

الهجرة إلى العنف

التطرف الدينى من هزيمة يونيو إلى اغتيال اكتوبر

الطبعة الأولى

سبتمبـر ١٩٨٧

الغـلاف : للفنـان هبـة الله عنايت

الاشـراف الفنى : إينـاس حسـنى

المراجعـة اللغويـة : السيد عبد المعطى

تم الصف التصويرى بمؤسسة روز اليوسف



سينا للنشر

الهجرة إلى العنف

التطرف الديني
من
هزيمة يونيه
إلى
اغتيال اكتوبر

عادل حمودة

اهـــداء

إلى ناهد حبشى ..

من أجل أن ننزع فتيل العنف ، فتهدأ العواصف وتخمد الحرائق ونفرز الخبيث من الطيب ، ونجد للأطفال اللبن ، والكتاب ، والفيلم ، وكراسة الرسم ، وعلبة الألوان ، والكلمة الجميلة ، والحلم الدائم الذى لا تمزقه أنياب الإحباط .

عادل حمودة

قبل أن تبدأ

مصر هى بيت العقل ..

هى وطن التفاهم .. مزرعة التسامح .. وأرض الرحمة .

ولأن مصر هى الحرية ، فلا أستطيع أن أتخيلها على شكل مشنقة ، أو معسكر اعتقال ، أو غرفة خنق بالغاز .

ولأنها هى الحضارة ، فلا أستطيع أن أتخيلها على شكل مسدس ، أو قنبلة ، أو مدفع رشاش ، أو حزمة من أصابع الديناميت .

ولأنها هى الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، فإننى أستعين بالله ، وأفتح ملفات (لا أقول ملف) التطرف (أو العنف) الدينى ، الذى يزداد لهيبه يوما بعد آخر ، مهدداً الأخضر واليابس .. العاقل والجاهل .. المؤمن والمشرك .. وربما المعتدل والمتطرف أيضاً .

ربما ..

أكون رومانسيا وأنا أصف مصر بهذه الأوصاف التى تقترب من الهيام والعشق والغزل .

لكنها ..

رومانسية لا تخلو من الواقعية ، ولا تتجاوز الحقيقة ، رغم ما طفح على الوجه والجلد من بقع وبثور والتهابات ..

وربما ..

أبدو شجاعاً أو متهوراً أو مترفعا عن الخطر ، وأنا أمسك بمقبض بوابة هذا الموضوع وأفتحها .

لكنه ..

فى الحقيقة موقف كل من يؤمن بقضاء الله وقدره ، ولا يعترض عليه . ويرى الخير ، كل الخير ، فيما آتاه الله حتى ولو بدا للناس شراً .

موقف من يسيطر على أعماقه يقين أن الله خير حافظ .

□□

إن هذا الموضوع بالفعل .. ودون دليل إضافى ، موضوع صعب .. معقد .. متشابك الأسباب والظواهر .. ضرورى .. حيوى .. هام .. مصيرى .. وأيضا خطر ..

فعندما يعجز الحوار عن النطق يتكلم الخنجر .

وعندما تصبح المناقشة ترفا لا نملك الوقت ولا الجهد ولا الرغبة ولا الحاجة لفتحها ، تنفجر القنبلة .

وعندما تفقد الحجة وجودها يكون مصير المؤمنين بها الذبح قبل أو بعد صلاة العشاء ، دون نطق الشهادتين .

لا أخص بهذا الكلام فريقا دون آخر ، إنما أخص به الجميع .. الشباب الذى دفعته ظروفه وظروف المجتمع من حوله للتطرف . الدولة التى ردت على التطرف بالقهر والتعذيب ولم تتوقف لتحديد وتحليل الأسباب .. والجماعات والأحزاب والتيارات الأخرى التى تطرفت فى موقفها بين الفريقين .

□□

منذ حادث الفنية العسكرية (أبريل ـ ١٩٧٤) وهذا الموضوع ـ الذى لم تتوقف أعراضه وحوادثه ـ يوصف بأنه موضوع الساعة .

وربما .. ظل كذلك حتى قيام الساعة ..

ولو شئنا الدقة والإنصاف ، فإن حادث الفنية العسكرية الذى دبره د . صالح سرية ، ونفذه شباب حزب« التحرير الإسلامى » كان بداية لجيل جديد من التطرف الدينى .. لا يعترف بإسلام المسلمين .. ويوصم المجتمع بالجاهلية ، ويسعى للتخلص منه ، وإقامة الدولة الإسلامية ـ كما يتصورها ـ من جديد .. جيل جديد ، جاء ليواصل مشوار جيل قديم سبقه ، أعلن توبته ، بعد أن هده الزمن ، وهدته المحن ، والسجون ، والتجربة المرة .. وإذا كان الزمن هو الذى دفع الجيل القديم إلى الابتعاد عن العنف ، وممارسة العمل السياسي مثله مثل الآخرين .. فإن المحن دفعت البعض منه لصياغة أفكار التكفير والجاهلية ، ومقاطعة المجتمع ، والاستعلاء عليه ، ثم الانقضاض عليه بعد التمكن .. وكان أبرز الفرسان هنا سيد قطب ، الذى تحول كتابه « معالم فى الطريق » إلى دستور لهذه الجماعات والتنظيمات التى انتمى إليها الجيل الجديد .

لذلك :

فهناك علاقة قوية ، وعضوية .. علاقة « ما » بين صالح سرية وسيد قطب .

وهناك علاقة أقوى وأشد بين شكرى مصطفى وسيد قطب ، وبينهما وبين المهندس محمد عبد السلام فرج .

إن تنظيمات سرية (حزب التحرير الإسلامى) وشكرى مصطفى (جماعة المسلمين) ومحمد عبد السلام فرج (تنظيم الجهاد) كانت اجتهادات تطبيقية

لأفكار الأستاذ « سيد قطب » بصورة أو بأخرى .. وفي الاجتهاد ينال المجتهد أجرين إذا أصاب ، وأجراً إذا أخطأ .

والعلم عند الله .

بعد محاولة الفنية العسكرية التي كانت أول محاولة لقلب نظام الحكم في عهد السادات ، كان حادث اختطاف وقتل وزير الأوقاف الأسبق ، الدكتور « الذهبي » (يوليو ١٩٧٧) الذي كان أول حادث اغتيال من نوعه منذ يوليو ١٩٥٢ .. أي منذ نحو ربع قرن تقريباً .. ثم .. كانت حوادث الفتنة الطائفية (من الاسكندرية إلى أقصى الصعيد وبالعكس) .. ثم .. كان حادث المنصة (أكتوبر ١٩٨١) الذي كان أول اغتيال شعبي للحاكم في مصر منذ زمن الفراعنة .. ثم كانت محاولة تنظيم الجهاد الاستيلاء على مدينة أسيوط بالقوة بعد ساعات من اغتيال السادات ..

تدافعت الأحداث في عنف واضح وبطموح أوضح .

وبعد سنوات قليلة من الهدوء المشوب بالحذر والتوتر (١٩٨١ ـ ١٩٨٥) انفجرت من جديد أحداث التطرف الديني .. في الجامعات .. والمساجد .. والشوارع .. ومعظم المدن المصرية .. ومن جديد تبادل النظام والجماعات الإسلامية الراديكالية العنف .. ومن جديد بدأت الدوائر المفرغة تدور .. وتدور .. ووقف المجتمع المصري على أظافره مشدودا ، مشدوها ، قلقا ، لا يعرف ماذا يخبىء القدر بعد ساعات قليلة ؟

إن أحداً ليس في حاجة إلى إثبات أهمية هذا الموضوع .

فهو يتقدم الآن كل الموضوعات والقضايا الأخرى .. مثل الصراع مع إسرائيل .. والأزمة الاقتصادية .. والديمقراطية على الطريقة المصرية .. مع كل التقدير والاحترام والاعتراف بصحة وجهة نظر الذين يعقدون خيوط الغزل ، ويدخلون خيوط هذه الموضوعات ـ وغيرها ـ في نسيج التطرف الديني .

لكن ..

هذا الإحساس بأهمية الموضوع وخطورته لا يمنع وجود شعور حاد وعميق باللبس والارتباك .. وعدم الفهم أحيانا .. وعدم الدقة في التفسير غالبا .. ولعل السبب هو أننا نسارع بالتفسير قبل أن تهدأ الأحداث ، وقبل أن تتوافر لنا البيانات ، فنقع في أخطاء التسرع ، وهي أخطاء لا تخلو من التعصب أحيانا ومن حسن النية أحيانا أخرى .. ولعل السبب هو أن التفسير جزء من الصراع السياسي بين الحكومة وهذه التنظيمات من ناحية ، وجزء من الصراع العقائدي ، بين هذه التنظيمات والتنظيمات والتيارات الأخرى ...

وبالتالي ، جاءت التفسيرات محاطة بحساسية أفكار ومواقف وحسابات أصحابها .

ومن ناحية أخرى يمثل الموضوع نفسه ـ لارتباطه بالدين ـ حساسية

إصابيه ، وحاصة ، يجعل الخوض فيه كالسير على الأشواك .. على الألغام .. على أسنة الرماح إذا جاز التعبير .. ويجعل من الصعب فصل عناصره الدنيوية عن عناصره الروحانية .. أو فصل عناصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن عناصره الدينية .. فهذا الفصل يفقد الموضوع خواصه وخصائصه ويحوله إلى موضوعات أخرى مختلفة ، مثل فصل عنصرى الماء عن بعضهما البعض .. سيكون لدينا أكسوجين ، وسيكون لدينا نيتروجين ، ولكن لن يكون لدينا ماء !

ومن ناحية ثالثة فإن الموضوع متشابك جداً ، معقد جداً ، مثل أى موضوع يكون الإنسان بطله ومحوره .. لذلك فهو يحتمل تفسيرات لا حد لها ، ومبررات لا حد لها ..

من صدام ثورة يوليو مع الإخوان المسلمين إلى هزيمة يونيو .. من معتقلات الخمسينيات والستينيات ، إلى انفتاح السبعينيات والثمانينيات .. من الهجرة إلى الثروة إلى الهجرة إلى الله .. ومن الديكتاتورية المؤلمة إلى الديمقراطية التى لها أنياب .. ومن الاندفاع إلى الغرب إلى الصلح مع إسرائيل . ومن تشويه الأيدلوجيات المعاصرة إلى تحطيم الزعماء والقادة .. ومن ازدواجية التعليم إلى ازدواجية الثقافة .. ومن تحطيم الإرادة إلى فرض الخرافة .. ومن بوتيكات شارع « الشواربى » إلى تحويل مدينة « بورسعيد » - رمز المقاومة والصمود - إلى مدينة « حرة » .. مفتوحة على البحرى .

وبالقطع ..

يمكن أن تضاف أسباب أخرى ، وتفسيرات واجتهادات أخرى ..

لكن ..

المهم أن نتخلص من العقد والحساسيات ونحن نقترب منها أو نتعامل معها .

وهذا ما عزمت عليه ..

والله على ما أقول شهيد .

□□

أكثر من ملاحظة هامة ، وضرورية ، يجب تسجيلها قبل ضربة البداية ، حتى نعرف طبيعة الرمال التى نغوص فيها ، أو نضرب فيها بعصانا .. لعل وعسى يكون طريقنا سليما ..

١ - إن عالمنا العربى يعيش الآن ما يسمى بالمد الإسلامى .. وما يحدث فى مصر ، يحدث بصورة أو بأخرى فى عدد كبير من الدول العربية من الخليج إلى المحيط .

ويعتقد أنصار هذا المد بفشل كل الأيدلوجيات والنظريات والتجارب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ، ويعتقدون أنها جُربت فى النظم العربية المختلفة ولم تفلح !!

وفى الحقيقة كانت تجاربنا مع هذه الأيدلوجيات ، تجارب مشوهة ، وغير مكتملة ، وعندما فشلنا قلنا إن العيب فيها لا فينا وقد سيطر علينا هذا الإحساس ، وروجنا له ، فوصل إلى أجيال جديدة ، كانت تسعى إلى الخروج مما حولها ، وكان « الحل الإسلامى » جاهزاً ، ينتظر على الأبواب .

وكانت عناصر الجذب فى هذا الحل عديدة ، فهو « إسلامى » وهو امتداد للتراث ، وهو « محلى » وليس مستوردا ، كما أنه لم يختبر منذ سنوات طويلة جداً .

وتضاعفت عناصر الجذب ، عندما نجحت الثورة الإسلامية فى إيران ، وقضت بالفعل على عرش « الطاووس » الذى كان بقعة سوداء ، قبيحة على جبين العالم الإسلامى .

ورغم أن رياح الثورة الإيرانية أتت أحيانا بما لا تشتهى سفن هذا المد ، فإن نجاحها ظل يثير اللعاب .

٢ ـ إن الحل الإسلامى بدا مغريا لبعض النظم الديكتاتورية العربية لكى تمد عمرها .. كان بالنسبة لها مثل غرفة الإنعاش .

كان هذا الحل مثلاً .. آخر الحلول التى لجأ إليها طاغية مثل جعفر نميرى ـ الرئيس السودانى السابق ـ لكى يخدع شعبه ، فأعلن نفسه إماما ، وطلب البيعة ، وأعلن الأحكام العرفية ، ولم يجد أمامه لإقناع الناس بالتقوى ، سوى الجلد ، وقطع الأيدى والأرجل من خلاف ، وشنق معارضيه بما فيهم رجال الدين والمشايخ وكبار العلماء .

ورغم أن البعض هلل له وكبر ، فإن شعب السودان لم تنطل عليه الخديعة فأسقطه فى انتفاضة شعبية نادرة لم يشهد عالمنا العربى مثلها من قبل .

وقد نال نميرى تأييد بعض أقطاب التيار الدينى فى مصر ، وعندما سقط ، رجموه بالكلمات ، وعندما تعرض خصوم الشريعة لتجربة نميرى الأخيرة ، قالوا : ليست هذه الشريعة التى نقصدها .. ولا هى التى فى إيران ، أو فى باكستان .. ولم يضيفوا .

٣ ـ إن المد الإسلامى المتنامى ، لا يتمتع بالتجانس ، وغير متوحد الأسلوب ، وتحت مظلته العريضة تقف جماعات وفرق بينها الكثير من الاختلافات والخلافات (لا نقول الصراعات) على الرغم من أنها جميعا ، إذا لم ترتبط بعضها البعض علاقة الدم ، فإنها ترتبط بعلاقة النسب .

فهناك من يرى أن المشكلة الإسلامية مشكلة « دينية » .. وهناك من يرى أنها مشكلة « تشريعية » .. وهناك من يعتقد أنها مشكلة « هوية » أو « حضارة » وهناك من يصر على أنها مشكلة « جاهلية » أى مشكلة مجتمع مسلم اسما لا فعلا ، يعيش من جديد عصر ما قبل الوحى والرسالة المحمدية .

وعلى ذلك ، هناك من يرى أن عليه دوراً فى نشر الدعوة .. وهناك من يرى أن دوره

هو الحوار والتوعية والدعاية ، وفضح الأيدلوجيات والتيارات الأخرى .. وهناك من يرى إمكانية استخدام الأساليب والوسائل المتاحة فى ظل النظام القائم ، للوصول إلى الحكم بالانتخابات والبرلمان وتغيير التشريعات .. وهناك من يرى أن كل ذلك مهاترات ، وأن الحل الوحيد الممكن ، والعاجل ، والشرعى ، هو رفع السلاح ، واستخدام العنف ، وقلب النظام بالقوة ، وتغييره بالقوة ، وتحويله إلى مجتمع صادق الإسلام بالقوة .

والفريق الأخير يوصف بالإرهاب أحياناً ، وبالعنف دائما .

ويسمى - فى قاموس علماء الاجتماع - بالإسلام « الثورى » أو الإسلام « الراديكالى » أو الإسلام « الحركى » أو الإسلام « الاعتراضى » .

ولا تحتاج هذه التسميات إلى توضيح .

٤ - داخل الفريق الأخير لن نجد التجانس ولا التوافق أيضا .

سنجد الخلاف يشمل الكثير ولا يترك سوى القليل .. من أسلوب التجنيد إلى أسلوب الحركة .. ومن كيفية التنظيم إلى توقيت الحركة .. ومن طريقة تحديد الهدف إلى تحديد وقت الانقضاض .

ولا يمنع الاختلاف من التنقلات بين تنظيم وآخر .. ومن أسلوب إلى آخر .

ولا يمنع الاختلاف من وجود علاقة عضوية بين التنظيمات المختلفة ، وكأنها خرجت من رحم واحد ، وبينها رباط خفى .

والأرقام والدراسات المتوافرة تشير إلى أن فى حملة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ، دخلت إلى السجون والمعتقلات ١٤ جماعة مختلفة من تلك الجماعات .

وبعد ٥ سنوات فقط ، قفز الرقم إلى ٣٦ جماعة .

٥ - إن هذه الجماعات التى تلعب أدواراً سياسية وأحيانا عسكرية تفضل أن تسمى نفسها باسم الجماعات الإسلامية ، حتى تعطى لنفسها صفة التمايز ، والتفرد بالانتساب إلى الإسلام ، إشارة منها - ولو بصورة غير مباشرة - أن غيرها من الجماعات - الدينية وغير الدينية - ليست إسلامية .

وقد اضطر أغلب من تعرض لها - بالبحث أو الدراسة - أن يقع فى هذا المطب ، وإن كان ذلك قد حدث بحسن نية ، من باب التحديد والتفرقة .

على أن الجماعات التى تحولت إلى تنظيمات وجدت نفسها مضطرة إلى اختيار اسم خاص بها ، مثل حزب التحرير الإسلامى ، وجماعة الحق ، أو جماعة المسلمين ، ومثل تنظيم الجهاد .

٦ - إن مواجهة بعض هذه الجماعات ، والتنظيمات ، التى خرجت من تحت الأرض ، أو من القمقم ، أو من الكهف ، تطلق النار ، كانت ولا تزال مواجهة أمنية فقط .. وكانت هذه المواجهة الأمنية تتسم بالعنف ، وكان مبرر أصحابها أن العنف لا يواجه إلا بالعنف .. والخروج عن النظام يؤدى إلى التعامل بشدة .

معنى ذلك أن شباب هذه الجماعات والتنظيمات يعاملون ـ فقط ـ بمنطق الخارجين عن القانون ... لا أكثر ، ولا أقل .

وعلماء الاجتماع ، يقولون إن أية أيدلوجية حاكمة تلجأ إلى العنف والقهر والسجون والمعتقلات وقوات فض الشغب والهراوات الغليظة والقنابل المسيلة للدموع ، هى أيدلوجية عاجزة عن المواجهة الفعلية .. هى أيدلوجية غير قادرة على الإقناع ولا الاستمرار .

إن الصراع لا يتوقف دائما بين الواقع (الأيدلوجية الحاكمة) والحلم (أيدلوجية جديدة بديلة تبحث عن فرصة) وأيدلوجيات الحلم تظهر وتقوى فى ظروف معينة تكون فيها أيدلوجية الواقع فى أزمة .. ويصطدم الحلم بالواقع (الأيدلوجية الجديدة بالأيدلوجية الحاكمة) .. وعند حد معين من الضعف ، لا يقاوم الواقع إلا بحلول مؤقتة .رشوة الجماهير .. مسكنات سريعة المفعول ، ثم العنف ، والقهر ، إلى أن يشاء الله .

والعنف لا يجدى ..
لأنه يولد العنف .
التجربة أثبتت ذلك .

فكثيراً ما أشير إلى أن العنف كان أبرز الأسباب التي ساهمت فى خلق أفكار التطرف ، وهو الذى زرعها فى تربة التكفير التي طرحت الاغتيال ومحاولات قلب نظام الحكم .

وقد كان ملفتا أن كل وزراء الداخلية الذين عينوا بعد مصرع السادات ، عاشوا كل تجارب الصدام مع التيار الدينى بداية من الإخوان نهاية بالجهاد ، ومع ذلك لم يتغير الأسلوب ، رغم أنهم لمسوا أسباب التطرف بأيديهم ، وعرفوا أن العنف دائما كان أبرزها .

إن الحكومة المصرية ومنذ تاريخ طويل ـ أوكلت مهمة التعامل مع هذا التيار لوزارة الداخلية فقط ، وكأنها تتعامل مع مشكلة جنائية لا مشكلة اجتماعية .. كأنها تتعامل مع حادث بسيط ، لا حادث شديد التعقيد .

ولاشك أن أجهزة الأمن من جانبها لم تتردد فى القيام بالمهمة كما يجب ، فكانت الاعتقالات الجماعية الزائدة عن الحاجة ، وكانت بلاغات التعذيب التى يتقدم بها المتهمون فى أول جلسة محكمة يقفون أمامها .. وقد كان التعذيب الذى يتعرض له الشباب المتطرف بعد القبض عليه ، عاملاً من عوامل نسيان ما فعلوه من قتل وحرق وتفجير ، حيث كان صراخهم مما وقع عليهم يغطى أحيانا على صوت الرصاص الذى أطلقوه ، والقنابل التى فجروها ، والضحايا الذين راحوا تحت الأقدام .

بل .. إن التعذيب الذى يتعرض له الشباب المتطرف كان يعد عاملاً من عوامل التعاطف معهم .. أو على الأقل كان من المحرج الهجوم عليه وهو فى هذه الحالة .

ولا أحد يقر التعذيب مهما كان السبب .. لأن العقاب الذى يفرضه القانون يكفى دائما .

والمذهل ...

أن الحكومة المصرية لم تلفت نظر الجامعات ومراكز الأبحاث الاجتماعية للاهتمام كثيراً بهذه الظاهرة ، وحتى الأبحاث القليلة التى أجريت كانت سرية جداً ، وممنوعة من التداول خارج مكاتب كبار المسئولين ، وأغلب الظن أن هؤلاء لم يقرأوها ، لأنهم لو كانوا فعلوا ذلك لتغير الكثير .

وباستثناء بعض الأبحاث الأكاديمية الفردية التى يغلب عليها طابع التحليل التاريخى ، كان الاهتمام بهذه الظاهرة خارج بلادنا أكبر وأهم .

ومن المثير للحزن أن يشير البعض إلى أن أهم كتاب عن الإخوان المسلمين كتبه مستشرق أمريكى « جون ميتشل » وأن أبرز الأبحاث الميدانية عن الجماعات الإسلامية ، أشرفت عليه الجامعة الأمريكية بالقاهرة (د ، سعد الدين إبراهيم ود . نعمة جنينة) ..

- من المؤسف أن نقرأ بالانجليزية كتاباً إسرائيليا عن المعارضة الدينية فى عهد السادات (كتبه مجموعة من الباحثين الإسرائيليين المتخصصين فى الشئون المصرية منهم يسرائيل التمان ، وعمى ايلون ، ومارتين كرامر) ولا نقرأ كتاباً مثله أو فى موضوعه باللغة العربية مكتوباً بأيد مصرية .

ولا تخلو مجلة من المجلات المتخصصة فى شئون الشرق الأوسط وتصدر عن الجامعات ومراكز الدراسات الأوروبية والأمريكية ، من بحث فى هذا الموضوع .. أسبابه .. تنظيماته .. وقادته ..

وقد حاولت أن أترجم ذهولى إلى انتباه ، فكتبته فى صيف ١٩٨٦ (مجلة روز اليوسف) أقترح على وزير الداخلية أن يحول ميزانية شراء سيارتين من سيارات الأمن المركزى إلى فريق من الباحثين لدراسة الموضوع حتى لا تكون المواجهة أمنية فقط .

لكن .. لا حياة فيمن تنادى !

وكأن المطلوب إطفاء الحرائق بمزيد من الحرائق !

٧ - رغم الصدام الرسمى ، الدموى ، الذى وقع - ولا يزال - بين أجهزة الأمر وبعض هذه الجماعات - فإن الاتجاه العام فى الدولة هو التهوين من حجم الخطر ومن حجم المشكلة .

وتصر الدولة على أن القضاء على هذه الجماعات أمر فى متناول اليد .

ورغم أن حجم المشكلة يتزايد ، وحجم مقاومتها يتضاعف ، لا يزال التهوين أبرز خصائص الإدارة المصرية .

ومن باب التهوين تدفقت التصريحات الرسمية لتؤكد أن الضجة التى تثار بين الحين والآخر حول العنف الدينى أكبر من حقيقته .

أكدت هذه التصريحات أيضاً : أننا لا ننفرد بالمشكلة دون خلق الله ، والتطرف موجود فى العالم العربى ، والإسلامى ، والغرب والشرق وفى إسرائيل .

باختصار .. نحن مثل الآخرين .. فلا غرابة !

وأرجعت هذه التصريحات بروز مصر الواضح فى هذه الظاهرة إلى أن مصر دولة « ديمقراطية » تعترف بالمعارضة ، وتسمح بنشر الحقائق ، بينما فى البلاد الأخرى ، يقبض على أفراد التنظيمات فى سكون تام ، وفى سكون تام أيضاً يذهبون وراء الشمس ، ويسحلون ، ويقضى عليهم ، دون صوت أو خبر !

٨ ـ ولعل السبب الرئيسى وراء هذه الثقة التى تصل إلى حد التهوين من خطورة هذه الظاهرة، هو تعاظم دور القوات المسلحة فى الحفاظ على الأوضاع .

ورغم أن التنظيمات الدينية المسلحة التى كشفت حتى الآن كان من بين أعضائها الحيويين أو المقربين رجال من القوات المسلحة (أبرزهم خالد الاسلامبولى وعبود الزمر وكارم الأناضولى منفذ حادث الفنية العسكرية) ، إلا أن القوات المسلحة لا تزال حائط الصد القوى الذى تتحطم عليه كافة المحاولات .

وقد كان ذلك واضحا بعد أحداث تمرد جنود الأمن المركزى(فبراير ـ ١٩٨٦)

كما كان واضحا فى كل قضايا التطرف الدينى(ما عدا تنظيم الجهاد) حيث كانت هذه القضايا ـ غالبا ـ من نصيب القضاء العسكرى .

٩ ـ باستثناء بعض المحاولات الجريئة ، استسلم معظم المثقفين الرافضين للتطرف الدينى للصمت .. انتابهم الخوف فسارعوا بالخروج من حلبة المواجهة .. وأصيب بعضهم بالفزع ، فراح يلقى بعبارات الغزل ، وأوراق الورد ، والرايات البيضاء تحت أقدام أولئك الشبان .

وأصبح من النادر أن تجد من يعلن ـ بصراحة ـ موقفه السياسي ، لأنه مهما كان هذا الموقف ، فإنه سيصمه بالكفر والكفر يبيح دمه ، ويكلفه حياته .

كما أن هناك من قنع ـ بينه وبين نفسه ـ أن أولئك الشبان قادمون .. ومن الأفضل المراهنة عليهم ، ولو بالسكوت .

ومن جانبها راحت أحزاب المعارضة تفتح صفحات جرائدها لهذا التيار .

دون أن تنتبه هذه الأحزاب إلى أن أول الأهداف القضاء عليها .

□□

ربما ..

كانت هذه الملاحظات صدمة للبعض .

وربما ..

كانت مؤلمة للبعض الآخر .

لكنها ..

بالفعل خالصة لوجه الحق .

وضرورية لتحديد معالم الطريق .

إن هذه الملاحظات ترسم الصورة الآن ، وهى صورة ـ بحكم سخونة الأحداث وتدفقها ـ لا يمكن أن نستطيع تحديدها .. ولا الاقتراب منها

ذلك تورط قد ينتهى بالندم العلمى !

لكن .. من المؤكد أن الصورة التى اكتملت ملامحها باغتيال السادات ، يمكن الاقتراب منها . وتحليلها .. والغوص فيها .. وتحليل ملامحها ..

ذلك ممكن .. على الأقل بحكم توقف الزمن والتاريخ عند لحظة معينة .. انتهى عندها عهد وبدأ عندها عهد آخر ، مع اعترافنا الكامل بأن مسيرة الشعوب لا يقطعها رحيل حاكم ، أو تولى السلطة حاكم آخر .. لكن .. هذا من طبائع التيسير ..

إننا سنبدأ من نقطة يكاد يجمع الكل على أنها بداية سليمة لمناقشة ظاهرة التطرف الدينى .. سنبدأ من هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وسنتوقف عند نقطة يكاد يجمع الكل على أنها ذروة دراما التطرف الدينى .. سنتوقف عند حادث اغتيال السادات ..

وبين صدمة الهزيمة ورصاص الاغتيال ستتساقط الأسباب والأحداث والآراء والتحليلات . وأيضا المفارقات والمقارنات ..

وسرد التفاصيل هى مهمة الفصول القادمة . بالطبع !

□□

ولعلنى.. وأنا أقدم هذا الكتاب ..

لا أكون مثل « جحا » عندما سئل عن أذنه أين هى ؟!!

فقد بدأ اهتمامى بظاهرة التطرف والعنف الدينى من الذروة .. من القمة .. من حادث المنصة . فكان كتابى « اغتيال رئيس » . الكتاب ـ المفتاح .. ولعل العذر يكون من نصيبى إذا ما قلت إن حادث اغتيال السادات كان فى تقديرى يستحق أن نبدأ من عنده الاهتمام .

وأعترف أننى لم أفكر خارج حدود هذا الحادث .. لكننى وجدت نفسى أوسع دائرة الاهتمام ، وأفتش عن أسرار التنظيم الذى أفتى بكفره ، وأباح دمه ، وشجع على التخلص منه ، فكان أن قدمت كتاب « قنابل ومصاحف » .. عن قصة تنظيم الجهاد .

وأعترف أننى تصورت أن هذه هى النهاية .

لكننى من جديد وجدت نفسى أقارن بين هذا التنظيم والتنظيمات المشابهة التى سبقته ، وبين حادث اغتيال السادات وحادث اغتيال الشيخ الذهبى ، ووجدت

نفسى أفتح ملفات القضايا ، وأقارن بين الأبطال ، والأفكار .. ثم كان لابد أن أغرق حتى شعر رأسي .

كل قضية تسلمنى إلى القضية التى قبلها ، وكل فكرة تدفعنى لفكرة أخرى سابقة عليها ، وكل شخصية تورطنى فى دراسة شخصية تعلمت منها ، وتأثرت بها ، وجاءت فى عصر آخر غير عصرها .

وهكذا ..

وجدت نفسى أتراجع من تنظيم الجهاد إلى تنظيم جماعة المسلمين إلى تنظيم حزب التحرير الإسلامى ، إلى تنظيم الإخوان المسلمين الأخير سنة ١٩٦٥ .

ووجدت نفسى أتراجع من محمد عبد السلام فرج ، إلى شكرى مصطفى ، إلى صالح سرية ، إلى سيد قطب .

وتوقفت طويلا .. طويلاً عند سيد قطب .

إنه « الأستاذ » و « المعلم » و « الأب الروحى » لكل من جاء بعده .. إنه صاحب الأفكار والنظرية الأصلية وكل من جاءوا بعده لم يختلفوا كثيراً .

فكان كتابى عنه تحت عنوان « سيد قطب من القرية إلى المشنقة » .

ثم ..

كان هذا الكتاب عن الذين جاءوا بعده .

□□

اخترت لهذا الكتاب عنوان :

« الهجرة إلى العنف »

« قصة التطرف الدينى من هزيمة يونيو إلى اغتيال أكتوبر » .

والشق الثانى من العنوان واضح ، ولا يحتاج إلى تفسير ، بل ربما كان هو فى حد ذاته تفسيراً للشق الأول ، ولولاه لصعب على القارىء تحديد موضوع الكتاب بسهولة .

والشق الأول يغلب عليه الأسلوب الأدبى ، لكنى وجدت نفسى أستوحيه من التنظيمات التى هاجرت بعيداً عن المجتمع ثم غيرت جلدها وأفكارها وعادت تواجه المجتمع بالعنف والرصاص المحرم دوليا ودينيا والمعروف باسم « دمدم » .

وأحسست أن العنوان مناسب لكتاب يؤرخ للعنف الذى عشناه ونعيشه ، ويفسر الأسباب التى أدت إليه ويقدم الوقائع المعبرة عنه .

فهل كنت موفقا فى الاختيار ؟!

□□

وبعد ..

هذه المقدمة التى طالت ..

ندخل فى الموضوع ..

مع كل الاحترام والتقدير والعرفان بالجميل لكل من ساهم فى أن يصل الكتاب إلى يديك .

ولك أنت أيضا .. سيدى القارىء .

عادل حمودة

القاهرة

الجمعة ـ ٣٠ ابريل ١٩٨٧

تسلسل الأحداث

فصول الكتاب غير مرتبة حسب التسلسل التاريخى للأحداث .

لذلك ...

نثبت ـ فى البداية وقبل الدخول فى التفاصيل ـ تسلسل هذه الأحداث حسب تاريخ وقوعها .

سبتمبر ١٩٦٥	: دخول شكرى مصطفى المعتقل على ذمة إحدى قضايا الإخوان .
أكتوبر ١٩٦٦	: إعلان مؤسس جماعة المسلمين على عبده إسماعيل تخلصه من أفكار التكفير والهجرة داخل السجن .
٥ يونيو ١٩٦٧	: هزيمة الجيش المصرى واحتلال إسرائيل لسيناء .
٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧	: مظاهرات الشعب المصرى لإعادة جمال عبد الناصر إلى السلطة بعد تنحيه .
١٩ فبراير ١٩٦٨	: صدور الأحكام فى قضايا التقصير داخل القوات المسلحة ، والتى عرفت بأحكام الطيران .
٢٠ فبراير ١٩٦٨	: مظاهرات عمال حلوان احتجاجا على الأحكام .
٢١ فبراير ١٩٦٨	: مظاهرات الطلبة احتجاجا على الأحكام وعلى اعتقال عمال حلوان .
٢٢ فبراير ١٩٦٨	: إلغاء الأحكام وتعطيل الدراسة فى الجامعات .

١٣ مارس ١٩٦٨	: عبد الناصر يعلن فى الجبهة أن مظاهرات الطلبة تعبير عن شعور بالتمزق .
١٤ مارس ١٩٦٨	: بيان مديرى الجامعات عن المظاهرات الطلابية .
٢٨ مارس ١٩٦٨	: بيان نادى القضاة عن الحركة الطلابية .
٣٠ مارس ١٩٦٨	: بيان ٣٠ مارس .
٥ مايو ١٩٦٨	: إعلان ظهور السيدة العذراء فى كنيسة الزيتون .
٢١ نوفمبر ١٩٦٨	: اندلاع مظاهرات طلبة المدارس فى المنصورة .
٢٣ نوفمبر ١٩٦٨	: امتداد مظاهرات المنصورة إلى جامعة ومدينة الأسكندرية .
٢٣ ديسمبر ١٩٦٨	: إعلان مؤامرة لاستغلال أحداث الأسكندرية لصالح المخابرات الإسرائيلية ، وعقد دورة طارئة للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى لمناقشة موضوع الطلبة والجامعات .
٢٨ سبتمبر ١٩٧٠	: رحيل جمال عبد الناصر .
١٥ أكتوبر ١٩٧٠	: تولى أنور السادات السلطة رسمياً .
١٥ مايو ١٩٧١	: انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ .
١٥ أكتوبر ١٩٧١	: خروج شكرى مصطفى وعمر التلمسانى مع عدد من الإخوان المسلمين من السجن .
١٥ يناير ١٩٧٢	: الانتفاضة الطلابية ضد أنور السادات .

٤ فبراير ١٩٧٢	: فصل ١٢٣ كاتبا وصحفيا من أمانة تنظيم الاتحاد الاشتراكى ، وتحويلهم إلى هيئة الاستعلامات .
٢٣ سبتمبر ١٩٧٢	: اكتشاف خلايا تنظيم شكرى مصطفى فى كهوف ومغارات جبال الصعيد وتقديم بعض الأعضاء إلى المحاكمة فى ١٧ قضية أمن ولة .
٦ أكتوبر ١٩٧٣	: العبور والحرب العربية الإسرائيلية الرابعة .
أكتوبر ١٩٧٣	: رحيل حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين ، وخلافة عمر التلمسانى له .
١٨ أبريل ١٩٧٤	: حادث الفنية العسكرية .
١٩ أبريل ١٩٧٤	: القبض على د . صالح سرية زعيم التنظيم الذى دبر الحادث .
٣٠ مايو ١٩٧٥	: محاكمة تنظيم حزب التحرير الإسلامى الذى يرأسه صالح سرية .
١١ أكتوبر ١٩٧٥	: الحكم على صالح سرية بالإعدام .
أول يوليو ١٩٧٦	: الإصدار الثانى لمجلة الدعوة .
١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧	: مظاهرات الطعام .
٣ يوليو ١٩٧٧	: اختطاف وزير الأوقاف الأسبق الدكتور حسين الذهبى .
٧ يوليو ١٩٧٧	: إعلان اغتيال الدكتور الذهبى .

٨ يوليو ١٩٧٧	: القبض على شكرى مصطفى .
٦ نوفمبر ١٩٧٧	: محاكمة شكرى مصطفى .
١٩ نوفمبر ١٩٧٧	: زيارة السادات للقدس .
ديسمبر ١٩٧٧	: سيطرة الجماعات الإسلامية على الاتحادات الطلابية فى معظم الجامعات .
مارس ١٩٧٩	: مفترق الطرق بين السادات والجماعات الإسلامية ، وإعلان السادات : أنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة .
٢٦ أبريل ١٩٧٩	: اتفاقيتا « كامب ديفيد » .
مارس ١٩٨٠	: احتلال مكتب عميد كلية علوم ـ جامعة الأسكندرية ،بواسطة الجماعات الإسلامية لفرض بعض الشروط .
يونيو ١٩٨١	: أحداث الزاوية الحمراء .
٣ ـ ٥ سبتمبر ١٩٨١	: اعتقال رموز المجتمع المصري من مختلف التيارات والاتجاهات .
٦ أكتوبر ١٩٨١	: اغتيال السادات

|١|

قتلى فى ثكنة عسكرية !

□ مصر يوم حادث الفنية العسكرية □ بعد ٦ شهور فقط على حرب اكتوبر □ سبب آخر غير سجون يوليو □ التفسير الأمنى للحادث □ من هو د . صالح سرية □ حزب التحرير الإسلامى متى ؟ وأين بدأ ؟ □ د . صالح سرية يتصل بالإخوان المسلمين □ زينب الغزالى : اقرر ان السادات رجل مؤمن ابن رجل مؤمن □ التنظيم يجند الشباب والطلبة فقط □ خطة الاستيلاء على السلطة □ نص البيان الأول لرئيس الجمهورية الإسلامية □ لماذا فشلت الخطة ؟ □ .

صباح يوم الجمعة ١٩ أبريل سنة ١٩٧٤ ..

الصحف اليومية الصادرة فى القاهرة ، والتى يقرؤها الناس - عادة - بنصف حماس ، ونصف تصديق ، حملت فى ذلك اليوم مجموعة من الأخبار فى صفحاتها الأولى ، كان لها من الدلائل والرموز والتحولات مالم يكشف بوضوح إلا فيما بعد ![1]

« السادات وقواد الجيش يقررون تنويع مصادر السلاح » .

« السادات يقول فى اجتماع مشترك بين مجلس الشعب واللجنة المركزية : لن نصادق الولايات المتحدة على حساب الاتحاد السوفيتى » .

« استفتاء الشعب على ورقة أكتوبر .. لتطوير الاتحاد الاشتراكى العربى » .

« العفو عن مصطفى أمين » .

« العفو عن الفريق محمد فوزى والفريق صدقى محمود » .

« كيسنجر فى القاهرة بعد ٢٤ ساعة » .

وفى ذيل الصفحة الأولى ، صرح مصدر مسئول و« مجهول » ، بأنه « حدث صباح أمس أن حاول ١٦ شخصا بعضهم من الطلبة ، الاعتداء على الكلية الفنية العسكرية ، وهاجموا حرس الكلية ، وقد قام أفراد الكلية بضبطهم بعد أن جرح عدد منهم ، وتتولى نيابة أمن الدولة التحقيق »[2]

هكذا ..

وفى خبر أقل أهمية من خبر سرقة ثياب راقصة أو خبر طلاق فنانة ، بدأت قضية تنظيم الدكتور صالح سرية ، التى عرفت بقضية « الفنية العسكرية » والتى كانت أولى قضايا

---

(١) لعله تحصيل حاصل ان نذكر ان تنوع مصادر السلاح انتهى إلى استبدال السلاح السوفيتى بالسلاح الأمريكى ، وان الصداقة مع الولايات المتحدة انتهت بقطع العلاقات مع الاتحاد السوفيتى ، اما ورقة اكتوبر ، وتطوير الاتحاد الاشتراكى فقد انتهيا إلى قرار فردى من السادات بقيام المنابر ، التى تحولت بقرار فردى آخر منه إلى احزاب .

(٢) الأهرام - الجمعة ١٩/٤/١٩٧٤ .

العنف والتطرف الدينى فى السبعينيات ، وكانت بمثابة « بروفة » كاملة ـ بالثياب والأسلحة والشباب وباقى المؤثرات الدرامية لحادث اغتيال رئيس الجمهورية ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

إن الحادث بدا مفاجئا ومذهلاً بكل المقاييس .. وقع دون إنذار أو أعراض حمل ملفتة للنظر .. ونزل كسيول الصيف فى يوم حار تحكمه وتسيطر عليه أشعة الشمس .. ولم تكن فى السماء سحب ولا غيوم .

وقع الحادث فى وقت كانت فيه « شعبية » السادات فى القمة .. إذ لم يكن قد مضى على « عبور » أكتوبر العظيم أكثر من ٦ شهور فقط .. وكان العرب ـ من المحيط إلى الخليج ـ فى حالة الزهو والانتشاء بما تحقق ، فى حالة التفاخر بأنفسهم .. ومن الإنصاف أن نذكر أن السادات ـ فى ذلك الوقت ـ كان بؤرة ضوء مُبهرة ولم تكن عيوبه وعيوب حكمه قد ظهرت بعد .. بل على العكس ، كان « صاحب القرار الشجاع بالحرب » التى ردت أنفاس الكرامة التى قطعت بالهزيمة إلى الشعب المصرى ، وكان يقدم نفسه كحاكم « ليبرالى » يرفض الإرهاب والمعتقلات ، وصورته أجهزة دعايته وهو يحرق شرائط التصنت ، ويهدم أحد المعتقلات التى شهدت داخل جدرانها الكثير . كما أنه كان يتحدث عن الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، وسيادة القانون ، ويعلن عداوته الشديدة لقهر وعسف أجهزة الأمن . كذلك كان شهر العسل قد بدأ بينه وبين الإخوان المسلمين ، والتحالف بينهما يقوى وتثبت أركانه .

فإذا كانت هذه هى الصورة ، فلماذا حدث ما حدث ؟

وضاعف من صداع الحيرة أن قائد العملية ليس مصريا .. أى أنه لم يعانِ قهر السجون ولا قسوة التعذيب ولا رطوبة المعتقلات ، ولم يتلق لكمة أو صفعة أو ضربة سوط أو إهانة واحدة من جلاد .. ولم يغضب من علمانية الثورة .. ولم تحيره تصرفات عبد الناصر !!

لابد إذن من سبب جديد .. سبب آخر .. غير تقليدى ، غير التعذيب ، والكبت ، والهزيمة ، وثورة يوليو ، سبب مختلف عن الأسباب التى تقال وترص كلما جاءت سيرة التطرف الدينى .. فما هو ياترى ؟

هذه الحيرة نفسها ، أصابت نظام السادات فى ذلك الوقت . وكان أن عجز عن تفسير ما حدث تفسيراً مقنعاً ، وكان أن رفض الموضوع برمته ، وألقى بملفاته كلها إلى جهات الأمن والقضاء ، وفضل ألا يزعج نفسه ، أو يرهقها بحثا عن تفسير مناسب ، أو حقيقى ، لأنه ـ فى الواقع ـ كان مشغولا بما هو أهم بالنسبة له .. كان مشغولا بصقل وتجميل صورة السادات . وتركيز كشافات ملونة وقوية عليها .. ولم يكن راغبا فى أى « شوشرة » على الفرعون الجديد الذى يجلس على عرش مصر ، ثم .. إن مخططا كبيراً كان قد بدأ تنفيذه

لدوران البلاد فى فلك الغرب والأمريكان ، ولم يكن أحد مستعداً للخروج عنه ، والالتفات لغيره ، مهما كان حجمه وخطورته .

وكان .. أن لجأ النظام إلى التفسير الأمنى ، وأراح نفسه باعتبار ما حدث مؤامرة ، دبرتها مخابرات الحكومة الليبية ، المعادية للتقارب المصرى الأمريكى بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وزعم أن قائد التنظيم على علاقة بها ، وبعد إعلان هذا التفسير ـ الذى جعله يشعر بالراحة ـ غرق فى سبات عميق .

إن أول بيان للنائب العام عقب الحادث ، أشار إلى أن د . صالح سرية : « سافر إلى ليبيا بدعوة من حكومتها لبحث موضوع تكوين وحدات مقاومة بالدول العربية وترتيب مصادر تمويلها وتقابل مع شخصيات ليبية مسئولة ، وفى هذه اللقاءات سمع من بعض هؤلاء المسئولين اتهامات لسياسة جمهورية مصر العربية » [٣] .

وبعد يومين وزعت أجهزة الأمن على الصحف صورة ضوئية لورقة عليها اسم مكتب العلاقات الليبية « تحمل رقم كودى ١٦٢١ ـ ٧٢/٦/٦ » وتحمل عبارة « الأخ الدكتور صالح سرية » لا أكثر ولا أقل ، وصورة ضوئية لخطاب من نفس المكتب « يحمل رقم كودى ١٦٢١/٢/٨ » موجه إلى الدكتور صالح سرية ويشير إلى أن دعوته لزيارة ليبيا تحدد موعدها يوم ٩ يونيو ١٩٧٣ ، وأن عليه استلام التذاكر من الخطوط الجوية الليبية .[٤]

وبعد حوالى الأسبوع نسبت الصحف للدكتور سرية . أنه صرح فى التحقيق المبدئى عما دار بينه وبين الرئيس الليبي العقيد معمر القذافى ، وقال : « إن القذافى قرر له أن هناك مخططات لتصفية القضية الفلسطينية وأن لقاء القمة بين بريجنيف ونيكسون عقدا فيه معاهدة ، هدفها تقسيم المنطقة العربية بينهما » و « إن مصر وافقت على ما تم بين الكتلتين الكبيرتين ولم يعد لديها مانع من حل قضية فلسطين بالأسلوب الذى ارتآه الاتحاد السوفيتى وأمريكا » وأضاف د . سرية : « إنه فهم من حديث القذافى أنه معادٍ للنظام القائم فى مصر وأنه يستهدف إثارتى ضده ، وأن قصده أنه هو المخلص الوحيد لقضية فلسطين وأن الرئيس السادات وغيره من الزعماء العرب غير مخلصين ، وأنا خرجت من هذا اللقاء متأثراً بما دار فيه من موقف مصر ، وكان لهذا الأمر بطبيعة الحال بعض التأثير فى نفسى فيما دبرت وخططت » .[٥]

كان هذا كل ما قدمه نظام السادات لإثبات أن ما حدث كان مؤامرة ليبية .. ولو كان هذا صحيحا فإنه فى الواقع ليس فيه ما يشير من قريب أو بعيد للمؤامرة .. فمن الطبيعى أن يسافر د . سرية « وهو موظف بالجامعة العربية » إلى ليبيا .. ومن الطبيعى أن يتلقى دعوة

---

(٣) الاهرام ـ ١٩٧٤/٤/٢٠ .
(٤) الاهرام ـ ١٩٧٤/٤/٢٥ .
(٥) الاهرام ـ ١٩٧٤/٤/٢٨ .

وتذكرة السفر على الخطوط الليبية .. ومن الطبيعى أن يقابل العقيد القذافى ويسمع تحليلاته للأمور .. ومهما كانت هذه التحليلات معادية لمصر فإنها لم تحمل شبهة المؤامرة . ثم .. إن حادث الانقلاب كان من أجل إقامة « الجمهورية الإسلامية » ولم تصاحبه أية إشارة إلى تحرير فلسطين ، أو معاقبة الذين خانوا قضيتها .

وعلى ما يبدو ، استسخفت أجهزة التحقيق الجرى وراء سراب المؤامرة ، فتعمدت ـ بعد ذلك ـ نسيانها ، ولم تعد تذكرها أو تلوح بها .

إن الهدف كان إطلاق قنبلة دخان فى مكان آخر غير الذى وقع فيه الحريق ، لإبعاد الأنظار عن الحقيقة ، ولإغراق الناس فى وهم ، لم يدفع ثمنه إلا السادات نفسه ، فيما بعد .

□□

كل ما هو متاح عن د . صالح سرية لا يزيد على كونه تخطى سن الشباب .. ولد فى فلسطين قبل الاحتلال الصهيونى لها ، فى مدينة « حيفا » التى ولد وعاش فيها « تقى الدين النبهانى » مؤسس حزب « التحرير الإسلامى » .. إن هناك من يقول إن النبهانى أسس الحزب عام ١٩٥٠ كرد فعل لهزيمة الجيوش العربية فى فلسطين .. وهناك من يقول إن حزب « التحرير الإسلامى » كان امتداداً لجماعة الإخوان المسلمين ثم انشق عنها بسبب الخلاف حول توقيت استخدام العنف ، ومبرراته ، وأهدافه .. وقد أقام الحزب فروعاً له فى سوريا ، ولبنان ، والعراق ، والأردن .. ولا يزال يمارس نشاطه فى الضفة الغربية المحتلة .

ولا أحد يعرف الكثير عن مؤسس الحزب ، ولا طبيعته ، ولا أسلوبه التنظيمى ، ذلك أن تقى الدين النبهانى كان شخصية تجنح إلى الغموض ، وموهوبا فى العمل السرى ، وكان حريصاً على ألا يعرف أعضاء الحزب بعضهم البعض إلا فى أضيق الظروف .. وعند الضرورة .. فقد كان كل ما عليهم أن يتلقوا أوامره .. وينفذوها .. وكل ما تسرب من معلومات عن الحزب كان لا يزيد على محاولة لتفسير قيامه .. فقد قيل إنه قام لإعادة فلسطين إلى أصحابها تحت لواء « الإسلام » .. « لأن العرب خسروا الحرب ضد اليهود لأنهم لم يدخلوها كمسلمين » !

ويبدو أن الحزب أراد ركوب موجة المحنة الأولى للإخوان (١٩٤٨) وظروف اغتيال حسن البنا (١٩٤٩) فنقلت بعض المصادر عن مؤسسه أنه قام ليواصل مهمة الإخوان .. وفى الحقيقة كان الخلاف كبيراً بين حزب « التحرير الإسلامى » وجماعة الإخوان المسلمين .. فالإخوان ـ مع وجود الجهاز السرى (النظام الخاص) المسلح كانوا يدعون لنشر الدعوة وتطبيق الشريعة بالتدريج ، كما أنهم استخدموا فى تحقيق ذلك وسائل شتى ، منها التحالف مع الأحزاب السياسية ، ومنها استخدام القوة إذا لزم الأمر .. أما

حزب التحرير الإسلامى فكان يرى أنه لا مفر من الاستيلاء على السلطة بالقوة .. فى البداية ، وقبل أى شيء ، ثم يفرض الإسلام ، وتفرض الشريعة على المجتمع فوراً .. ومن أعلى .

وحسب ما جاء فى بيان النيابة عقب الحادث مباشرة ، فإن « حزب التحرير الإسلامى هو حزب مشبوه نشأ فى الأردن ثم حظر نشاطه » .

وحسب نفس المصدر ، فإن د . صالح سرية بدأ نشاطه قبل عام ١٩٦٠ بالعراق ، حيث كان لاجئا ، والتحق فى عهد عبد الكريم قاسم « بدورة ضباط احتياط » بترشيح من الحاج أمين الحسينى « رئيس الهيئة السابقة التى كانت تعرف باسم الهيئة العربية العليا لفلسطين » « وتزعم جماعة بالعراق للقيام بالاغتيالات السياسية وسبق له أن انضم إلى الحزب الشيوعى الأردنى ، وجماعة الإخوان المسلمين ، وتنقل فى عدد من المنظمات الفلسطينية » .. وقد نشرت له الصحف المصرية صورة قديمة بالملابس العسكرية وهو يحمل رتبة النقيب ، كما نشرت صورة لبطاقة عضويته فى جبهة التحرير الوطنى الفلسطينية ، وكان رقم هويته فى الجبهة ٣٠٥٨ أما رقمه العسكرى فكان ١٠٥٨ .

مصادر الجامعة العربية فى القاهرة ، ذكرت ـ فى ذلك الوقت ـ أنه التحق بها عام ١٩٧١ ، بعد أن هرب من الأردن عام ١٩٧٠ ، إلى العراق ، وبعد أن حصل ـ بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية ـ على الجنسية العراقية .. وفى إدارة اليونسكو العربية « التابعة للجامعة العربية » عمل ـ بعد وصوله القاهرة ـ فى وظيفة باحث علمى ، حيث أنه يحمل شهادة الدكتوراة فى التربية ومناهج التعليم .

فى التحقيق الأولى ، اعترف د . صالح سرية بأنه اتصل ببعض القيادات القديمة للإخوان المسلمين فى مصر ، ومنهم المرحوم حسن الهضيبى (كان قد توفى قبل بضعة شهور فى سنة ١٩٧٣) والشيخ محمد الغزالى ، والاسم النسائى الشهير فى الجماعة ، زينب الغزالى ، وغيرهم ، وأنه « عرض عليهم تصوره بالنسبة لإقامة مجتمع إسلامى ، ودولة إسلامية » . إلا أن زينب الغزالى ، ردت فى بيان أرسلته إلى الصحف ، نفت فيه أى تدبير مشترك للإخوان والدكتور سرية .. وقالت : « ليس أنور السادات هو ذلك الرجل الذى تقبل زينب الغزالى أن تلتقى برجل تَعْلَمُ أنه ضده ، وإننى أقول إن أنور السادات جاء لحكم جمهورية مصر العزيزة المسلمة وبحار من دماء الظلم تجرى ، فعمل على أن يوقفها وأوقفها فعلا ، فليس ذلك هو الرجل الذى تقبل أن تلتقى بخصم له ، وإذا كان هذا الشخص قد التقى بى ، فقد التقى بى على أنه مسلم ، ولكن ما ارتكب من جرائم ضد هذا البلد العزيز المسلم ، لا نقبله ولا نرضاه بل نستنكره ونقرر أننا نفتدى مصرنا المسلمة بأرواحنا . كما أقرر أن أنور السادات رجل مؤمن ابن رجل مؤمن ، وأنا أعرف أباه وأعرف إيمان أبيه وتقواه . وإنى أنفى علمى بحادث الكلية « الفنية » العسكرية وأستنكره ولا علم لى بأى



حسن الهضيبي : اتصل به صالح سرية .



زينب الغزالي : السادات مسلم ابن رجل مسلم .

نشاط أخر قام به صالح سرية . ولا أفهم معنى أن يحارب هؤلاء الأشخاص أنور السادات الذى أطلق الحريات وأقام فعلاً عدالة القانون . وإنى أستنكر الاعتداء على جندى مصرى واحد من جيشنا العزيز الذى رفع كرامة بلاده » .(٦)

وفى بيان آخر نفى الشيخ محمد الغزالى (كان مستشاراً لوزارة الأوقاف فى ذلك الوقت) أنه التقى من قبل بصالح سرية ، « قائد التنظيم المشبوه » على حد قوله ، وأضاف : « إن أسلوبى الوحيد فى الدعوة هو العمل لخدمة الإسلام بالفكر والإقناع فى وضح النهار ، ولست الذى يتآمر على الرئيس المؤمن محمد أنور السادات أو ينكر أياديه البيضاء » .(٧)

□□

التنظيم الذى أسسه وقاده صالح عبد الله سرية لم يبتعد كثيراً - فى أسلوبه وأهدافه وطرق تجنيد الأعضاء - عن حزب التحرير الإسلامى ، وإن حمل اسما مختلفا هو « شباب محمد » وأغلب الظن أن تغيير الاسم كان - فقط - لإبعاد شبهة الارتباط بحزب التحرير الإسلامى ، الذى أثيرت حوله دعايات مضادة ، كان من الممكن أن تجعل الشباب يرفض تنظيم د . سرية لو حمل نفس الاسم .

وقد تحرك د . سرية فى أوساط الشباب والطلبة فى القاهرة والأسكندرية والفنية العسكرية بالطبع ، ونجح فى ضم عدد لا بأس به منهم ، مع بعض الجنود ، وكان عدد أعضاء التنظيم الذين كشفوا ، وقبض عليهم حوالى ١٠٠ عضو ، وكان هناك بعض الأعضاء لم تصل إليهم يد أجهزة الأمن .

وحسب ما جاء فى التحقيقات كانت الأولوية لتجنيد الشباب حديثى السن ، من طلبة الجامعات والمدارس الثانوية ، تحت ستار الدين .. وكان « يراعى فى الاختيار الأفراد الذين يَتَّسِمُون بالاندفاع والتهور والاستعداد لتنفيذ ما يؤمرون به دون تردد ، التزاما بمبايعتهم لرئيس التنظيم على السمع والطاعة ، كما كان يراعى فيهم كذلك ألا تكون لهم ارتباطات يحرصون عليها من وظيفة أو زوجة أو ولد ، وعدم ارتباطهم بجماعات دينية أخرى »(٨) .

وحسب نفس المصدر : كان د . سرية حريصاً على عدم إثارة الشكوك حوله ، فلم ينفق مليماً واحداً على أعضاء التنظيم « حتى لا يتشككوا فى حقيقة نواياه » بل على العكس ، طلب إليهم التبرع للتنظيم .. « حتى أن أحد أفراد التنظيم باع مصاغ زوجته بمبلغ ٥٠ جنيها تبرع بها للتنظيم » وقد نجح د . سرية « فى تشكيل عدة مجموعات من الشباب ، كل

---

(٦) الأهرام - ١٩٧٤/٤/٢٧ .
(٧) الأهرام - ١٩٧٤/٤/٢٨ .
(٨) البيان الثانى للنيابة يوم ١٩٧٤/٤/٢٤ .

مجموعة تضم ما بين أربعة وستة أعضاء ، لا يعرف أى منها أفراد المجموعات الأخرى » .(٩)

ولعل من المفيد أن نعرف بصورة حية ، كيف تم تجنيد أحد الأعضاء ، وقد اخترنا قصة تجنيد الطالب كامل محمد عبد القادر ، لسبب بسيط هو توافر اعترافاته لدينا .. إن كامل محمد عبد القادر كان طالبا بكلية طب جامعة الأسكندرية وكان عمره وقت الحادث ٢٥ سنة ، وقد قال فى اعترافاته :

ـــ تعرفت على شخص اسمه طلال الأنصارى (سنعرف الكثير عنه فيما بعد) بأحد المساجد بمحطة الرمل « الأسكندرية » وبعد أن قويت الصلة بيننا ذكر لى أن هناك جماعة اشترك فيها ، تهدف إلى الاستيلاء على السلطة فى مصر ، وإقامة الدولة الإسلامية ، وأرسلنى لمقابلة أمير هذه الجماعة وكان صالح سرية .

بعد أن وافق على انضمامى للجماعة ، بايعته بقولى : « أبايعك على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والله على ما أقول وكيل وإنك على ما أقول شهيد » .

طلب د . سرية أن أعمل أنا وزملائى على ضم أفراد جدد ، فتمكنا من ضم حوالى ٦٠ شخصا فى الأسكندرية وحدها ، قسموا إلى ٦ جماعات ، يرأس كل منها أمير ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم التى تتخذ طابع السرية ، فى الحدائق والأماكن العامة ، فى مجموعات صغيرة .

علمت أن للجماعة فروعا أخرى فى الجيزة ، يقوم على إماراتها حسن محمد أحمد الهلاوى (سنعرف الكثير عنه فيما بعد أيضا) وأخرى بالكلية الفنية العسكرية يقوم على إمارتها كارم الأناضولى الطالب بها .

كانت تعقد عدة اجتماعات بين أعضاء الجماعة فى القاهرة والأسكندرية ، كما كانت تعقد اجتماعات خاصة بين قياداتها فى الأماكن العامة ، وفى المساجد ، وفى حجرة استأجرها أعضاء الجماعة من طلبة الفنية العسكرية بشارع جانبى فى الجيزة ، وهى شقة خاصة بأحد الأعضاء ، ومقيم بها بمفرده .

وطلب من أعضاء التنظيم الالتحاق بالنوادى الرياضية والمحافظة على أجسامهم ، كما أجريت بعض التجارب على ثبات الأعضاء والتزامهم بالسمع والطاعة لأميرهم ، فكان يطلب من بعضهم التواجد فى مكان محدد فى ساعة محددة متأخرة من الليل ، وكان يطلب من البعض الآخر حمل حقائب ثقيلة زاعما أنها تحوى متفجرات وطالبا منه المرور بها أمام مبانٍ تشغلها أجهزة الأمن .

□□

إن أسلوب د . سرية فى التجنيد ، وفى اختيار الأعضاء ، وتشكيل التنظيم فى صورة

(٩) بيان النيابة ـ المصدر السابق

خلايا صغيرة ، متفرقة ، لا تعرف بعضها البعض ، جعله ـ هو والتنظيم ـ بعيداً عن أعين أجهزة الأمن وجعل ضربته مفاجئة ومذهلة تماما للجميع .

وإمعانا فى السرية لم يعرف بتفاصيل خطة الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية سوى ٢٠ عضواً فقط ، هم الذين كلفوا بتنفيذها .. بل إنه حتى أغلب هؤلاء لم يعرفوا بالخطة إلا قبل ساعة الصفر بوقت قصير .. فقد « دعاهم ومعظمهم من طلاب الأسكندرية للحضور إلى القاهرة ، ليستمعوا إلى محاضرة دينية فى العاصمة » .. « وتجمع أفراد الجماعة فى حلقات متناثرة فى ميدان العباسية (القريب من مبنى الكلية الفنية) فى الساعة الحادية عشرة مساء يوم الحادث ، وهناك أفصح د . سرية عن العملية لعدد محدود من الأفراد الذين تولوا بدورهم إبلاغ باقى المجموعات التى تم اختيارها لتنفيذ المهمة » .

وكان أن صدم بعض أعضاء التنظيم بما سمعوه ، وبعد أن سُلمت الخناجر والأسلحة البيضاء ، ذهب أحدهم (الذى باع مصاغ زوجته) لإبلاغ الشرطة .. وبدأ سباق مع الزمن بين أجهزة الأمن وجماعة التنفيذ .

□□

قبل ساعة الصفر بحوالى أسبوعين كان السادات فى الأسكندرية يتحدث إلى ممثلى الاتحادات الطلابية فى مؤتمر عام لهم .. وقال السادات للطلبة .. « أنا عايزكم تدرسوا تاريخ الحركة الطلابية » .. « وخاصة فى السنوات الثلاث الأخيرة » .. وأعلن أنه سيضع بين أيديهم كل البيانات التى سيطلبونها حتى « تطلعوا بخلاصات ونتائج وبنقط واضحة تماما فى ميثاق العمل الطلابى » .. « مثلا هل يصح إن الجامعة تستغل لصراع أيدلوجى بين الشرق والغرب .. بين ماركسى ويمينى » « هل نعود مثلا إلى شغل الأحزاب بتاع زمان » .

كان بين شخصيات المنصة الرئيس السودانى جعفر نميرى ، ووزير الدولة للشباب د كمال أبو المجد ، ورئيس اتحاد طلاب الجمهورية يحيى إبراهيم ، وكان بين جمهور الصالة بعض أعضاء التنظيم ، كلفوا بالحضور لدراسة نظام الحراسة المتبع فى الاجتماعات التى يحضرها الرئيس .. وقد تلقى د . سرية ـ بعد الاجتماع ـ تقريراً بكل التفاصيل .

تلقى د . سرية التقرير يوم ٦ أبريل ، وفى ذلك اليوم ، أجرى تجربة عملية لاختبار مدى قدرة أعضاء التنظيم المكلفين باقتحام الكلية الفنية على الحضور من الأسكندرية إلى القاهرة .

أيام ١٢ و ١٥ و ١٦ أبريل ، عقدت عدة اجتماعات تنظيمية على مستوى القيادة ، لوضع خطة الاقتحام ، وطبقا للرواية الرسمية ، تقضى هذه الخطة ، بأن يتجمع أعضاء التنظيم من القاهرة والأسكندرية بميدان العباسية مساء الأربعاء ١٧ أبريل ، تم اختيار ١٨ عضواً منهم للتنفيذ ، بمساعدة طلبة الفنية العسكرية من أعضاء التنظيم ، وعلى

رأسهم الطالب كارم الأناضولى ، أقدم طلبة الكلية ، والذى عليه إطلاق إشارة ضوئية لزملائه فى الخارج إيذانا ببدء الهجوم .

وحسب الخطة ، يرتدى أعضاء التنظيم الملابس العسكرية ، ويستعملون السلاح الأبيض فى القضاء على مقاومة الحراس ، وعقب اقتحام الكلية ، يقومون بفصل التيار الكهربائى عنها للسيطرة عليها ، بعد تخدير الحراس الموجودين بالداخل وعلى الأبواب ، أو احتجازهم ، ثم يتم القبض على الضباط ومدير الكلية عند حضورهم إليها فى الصباح ، ووضعهم تحت الحراسة كرهائن ، وعند الاستيلاء على أسلحة الكلية ، يتحرك بها أفراد التنظيم ، بسيارات الكلية إلى قاعة اللجنة المركزية حيث اجتماع رئيس الجمهورية بأعضاء اللجنة المركزية ومجلس الشعب ، وعن طريق إيهام حراس القاعة بوجود متفجرات داخلها تحدث حالة ذعر ، يتمكن خلالها أفراد التنظيم من دخول القاعة ، واعتقال رئيس الجمهورية وكبار المسئولين المتواجدين بها ، ثم يلقى رئيس التنظيم ـ عن طريق موجات الإذاعة ـ البيان الأول الذى يعلن فيه الاستيلاء على مقاليد الحكم فى البلاد .

بعد إقرار الخطة ، شرح كارم الأناضولى رسما تخطيطيا لمبنى الكلية الفنية العسكرية ، وحدد الأدوار الرئيسية لعملية الاقتحام .

وقبل ساعة الصفر (الواحدة من صباح ١٨ أبريل) توجه طلال الأنصارى إلى كارم الأناضولى ، وسلمه مبلغ مائة جنيه للإنفاق على سفر الأعضاء . ومن هذا المبلغ اشتروا خمسة أقفال وعلبتى أقراص « ترانكيلان » المنومة ، لكى تذاب فى مشروب يقدم ـ بواسطة الأعضاء من طلبة الكلية ـ لحراس الأبواب الأمامية ، أما حراس الباب الخلفى فسيقضى عليهم بالمدى التى اشتروا منها ٢٥ قطعة من ميدان العباسية ليلة التنفيذ .. وكان قد سبق لهم تجهيز الملابس العسكرية والحبال اللازمة لتقييد الحراس .

عند منتصف الليل ، صدر الأمر للأعضاء بأن يتفرقوا فى مجموعات صغيرة ، وذلك بأن يتوجه جزء منهم إلى محطة متروكوبرى القبة ، وأن يتوجه جزء آخر إلى محطة سكة حديد قريبة ، انتظارا لصدور الأوامر بالتوجه إلى مبنى الكلية واقتحامها .. وعهد إلى طالب طب الأسكندرية كامل عبد القادر بتلقى الإشارة الضوئية من داخل الكلية والرد عليها ، وعهد إلى طلال الأنصارى بإصدار الأمر لمجموعة الاقتحام ..

بعد تبادل الإشارات الضوئية ، من داخل وخارج الكلية ، تحركت مجموعة الاقتحام ، ونجحت فى القضاء على حارسى البوابة الخلفية للكلية ، بواسطة الأسلحة البيضاء التى كانوا يحملونها ، واستولوا على بندقيتى الحارسين ، وتمكنوا من دخول مبنى الكلية وإفساح الطريق لمجموعة أخرى للمشاركة فى التنفيذ ، واتجه فريق منهم إلى مخزن سلاح الجنود ، وحاولوا اقتحامه ، إلا أنهم لم يتمكنوا واعترضهم بعض حراس الكلية ، وهم فى طريقهم إلى المخزن ، وحدث اشتباك بالأسلحة النارية والبيضاء ، انتهى إلى مصرع ١١

شخصا و إصابة ٢٧ آخرين ، وفى نفس الوقت كان فريق آخر قد نجح فى الوصول إلى كابينة الإنارة ، واقتحموها بعد اعتدائهم على العاملين فيها ، وتوصلوا إلى فصل التيار الكهربائى لفترة من الوقت .

لم تستمر العملية طويلاً .. إذ تدخلت قوة النظام فى إعادة الكلية الفنية ، وقبض على معظم الذين اشتركوا فى التنفيذ .. وحسب تحليل رجال التحقيق ، فإن من الأسباب الرئيسية لفشل الخطة ، أن عملية الاستيلاء على الكلية لم تتم ـ كما هو مقرر ـ فى صمت تام ، ودون أن تطلق خلال تنفيذها طلقة واحدة .. وهذا هو سبب استخدام الأسلحة البيضاء ، كما أن هذا هو سبب تكليف كارم الأناضولى بدعوة بعض طلبة الكلية ورجال الحراسة الليلية لتناول « الجاتوه » و « البونبون » والمشروبات المخلوطة بمادة منومة !!

إن الصمت ، وتنفيذ كل شىء فى سكون تام كان سيتيح السيطرة على الكلية حتى صباح اليوم التالى ، حيث سيكون التحرك إلى مبنى اللجنة المركزية .

وقد اعترف طلبة الكلية من أعضاء التنظيم بأنهم قدموا مشروب الليمون المخلوط بالمنوم لبعض الحراس قبل ساعة الصفر ، إلا أن المادة المنومة لم تكن قوية .. فلم ينم الحراس .. وتبادلوا النيران مع المقتحمين .. ولعلع الرصاص فى سكون الليل معلنا فشل العملية .

قبل ساعة الصفر كان صالح سرية فى ميدان العباسية ، يتناول ـ فى توتر وقلق ـ بعض « السندوتشات » ثم تحرك إلى مكان قريب للكلية الفنية .. وعندما سمع أصوات الطلقات النارية عرف النتيجة .. لكنه لم يتحرك من مكانه إلا بعد أن حضر بعض الأعضاء وأبلغوه أن السيطرة لم تتم فأصدر أوامره بانصراف المجموعات التى كانت لا تزال فى الخارج ، وانصرف هو أيضا إلى بيته

فى الصباح ، وفى الموعد المعتاد غادر د . سرية بيته متوجها إلى عمله ، وفى مكتبه المطل على ميدان التحرير كان رجال مباحث أمن الدولة فى انتظاره .. وأغلب الظن أنه فوجىء بهم ، وتحولت المفاجأة إلى دهشة ، فقد كان يعتقد ـ كما قال فيما بعد فى التحقيقات ـ أن أحداً لن يعرفه ، وخاصة أنه كان قد اختار لنفسه اسما حركيا هو « الأمير عبد الله »

وأعلنت بعض المصادر (غير المحددة) للصحف : أنه كان يستعد للهرب إلى خارج البلاد ، واستندت فى ذلك إلى دليل غير قوى هو أنه ترك لزوجته توكيلاً لقبض مرتبه

أما قائد عملية اقتحام الكلية الفنية العسكرية ، فقد نجح ـ فى وقت مناسب ـ فى الهرب ، إلا أنه ضبط فى محطة قطارات « سيدى جابر » بالأسكندرية ، وقيل أيضا إنه كان سيهرب إلى الخارج ، ولم يقدم ـ هذه المرة ـ أى دليل قوى أو ضعيف على صحة هذا الإدعاء .

ثم .. بدأت معظم خلايا التنظيم فى التساقط واحدة بعد الأخرى

ثم .. راحت معظم الأسرار تتكشف واحداً بعد الآخر

من هذه الأسرار ، أن بعض أعضاء التنظيم ذهبوا بأنفسهم إلى أجهزة الأمن وفضحوا كل ما يعرفونه وما لا تعرفه أجهزة الأمن عن التنظيم .

ومنها ..وجود تخطيط مسبق لمهاجمة بعض المنشآت الحيوية بمدينة الأسكندرية ، فى حالة الفشل ، وضبطت لدى بعض المتهمين « كروكيات » مفصلة عنها ، مثل شرطة نجدة الأسكندرية ، كما نشرت الصحف .(١٠)

ومنها .. أن صالح سرية اعترف أنه فى حالة نجاحه فى اقتحام مبنى اللجنة المركزية كان سيتقدم إلى رئيس الجمهورية بطلب التنازل عن الرئاسة ، وأنه كان سيفرض على الرئيس إعلان تنازله بنفسه فى بيان يذاع على الشعب ، وإذا مارفض كان سيكلف أحد المسئولين ـ تحت ضغط السلاح ـ أن يعلن نبأ وقوع ثورة مسلحة ، وأنها تمكنت من الاستيلاء على مقاليد الحكم ، واعتقال المسئولين ورئيس الجمهورية وقواد الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة .

وقد اعترف طالب الطب وعضو التنظيم كامل عبد القادر :

ـــ إن البيان كان سيذاع بواسطة أجهزة الإذاعة والتليفزيون الموجودة فى قاعة اللجنة المركزية ، لنقل كلمة رئيس الجمهورية .

وأضاف :

ـــ وكان من المقرر أن يعقب هذا البيان ، بيان آخر يلقيه صالح سرية ، يعلن فيه حظر التجول ، وتنصيب نفسه أميراً للبلاد .

وكان البيان الأول موقعاً بخط يده .

وكان نصه كالتالى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

« أيها الشعب الحبيب ، أيتها الأمة المجاهدة الصابرة ، لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم واعتقال جميع المسئولين عن النظام السابق وبدء عهد جديد ، ونحن لا نكيل الوعود لكم ، لكننا نعلن أن النظام الجديد سيقوم على المبادىء التالية :

« ١ ـ ستقوم مبادىء الدولة على أسس جديدة لا لبس فيها ولا تناقض .

« ٢ ـ سوف لا تكون الثورة مقصورة على الجوانب السياسية والعسكرية فقط وإنما تشمل جميع نواحى الحياة الاقتصادية والثقافية والتعليمية والوظيفية والاجتماعية وغيرها .

« ٣ ـ سوف تهتم الدولة اهتماما خاصا بالإيمان والأخلاق والفضيلة .

---

(١٠) الأهرام ـ ١٩٧٤/٤/٢٦

« ٤ ـ سوف تهتم الدولة فى كل سياستها بمصلحة الأمة أولاً ثم المواثيق والاتفاقات .

« ٥ ـ ستعمل الدولة على تحرير كل الأجزاء السليبة من وطننا وعلى مساعدة المحرومين والمظلومين فى كل مكان وستقاوم الاستعمار بجميع أشكاله فى العالم .

« ٦ ـ ستعمل الدولة جاهدة على قيام الوحدة بكل الطرق دون الالتفات للادعاءات اللفظية وستقوم بكل جهدها لدفع التنمية من أجل رفع مستوى السكان .

« ٧ ـ سوف نطلق الحرية للمجتمع ليقول كل ما يريد ، ونقد كل أجهزة الدولة عدا الكذب والافتراء والبهتان .

« ٨ ـ سنعيد تقييم كل المبادىء والأشخاص والوظائف .

« ٩ ـ سوف تحمى الدولة مبادىء العدل المشهورة فى تراثنا .

« والله الموفق »

توقيع رئيس الجمهورية الإسلامية

□□

هدأت أنفاس أجهزة الأمن بعد الصدمة الكبرى التى تعرضت لها .

وما إن عادت أنفاسها إلى الانتظام حتى صرح أحد مصادرها : « أن الخطة التى وضعها قائد التنظيم وعلى الرغم من الضعف الشديد الذى تميزت به ، كانت تقوم على كثير من التصورات الساذجة » .

وربما .. كانت هذه الأوصاف مناسبة .. لكن .. فيما بعد .. نجحت خطة حملت نفس الأوصاف ـ السذاجة والضعف الشديد ـ فى اغتيال الرئيس أنور السادات ، وكان ذلك وسط كل أنواع الأمن التى عرفتها البلاد فى عهده .

لكن ..

هذا لا يمنع أن د . صالح سرية الخبير بمناهج التعليم ، لم يكن موهوبا فى فن الانقلابات العسكرية .. وفى الحقيقة كانت علاقته بهذا الفن العنيف مثل علاقة موظف بسيط فى جمعية تعاونية بحرب الكواكب .. إذ أن خطته سحقت عند أول خطأ .. ولم ينجح هذه المرة فى الهرب .. وقدم هو وأعضاء حزبه المغمور إلى محاكمة لم تحظ باهتمام من أجهزة الإعلام . انتهت بإعدامه هو وقائد عملية الفنية العسكرية .

كان ذلك فى ٣١ مايو ١٩٧٥ .. وفى ١١ أكتوبر من نفس العام نفذ حكم الإعدام فيهما .. وحكم على ٢٩ شابا من أعضاء التنظيم بالسجن .. وكانت البراءة من نصيب ٦٠ آخرين .

وبهذه الأحكام ..لم يلبث ملف « حادث الفنية العسكرية » أن أغلق ..ولم يتوقف أحد ليدرس أبعاد ولا أعماق ما حدث .. ولم يقل أحد : لماذا حدث ما حدث ؟ ولو حدث ذلك التوقف ، لكان من الممكن أن تنحرف عجلة التاريخ عن مسار اندفعت فيه ، وداست فى اندفاعها على السادات نفسه . ودون رحمة !

| ٢ |

الهبوط .. بالباراشوت !

□ رجال الدين وعلماء الاجتماع يتبادلون الاتهامات □ ماذا يقول صالح سرية فى « رسالة الإيمان » ؟ □ سيد قطب يركز على الأسس العامة وصالح سرية يغرق فى التفاصيل □ الجاهلية حالة رسمية لا شعبية □ الكافر والمؤمن فى كتابات أمير الأمراء □ الانقضاض قبل التمكن □ السيطرة على السلطة بمدى « قرن الغزال » □ الطاعة لابد أن تكون عمياء □ هل تنمو شجرة التكفير فى كل الظروف وتنمو فى كل المواسم ؟ □

كالعادة .

استنكر علماء الدين ما حدث !

ووصف علماء الاجتماع صالح سرية ورفاقه بأوصاف ينفرد بها ـ عادة ـ نزلاء المصحات العصبية والنفسية .. حيث يعجز الفرد عن التفاهم مع نفسه .. أو مع الآخرين حوله .

ثم .. تحول ذلك كله إلى « برقيات » تأييد وشجب ، راحت تتدفق ـ كالسيل ـ على رئيس الجمهورية .

وكان .. أن تصور الجميع أنهم فعلوا ما عليهم .. فاستسلموا إلى سبات عميق .

فى افتتاح ندوة عن تنظيم « الأسرة » قال وزير شئون الأزهر ، الشيخ عبد العزيز عيسى : إن استدراج الشباب لمؤامرة الفنية العسكرية سببه أن الآباء لا يلحظون سلوك أولادهم ، ولا يوجهونهم التوجيه السليم ، لذلك وقعوا فى « شرك أمثال هؤلاء الذين لا دين لهم » .[1]

أى أن الأسرة هى السبب ..

فى نفس اليوم ، قال أحد علماء الاجتماع لإحدى صحف الصباح : اللوم يقع على رجال الدين الذين قصروا فى إفهام الشباب دينهم الصحيح .[2]

أى أن رجال الدين هم السبب .

راحت كل فئة تلصق التهمة فى فئة أخرى .. لتنفيها عن نفسها .. فالمهم المتهم لا الدافع .. العقاب لا التحليل والاستنتاج واستخلاص الدروس والنتائج .

إن أحداً لم يتوقف أمام ما حدث .

ولا أحد كلف نفسه حتى بالتأمل العابر .

كان كل المطلوب غسل الأيدى من الشبهات والبصمات .. ودمتم .

---

(١) جريدة (الأهرام) ـ ١٩٧٤/٤/٢٧ .

(٢) المصدر السابق .

٢٠ ألف مسجد فى مصر ، فى وقت واحد ، فى أول صلاة « جمعة » بعد الحادث ، أجمع الخطباء والأئمة فيها على أن المؤامرة فاشلة . والتنظيم مشبوه . وأميره ضد الأمن والإسلام .. ثم .. دعوا بطول البقاء للسادات .

شيوخ المقارىء العربية .. أعضاء الاتحاد العام لقراء العالم الإسلامى .. أعضاء المجلس الصوفى الأعلى ، أبرقوا للسادات : « نحن نقف خلفك صفا واحداً » .

وهكذا ...

نامت « الفتنة » مؤقتا .

وتحت الرماد كانت جذور النيران لا تزال مشتعلة .

ولم ينزل أحد إلى أعماق المياه ليعرف حجم ما خفى من جبل الجليد ، الذى أطاحوا ـ فقط ـ بقمته الطافية على السطح .

□□

لم يقل أحد لنا كيف يفكر « الأمير » صالح سرية ؟!

ولا من أين جاءت أفكاره ؟!

ولا إلى أى مدى تتجانس هذه الأفكار مع أفكار الرواد الذين سبقوه مثل سيد قطب ؟

لم يقل لنا أحد ما رأي صالح سرية فى نظام الحكم ؟ لماذا يريد أن يغيره بالقوة لا بالدعوة ؟.. ما شكل نظام الحكم الإسلامى الذى يريده ؟ ولماذا ؟ وكيف كان سيحققه لو تولى السلطة ؟!

كان هذا غير مهم .

المهم أنه مجرم .. متآمر ، عميل ، مشبوه ، سفاح ، يستحق الشنق .

ومع أنه ترك الإجابات مكتوبة فى وثيقة أسماها « رسالة الإيمان » فإنها منعت من النشر .. ولا تزال[٣] لأن الفكر عندنا لا يواجه إلا بالعنف .. ولأننا لا نعترف برجال يفكرون ـ فى بلادنا ـ إلا إذا كانوا تابعين لمباحث أمن الدولة .

□□

مثل سيد قطب كان صالح سرية متخصصا فى مناهج التربية والتعليم .

ومثل سيد قطب ، جرب صالح سرية الارتباط بتيارات سياسية ، وفكرية قبل أن يقتنع بالحل الإسلامى .

ومثل سيد قطب كان صالح سرية يرى « أن نظام الحكم القائم فى جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر » و« المجتمعات فى هذه البلاد كلها مجتمعات جاهلية »[٤] والتعميم هنا مشترك

---

(٣) فى عدد ديسمبر ١٩٨٦ من مجلة « اليقظة العربية » نشر الباحث رفعت سيد احمد مقتطفات هامة من « رسالة الإيمان » تحت عنوان : « الرؤى الفكرية لقادة التنظيمات الإسلامية فى السبعينيات » سنعتمد عليها كثيراً عند مناقشة افكار صالح سرية .

(٤) المرجع السابق ـ ص ٩٠

أيضاً بين الرجلين .. فالحديث ليس عن بلد إسلامى واحد ، وإنما عن « جميع بلاد الإسلام » .. والحديث ليس عن مجتمع واحد فى هذه البلاد وإنما عن كل « المجتمعات » .

والتعميم ـ ولاشك ـ يعطى للفكرة ثقلها المطلوب .. ويحولها إلى دعوة ورسالة .. ويعطى لصاحبها فرصة أكبر للذيوع والانتشار ، ويضاعف له عدد المريدين والمتحمسين والأتباع .. وينقذه من شبهة معاداة نظام قائم بعينه ، ولا يجعل من الانقضاض المسلح على هذا النظام ، مجرد انقلاب عادى لتغيير الأوضاع . والسيطرة على السلطة ، وإنما يجعل منه بداية للانطلاق لنشر الدعوة .. وفرض العقيدة .

لكن .. التعميم ـ فى حد ذاته خطأ ـ لأنه ببساطة تعميم !

فى كتاب « معالم فى الطريق » يرى سيد قطب أن الجاهلية التى نحن فيها اليوم كالجاهلية التى عاصرها الإسلام أو « أظلم » .. تصورات الناس.عقائدهم.تقاليدهم . موارد ثقافتهم . فنونهم . آدابهم . شرائعهم . وقوانينهم .

أما صالح سرية فيرى الجاهلية فى صور أكثر مباشرة ، تقترب مما يراه أبسط الناس ، الذين تصدمهم ـ أحيانا ـ مظاهر الحياة فى المجتمع ، وتثير مشاعرهم الدينية والأخلاقية .. الرقص . البلاجات . سب الدين . الخمر . الزنا . القمار . الكذب . الفسق .. الخداع .. والرذيلة .. وهذه المظاهر فى رأى سرية تطمئنه إلى « أن هذه المجتمعات جاهلية » .

أى أن تصورات سيد قطب تبدو أشمل وأعم من تصورات صالح سرية .. تصورات سيد قطب تتجه إلى الأسس العامة وتصورات صالح سرية تميل إلى التفاصيل اليومية .. رؤية سيد قطب رؤية متكاملة فيها الثقافة والقانون ، والآداب ، والفنون ، والتقاليد ، والأعراف ، ورؤية صالح سرية تكتفى ـ فقط ـ بمظاهر الأخلاق .

ولا تتكامل رؤية صالح سرية ، عندما نجده ـ فى مواضع مختلفة من رسالة الإيمان ـ يفرط فى رمى عدد كبير من الناس بالكفر .. كل من اعترض على حكم من أحكام الله كافر .. كذلك من كتب ضد الحدود الشرعية .. أووصف قطع يد السارق أورجم الزانى بالتخلف .. أو من طالب بإلغاء عقوبة الإعدام ، أو اعترض على تحريم الخمر .. أو من اتهم الدين بالتخلف والرجعية أو اتهم المتدينين بنفس الأوصاف .. ومن يعترضون على ملابس السيدات المسلمات المحتشمة ، ويحاربونها ،ويحبذون الملابس غير المحتشمة للنساء .. وكذلك من يعترضون على تربية اللحية وينادون بحلقها .. ومن يعتز بأى مظهر من مظاهر الجاهلية (مثل إحياء الفرعونية المصرية والقومية العربية) ومن سمى أولاده بأسماء جاهلية .[٥]

ثم .. يصف صالح سرية بعض الطقوس الرسمية بأنها طقوس تعيد إلى الأذهان عبادة

---

(٥) المصدر السابق ـ ص ٩٧ ، ٩٨

الأصنام .. من هذه الطقوس تحية العلم ، والسلام الجمهورى ، وتحية قبر الجندى المجهول .(٦)

فتحية العلم ، تحية لقطعة قماش ، مركبة على صنم تجرى له العبادة .

وتحية السلاح مع السلام الوطنى ، تحية لصنم من طراز آخر .

كذلك زيارة قبر الجندى المجهول الذى لا يزيد على كونه قطعاً من الحجارة .

فى « معالم فى الطريق » يقول سيد قطب : إن الجاهلية التى نعيشها تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله على الأرض .. على حاكميته .. ويطالب بحاكمية الله بدلاً من حاكمية البشر .. ويؤكد أنه لو سادت حاكمية الله لوضعت الأنظمة والشرائع والقوانين طبقا لمنهج الله .

أما صالح سرية فيرى أن الجاهلية تقوم على الكفر ، والكفر يقوم على فصل العقيدة عن العبادة .. فمن اكتفى بالعقيدة فقط فهو كافر .. ومن اكتفى بالعبادة فقط فهو كافر .. وكلاهما فى جاهلية .. والشائع أن يكتفى الناس فى هذا الزمان بالعبادة .. « فنجد الواحد منهم فى غاية التدين ، يحرص على قراءة القرآن ، وقد يبكى فى الصلاة خشوعا ، ويقرأ من الأوردة مالا يحصى لكنه لا يؤمن بقضايا التشريع » .(٧)

ويضيف : « وكثير من الحكام استغل هذه النقطة فنجدهم يحرصون على الصلاة وعلى بناء المساجد وعلى كثير من الشكليات الإسلامية قاصدين من وراء ذلك كسب شعبية لأنهم يعرفون تدين الشعب أو المؤمنين بذلك حقا . لكنهم فى نفس الوقت يبعدون الإسلام عن قضايا التشريع والحكم بل ويحاربون من دعوا إلى استئناف الحكم الإسلامى ويسجنونهم ويضربونهم ، فهؤلاء لاشك كفار ومن ساندهم فهو كافر » .(٨)

والسبب فى رأيه أنهم « كفروا بقطاع كامل من الإسلام » .(٩)

وأنهم عندما جعلوا الإسلام مصدرا من مصادر التشريع (لا المصدر الوحيد) جعلوه متساويا فى ذلك مع التشريعات الوضعية كما أنهم ساووا بين الرذيلة والفضيلة .. بناء المساجد وبناء الملاهى .. إذاعة القرآن وإذاعة الأغانى .. الزكاة والربا ... الخ .(١٠)

وبينما يرى سيد قطب أن الجاهلية حالة تمتد من النظم إلى المجتمعات .. من الحكومات إلى الأفراد .. من غير المسلمين إلى المسلمين ، يكتفى صالح سرية بإلصاقها بمن « آمن أن هذه الحكومات على حق وأن الإسلام باطل » .: أى إن الجاهلية حالة « رسمية » لا شعبية .. موقف حكومى لا جماهيرى .. باستثناء الأفراد الذين يؤيدون الحكومة ، أو

---

(٦) المصدر السابق ـ ص ١٠٢ .
(٧) و (٨) المصدر السابق ـ ص ٨٩ .
(٩) المصدر السابق ـ ص ٩٠ .
(١٠) المرجع السابق ـ ص ٨٩ .

يعارضون الإسلام ، أو يكتفون بالعبادة ، أو لا يبالون بدين الله ، أو يرون الإصلاح فى طريق آخر غير طريق الدين الحنيف .

باختصار ...

من رضى وتبع فهو كافر !

ومن كره وعمل على التغيير فهو مؤمن .

فهو بعد أن يحدد الكافر ، يضيف : « ويكون مؤمنا من هؤلاء من آمن بأن الإسلام هو الحق وأن هذه الحكومات كافرة ، ويعمل على تغييرها لتكون إسلامية سراً وعلناً » ..(١١)

إن الأصل فى جاهلية سيد قطب (كذلك أبو الأعلى المودودى) أنها حالة عامة ، لا يخرج منها إلا فئة قليلة تؤمن إيماناً مطلقا (ولا تدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور وفى العبادات والشعائر وفى النظام والشرائع) .. وتقصر نبع ثقافتها على كتاب الله ، وتستعلى على المجتمع بكل قيمه وتصوراته (أى ترفضه ولا تتعامل معه ولا تجادله) ، ولا تنشغل فى مرحلة الإعداد (مرحلة نشر العقيدة) بصورة نظام الحكم فالمهم فرض العقيدة ، وإزالة النظم القائمة .. ثم يأتى نظام الحكم بعد هذا .. وذلك مثل النبى ﷺ الذى قضى ١٣ سنة يدعو إلى العقيدة سراً ، ثم بعد أن هزم النظام القرشى القائم ، فرض النظام الإسلامى المناسب .. ويدلل سيد قطب على ذلك بأن آيات القرآن الكريم الخاصة بالعقيدة نزلت على رسول الله ﷺ أولا ثم تلتها الآيات التى تنظم المعاملات بعد ذلك .

لكن .. صالح سرية كانت له قاعدة مختلفة .

قاعدة تقوم على الرفض والقبول .. على دعم الواقع أو السعى إلى تغييره .. فالذى يقبل الواقع ويدعمه كافر .. والذى يرفضه ويسعى إلى تغييره مؤمن ، ويستوى فى ذلك الإيمان سراً أو جهراً .. ويستوى فى ذلك أن يتعامل مع المجتمع أو يستعلى عليه .. أن يكون جزءاً من النظام أو بعيداً عن أجهزته ، وسلطاته .

وعلى ذلك فغير الكافر واحد من ثلاثة :(١٢)

١ ـ « إذا كان واضحا فى عقيدته مصرحا بأنه يعمل لإقامة الدولة الإسلامية ، وفى الدولة التى تسير على النظام الديمقراطى إذا تكونت جماعة إسلامية أو حزب إسلامى جاز له المساهمة صراحة بالانتخابات ودخول البرلمان والمشاركة فى الوزارات إذا كان صريحا بأنه يسعى عن هذا الطريق للوصول إلى السلطة وتحويل الدولة إلى دولة إسلامية .

٢ ـ « إذا كان العلن غير ممكن يجوز للشخص أن يدخل فى مختلف اختصاصات الدولة بأمر من الجماعة الإسلامية ويستغل منصبه لمساعدة هذه الجماعة للحصول على السلطة

---

(١١) المرجع السابق ـ ص ٩١

(١٢) المرجع السابق ـ ص ٩١

أو التخفيف عنها فى حالة المحنة أو إفادتها بأى طريق ولا مانع أن يصبح وزيراً حتى مع حكم طاغية إذا كان بهذه النية .

٣ ـ « إذا لم يكن فى جماعة إسلامية لعدم اقتناعه بأية جماعة من الجماعات التى اتصلت به لكنه مؤمن بكل المبادىء التى ذكرناها وقد وطد العزم على أن ينضم إلى الجماعة الإسلامية الحقة حين يجدها ويستغل منصبه فى إفادة الإسلام والمسلمين » .

وهكذا ..

يتراجع صالح سرية بعض الشىء

فبعد أن كانت المجتمعات كلها كافرة ، وفى جاهلية ، فتح الباب لإخراج عدد من الأفراد إلى ساحة الإيمان وإن كان ذلك بشروط .

ثم .. يتناقض مع نفسه بعض الشىء .

فهو يتحدث عن النظام الديمقراطى والأحزاب ، والانتخابات والبرلمان ، ويتحدث عن إمكانية تحويل الدولة الكافرة إلى دولة إسلامية عن طريقها .. يتحدث عن ذلك وهو يحدد الكافر من المؤمن .. لكنه .. فى موضع آخر ، يقول صراحة : « كل من اشترك فى حزب عقائدى فهو كافر لاشك فى كفره »[١٣] . وإن كان يقصد بالحزب العقائدى ، الأحزاب الشيوعية ، والأحزاب التى تدعو إلى القومية مثل حزب البعث ، أو حركة القوميين العرب .. إذن كيف تكون هناك ديمقراطية وليس على الساحة سوى حزب إسلامى وحيد ؟!!

أغلب الظن أنه يعتبر الديمقراطية ـ فى هذه الحالة ـ مجرد مرحلة مؤقتة يمكن بعدها الوصول إلى الدولة الإسلامية .. مجرد جسر مؤقت للعبور ، يُنسف ويُحرق بعد ذلك .

ليس المهم نشره العقيدة أولاً ، ولا تشكيل جماعة مؤمنة أولاً ، وإنما المهم الاستيلاء على السلطة ، ثم فرض النظام الإسلامى وإقامة الدولة الإسلامية بعد ذلك .

ولأنه مؤمن بذلك ، سعى إلى تنفيذ عملية الفنية العسكرية .. ولأنه كان متعجلا إلى حد يثير الدهشة (لا نقول الريبة) فإنه بدأ التنفيذ بمجموعة من الطلبة .. ولأنه لم يختبر مدى صدق الذين معه ، فإن بعضهم سارع بالإبلاغ عنه .

إن سيد قطب حدد لجماعته الإيمان ثم التمكن فالانقضاض .

أما صالح سرية فاكتفى بالاتهام ثم التعجل .

فكان أن جرى له ماجرى .

وبينما قبل سيد قطب تدريب الجماعة على الأعمال الفدائية لرد الاعتداء حتى قبل مرحلة الجهاد ، اكتفى صالح سرية باختبارات الطاعة التى فرضها على أعضاء تنظيمه .

---

(١٣) المرجع السابق ـ ص ٩٣ وقد أضاف سرية إلى هذه الأحزاب الكافرة الجمعيات العقائدية مثل جمعيات الليونز والروتارى ، كذلك العقائد والفلسفات مثل الوجودية والبرجماتية والمادية .

وكان شرطه فى الطاعة أن تكون عمياء !

ومن المؤكد ـ طبقا للروايات الرسمية ـ أن جماعة صالح سرية لم تتدرب على السلاح ، بل ولم تحمله ، وقبل ساعة الصفر بقليل أمسكوا فقط بالمدى المشهورة باسم « قرن الغزال » وكل ما اعتمدت عليه خطته كان الخداع !!

□□

هناك أفكار أخرى متناثرة ذكرها صالح سرية فى « رسالة الإيمان » ، يمكن رصدها من اقتباسات الباحث رفعت سيد أحمد ، التى نشرها فى المرجع السابق الإشارة إليه أكثر من مرة .

١ ـ إن المسلمين يقولون مالا يعملون .. إنهم حولوا الإسلام خلال قرون إلى كلام دون عمل « وما من نكسة أو لوثة عقلية أصابت المسلمين أكثر من ذلك » .

فليس المهم مثلا تحرير فلسطين إنما المهم أن تصرح وتقول .

وهكذا أصبح التفكير العربى المعاصر كله منصبا على الكلام دون العمل .

٢ ـ الدولة الإسلامية هى التى يكون هدفها حمل رسالة الإسلام وتطبيقها كاملة داخلها وخارجها والجهاد فى سبيلها والتضحية من أجل ذلك بكل ما تملك ، ويكون ذلك فى جميع مرافق الدولة : الإعلام ، التعليم ، السياسة الداخلية ، السياسة الخارجية ، التشريعات الاقتصادية .. الخ .

٣ ـ هذا لا يمنع فى القضايا الفنية العرفية أن نستعين حتى بغير المسلمين أما القضايا التوجيهية فلا يمكن ذلك .

□□

هذه هى أهم أفكار الدكتور صالح سرية .

هذه هى أهم أفكار أول تنظيم إسلامى راديكالى بعد سيد قطب .. فى السبعينيات .. فى عهد آخر غير عهد جمال عبد الناصر ، وفى ظروف أخرى مختلفة غير ظروف المحن السابقة التى عاشها الإخوان المسلمون .

فهل شجرة التكفير أصبحت شجرة تنمو فى كل الظروف وتثمر فى كل المواسم ؟!

يبدو ..

أن ذلك صحيح !

| ٣ |

طلاق فى شهر العسل !

□ الإخوان المسلمون يتبراون من صالح سرية □ فتوى بعدم الصلاة على عبد الناصر □ الصلات القديمة بين السادات والإخوان □ السادات والفاشية □ الاتصالات السرية بين الإخوان فى الخارج والسلطة فى الداخل □ دور عثمان احمد عثمان □ شخصية المرشد الجديد □ الإخوان والإخوان الجدد □ ابرز المجلات الإسلامية □ قراءة فى الإصدار الثانى لمجلة « الدعوة » □ الإخوان يعجزون عن تشكيل حزب لهم □ نقطة اللا عودة بين حلفاء الأمس □

تبرأ الإخوان المسلمون من صالح سرية !

قال بعضهم : لا نعرفه .. لم نقابله .. لم نره .. ونحمد الله على ذلك .[1]

وقال البعض الآخر .. حتى إذا كنا عرفناه ، فقد عرفناه مسلما لا متآمراً .. ولأنه مجرم ، وتنظيمه مشبوه . فنحن نكره اليوم الذى رأيناه فيه .. ونحن نستنكر ما ارتكب من جرائم .. ولا نقبل ما فعل ولا نرضاه .. فمصر بلد عزيز ، مسلم ، لا يستحق التعامل معه بعنف .. وأنور السادات ليس الحاكم الذى نسعى ضده .. فهو رجل مؤمن ابن رجل مؤمن ، والله على ما نقول شهيد . [2]

لم يكن موقف الإخوان ـ الذى عبرت عنه بيانات أرسلوها إلى الصحف ونشرت ـ غريبا .. فهم فى ذلك الوقت كانوا يؤيدون السادات ، ويدعمونه .. وكانت العلاقة بينهم وبينه مثل السمن على العسل .. كانت فى مرحلة دافئة .. ناعمة .. تفيض بالمشاعر والانفعالات .

كانت العلاقة بينهم وبينه لا تزال فى شهر العسل .

وقد بدأت هذه العلاقة ـ مثل أية علاقة أخرى ـ بالغزل وجس النبض .. ثم كانت النظرة التى أعقبتها ابتسامة .. ثم .. تدخل رسل « الغرام » ليوفقوا الرأسين فى « الحلال » .. ثم كان الارتباط الذى يمكن تسميته ـ بلغة السياسة ـ تحالفا !

وفى مرحلة لاحقة كان « الطلاق » !

□□

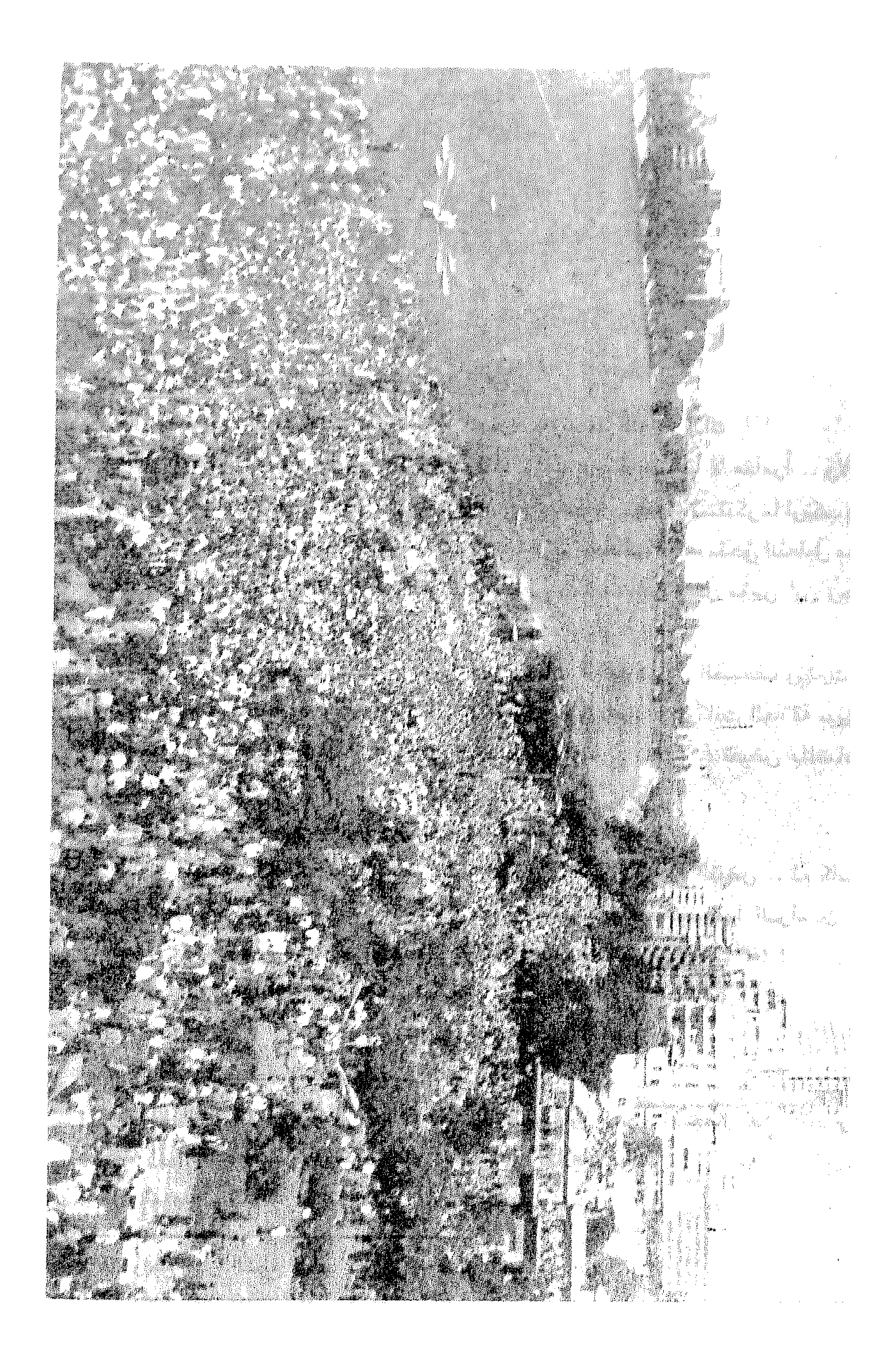
نحن الآن فى بداية السبعينيات ..

إن ذلك العقد من عمر مصر ، بدأ بحادث انقلابى بارز ، هو وفاة جمال عبد الناصر ، ورحيله إلى العالم الآخر .. وقد شيعته الملايين (٦ ملايين مواطن) إلى مثواه الأخير فى جنازة شعبية . تلقائية .. مذهلة .. فاضت فيها الدموع .. وسيطر عليها الحزن

---

(١) راجع بيان الشيخ محمد الغزالى فى فصل سابق من الكتاب .

(٢) راجع بيان زينب الغزالى فى نفس الفصل .



جنازة عبد الناصر : أفتى الإخوان بعدم جواز الصلاة عليه .

والسواد .. وحيرت المراقبين ، وجعلتهم يفقدون القدرة على الحساب .. جنازة مهولة لم يسبق لها مثيل ، وربما لن يكون !

لم يكن للإخوان ـ بالطبع ـ رجل واحد فى هذه الجنازة .. بل لا نكون قد تجاوزنا الحقيقة لو قلنا إن الإخوان تنفسوا الصعداء عندما غرب عمر جمال عبد الناصر مع غروب شمس يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. ولا نكون قد تجاوزنا الواقع لو قلنا إنهم أحسوا بالسعادة ، ولم تخلُ مشاعرهم من « الشماتة » مثلما فعلوا وانفعلوا من قبل ، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. حيث كانت فرحتهم بانكسار جمال عبد الناصر أكبر من إحساسهم بمرارة هزيمة الوطن .. وفى السجون أطلقوا « الزغاريد » وتبادلوا « التهانى » ووزعوا أكواب « الشربات » .

وقد أفتوا ـ بعد أن مات ـ بعدم جواز الصلاة عليه !!

وكان عليهم ترقب خلفه ، والتفاهم معه عند أول إحساس بالاطمئنان يصل إليهم .

تولى السلطة بعد أسبوعين تقريبا نائب الرئيس « أنور السادات » .. أصبح هو الرئيس ، فكان أن انحنى أمام تمثال جمال عبد الناصر فى مجلس الأمة « مجلس الشعب » فى انفعال وتأثر نقلته إلى الملايين ـ على الهواء مباشرة ـ كاميرات التليفزيون ، بعد أن أكد أنه سيمشى على طريقه .(٣) .. لكن .. قبل أن يكمل عامه الأول نجح ـ دون مجهود ـ فى الإطاحة بكل رجال سلفه ، فيما سمى بحركة ١٥ مايو ١٩٧١ التى يصفها خصومه بأنها كانت انقلابا .(٤) .

وقد كانت هذه « الحركة » بمثابة إنذار مبكر للناصريين واليساريين والماركسيين ، أو على الأقل للشباب المنتمى لهذه التيارات .. والاستدراك الأخير أدق(٥) وكان أن راحوا يستعدون لمواجهته .. ومن جانبه أحس السادات بالقلق والتوتر .. إلى حد الخطر ، فراح يفتش فى « دفاتره القديمة » عن قوة يتحالف معها وتكون معادية بالطبيعة وبالتجربة لقوة خصومه .. ولم يحتج إلى وقت طويل ليقع اختياره على الإخوان المسلمين .. وكان أن تحالف معهم .. وكان هذا التحالف بداية لتحالف أكبر ، وأخطر مع قوى اليمين داخل مصر وخارجها !

إن صلات السادات القديمة بمرشد الإخوان الأول ومؤسس جماعتهم ، حسن البنا ، كانت إحدى أوراقه الرابحة لإقناعهم بالتحالف معه .(٦)

---

(٣) فيما بعد قال المصريون فى سخرية : « إن السادات يمشى على طريق عبد الناصر باستيكة » .

(٤) كان رجال ١٥ مايو يسيطرون على كافة مصادر القوة فى البلاد ، الجيش ، المخابرات العامة ، الداخلية ، والإعلام .

(٥) لم يتردد بعض الذين عرفوا بانتمائهم لليسار فى التعاون مع السادات فى بداية حكمه بعد انقلاب ١٥ مايو وقبلوا أن يصبحوا وزراء فى حكومات شكَّلها ، بعد ذلك التاريخ .

(٦) بداية من الفقرة الثانية من ص ٣٥ يقول أنور السادات فى كتابه « البحث عن الذات » : إنه تعرف على حسن البنا سنة ١٩٤٠ ، بمناسبة ذكرى المولد النبوى ، حيث ألقى البنا محاضرة على جنود الوحدة =



انور السادات : فاشية معادية لليسار وارستقراطية تحت الجلد

لكن ...

الإخوان كانوا يريدون ماهو أكثر من ذكريات الماضى .. كانوا يريدون « عربونا » ملموسا من جانبه .. لأنه حتى ذلك الوقت كان السادات محسوبا على ثورة يوليو ، وكان لا يتردد فى أن يعلن أنه كان شريكا لعبد الناصر فى كل ما فعله .. وكان هذا الإعلان المتكرر يفزعهم .. أو على الأقل يكبلهم بقيود الحذر .

ولم يكن ليكفى الإخوان أن يعيد السادات كتابة اسمه الذى اشتهر به ، من أنور السادات فقط إلى « محمد » أنور السادات .. ولم يكن ليكفيهم أن يعلن أن شعار دولته هو « العلم والإيمان » ولا أن ينقل التليفزيون صورته ـ وقد أرخى ملامحه فى هيام واستغراق ـ وهو يصلى صلاة « الجمعة » ولا أن يقطع إرسال التليفزيون لإذاعة أذان الصلاة ، ولا أن يضاعف من ساعات بث البرامج الدينية فى الإذاعة ..

كان لابد أن يقدم ماهو أكثر من الشكليات .

فكان أن أفرج السادات عن أولى دفعات الإخوان المعتقلين عام ١٩٧١ .

ومن بين الذين خرجوا كان عمر التلمسانى ، رئيس تحرير مجلة « الدعوة » والمرشد العام للإخوان فيما بعد .. وقد ذهب التلمسانى فور خروجه من السجن إلى قصر « عابدين » ليدون شكره وشكر رفاقه المفرج عنهم ، للسادات ، فى سجل التشريفات !

ومن بينهم أيضا كان شاب مجهول ، حتى ذلك الوقت ، قدر له أن يفعل الكثير بعد سنوات قليلة ، هو شكرى مصطفى .

وفترة بعد أخرى ، توالت دفعات الإفراج عن المعتقلين من الإخوان .

وفى ٨ يوليو ١٩٧٥ ، صدر العفو الشامل عنهم ، هم وغيرهم ممن سبق الحكم عليهم فى قضايا سياسية قبل ١٥ مايو ١٩٧١ .

.. وبدأ ... شهر العسل !

= التى كان السادات فيها ضابطا .. وقد قال عنه إنه « كان ممتازا فى اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه .. من كل النواحى فعلا كان الرجل مؤهلا للزعامة الدينية .. هذا إلى جانب أنه كان مصريا صميما بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة فى معاملة الناس » . فى ذلك الوقت كان السادات ـ كما قال ـ يتصور أن الإخوان جماعة دينية هدفها الوحيد الإصلاح الخلقى وإحياء قيم الإسلام .. « ولكنى بعد أن استمعت إلى الشيخ البنا بدأ مفهومى يتغير بعض الشىء فقد كان الرجل يتكلم عن الدين والدنيا معا .. وبأسلوب جديد لم نألفه من رجال الدين » .. و « أعجبت به كل الإعجاب . فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلبى .. وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت .. وقبل أن يخرج دعانى لحضور درس الثلاثاء الذى كان يلقيه كل أسبوع بعد صلاة المغرب فى مقر المركز بالحلمية الجديدة » .

ويعترف السادات بأن الإخوان كانوا قوة لا يستهان بها .. وقد دفعه هذا الاعتراف إلى أن فاتح الشيخ البنا ، بأنه يسعى إلى عمل تنظيم عسكرى هدفه قلب الأوضاع فى البلد .. ورد عليه الرجل : يكفى فقط أن نتعاون .. انظر البحث عن الذات ـ الناشر المكتب المصرى الحديث ـ القاهرة .

من الإنصاف أن نذكر أن السادات لم يتحالف مع الإخوان ـ فقط ـ لمواجهة اليسار ، والناصريين ، وإن كان هذا التحالف هو أسرع الحلول الجاهزة التى التقطها .. لكن .. فى الحقيقة كانت تركيبة السادات القديمة ، سببا هاما وراء تعاونه مع الإخوان !!

إن كتابه « البحث عن الذات » يحمل إعجابا إلى حد الافتتان بثلاث شخصيات أثرت فيه ، وساهمت بوضوح فى صياغة تكوينه النفسى والسياسي .. حسن البنا .. عزيز المصرى . وأحمد حسين مؤسس حزب « مصر الفتاة » .[7] وقد آمن هؤلاء الرجال بالفكرة الإسلامية ، والإقليمية المصرية ، مع نزعة فاشية تركزت فى عزيز المصرى وأحمد حسين وغيرهما من خلال الإعجاب بألمانيا الهتلرية .[8]

أى أن تقدير السادات للفاشية ، وعداءه لليسار ، وميوله الثيوقراطية ، وجنوحه للعنف ، وإصراره على فصل مصر عن الأمة العربية ، وميوله اليمينية ، مسائل ليست جديدة ، وليست وليدة ظروف ومناورات سياسية ، وجد نفسه فيها وهو يخوض معركته لتثبيت مكانه فى السلطة .. وإنما هى جذور قديمة ، قديمة ، تمتد إلى سنة ١٩٤٠ .. إلى قبل حوالى ٣٠ سنة على توليه السلطة فى مصر .

إن السادات كان يمينيا بالطبيعة .. وبحكم تكويناته السابقة .. ورغبته فى الثروة ، لم يكن له أى بعد اجتماعى ، كما كانت ميوله الفاشية كامنة تحت الجلد ، مستعدة للظهور فى الوقت الذى يراه مناسبا ، كذلك كان يعرف أن هذه الميول لابد لها من فكرة مطلقة حتى يصبح زعيما .. فكرة مطلقة عنصرية أو دينية .. فكان أن راح يلعب بورقتى : « الهوية المصرية » .. و « الهوية الإسلامية » .. وكان ما كان .

□□

جرت الاتصالات الاستكشافية الأولى بين الإخوان والسادات سراً .

بدأت بقيادات الإخوان فى المنفى سنة ١٩٧١ .

ثم .. امتدت إلى قيادات الإخوان فى الداخل بعد ذلك .

وفى المرحلتين كان هناك وسطاء على مستويات يمكنهم التأثير فى الرئيس ..

بمساعدة حاكم عربى كبير ، دبرت بعض المنظمات الإسلامية فى الخارج ، لقاء السادات ، وأقطاب المنفى[9] .. كان اللقاء فى استراحة الرئيس فى « جاناكليس » .. وقد قال السادات لهؤلاء الأقطاب : « إنه يواجه المشاكل من نفس العناصر التى قاسوا منها ، ثم إنه يشاركهم أهدافهم فى مقاومة الإلحاد والشيوعية ، وكذلك فإن عبد الناصر قد خلف له تركة ثقيلة » .

---

(٧) لمزيد من التفاصيل هنا ، انظر « البحث عن الذات » ـ الصفحات ٣٥ ـ ٤٠ .

(٨) لمزيد من التفاصيل ، راجع فصل « اليمين الدينى يشهر السلاح » لغالى شكرى كتاب « المسألة الطائفية فى مصر » . الناشر دار الطليعة ـ بيروت .

(٩) تفاصيل اللقاء ـ انظر محمد حسنين هيكل ـ خريف الغضب .

وعرض السادات عليهم استعداده لتسهيل عودتهم إلى النشاط العلنى فى مصر ، بل وأعلن يومها استعداده للتحالف معهم .

إن هؤلاء الأقطاب ، فروا فى أوقات مختلفة من مصر بعد سنة ١٩٥٣ ، وبعضهم سقطت الجنسية عنه ، وقد نجوا من محن الاعتقال ، وفتحت لهم الأبواب فى الخارج ، ليكونوا الثروات ، التى استخدموا مبالغ طائلة منها فى تمويل محاولات الإخوان فى الداخل للنهوض بالجماعة من جديد ، كما أنهم راحوا يهاجمون النظام الناصرى بوسائل الدعاية التى توافرت فى الخارج .. ولم يكن من السهل ـ رغم قوة الوسطاء وضماناتهم ـ أن يستجيبوا للسادات ويعودوا بعد أول لقاء .. وإن كان من المؤكد أن الفكرة راقت لهم ، وتحمسوا ـ فى أنفسهم ـ لها .. فالعودة إلى مصر كانت بالنسبة لهم أكثر من العودة إلى الوطن بعد طول فراق .. العودة إلى مصر كانت تعنى بالنسبة لهم ، تصفية حسابات قديمة .. مع ثورة يوليو ، حتى وإن غاب قائدها عن الحياة .(١٠)

ترك لقاء « جاناكليس » أثراً حسنا فى نفوس قيادات الإخوان التى عاشت المحن داخل البلاد .. وبدت أكثر استعداداً لقبول وساطة جديدة .

يقول عمر التلمسانى :

ـ « إن هناك من تدخل للوساطة بين الرئيس والجماعة لإزالة ما فى النفوس ، والتعاون على خدمة الوطن » .(١١)

وقد قبل مرشد الإخوان فى ذلك الوقت حسن الهضيبى الوساطة .

وقال :

ـ « إن الفكرة لا بأس بها إن صحت النوايا » .(١٢)

كان بطل هذه الوساطة إخوانى ـ قيادى سابق هو الشيخ « سيد سابق » .. أحنى رأسه للأزمات فلم تطح به العواصف !

ثم .. كان للمهندس عثمان أحمد عثمان دور فى وساطة أخرى .

وعندما التقى به عمر التلمسانى ، ود . أحمد الملط ، والحاج حسنى عبد الباقى ، وصالح أبو رقيق ، قال لهم :

ـ « من الخير أن تقدموا للسادات وجهة نظركم فى الإصلاح حتى يدرس الأمر على مهل » .(١٣)

---

(١٠) لمعرفة دور أقطاب الإخوان فى الخارج راجع القضية رقم ١٩٦٥/١٢ أمن دولة عليا ، والقضية رقم ٦٥/٤٨٤ حصر ، وقد تعرضت لبعض التفاصيل فى كتابى عن سيد قطب ـ الناشر دار سينا ـ القاهرة .

(١١) و (١٢) و (١٣) عمر التلمسانى ـ ذكريات لا مذكرات ـ دار الاعتصام ـ ١٩٨٥ ـ القاهرة .

فكتبوا مذكرة من ٩ صفحات حملها عثمان إلى السادات .(١٤)

□□

لو تجاوزنا طبيعة تلك الوساطات والاتصالات لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة أصبحت واضحة هى أن المياه عادت ـ بعد سنوات قليلة من حكم السادات ـ إلى مجاريها بين الإخوان المسلمين والسلطة القائمة .. وبدا ذلك من طبائع الأمور .. فالسادات كان فى حاجة إليهم لمواجهة خصومه اليساريين والناصريين ،وإضعافهم ،وإبعادهم عن معاقلهم الحيوية فى الجامعات (بين الطلاب) وفى المصانع (بين العمال) .. والإخوان كانوا فى حاجة إليه للانتقام من ورثة العهد الناصرى ، وإعادة مجدهم الذى كان ، وثقلهم الذى ضاع .

ثم .. إن الطرفين كانا يحلمان بتغيير طراز الحياة فى مصر .. اجتماعيا .. واقتصاديا ، وسياسيا .. فكانا بمثابة سلاحى مقص كبير ،يقص جذوراً اخترقت تربة المجتمع، لتسقط شجرة « يوليو » على رءوس أصحابها .. وإذا كانت العبارة السابقة بلاغة أدبية ، فإن الذى حدث بلغة الواقع كان محاربة اليسار ومطاردته .. تشجيع المبادرات الخاصة على حساب القطاع العام .. فتح السوق على مصراعيه لتدخل منه رياح الاستهلاك والتطلع .. ولم تكن هذه التحولات بعيدة عن مصالح الغرب وتحركاته .. كما أنها لم تكن بعيدة عن الانقلابات السياسية التى شهدتها البلاد بعد حرب اكتوبر ، والتى بدأت بزيارة كيسنجر للقاهرة ، وانتهت بزيارة السادات للقدس .

---

(١٤) لعل دور عثمان احمد عثمان فى إعادة نفوذ الإخوان السياسي ـ الاقتصادى اكبر مما اشير إليه .. والمعروف انه كانت له صلات قديمة بالإخوان ، فى مدينة الاسماعيلية التى ينتمى إليها ، والتى بدا منها حسن البنا دعوته وتنظيمه ، إلا ان حساسية عثمان للثروة ، ورغبته فى الازدهار كمقاول ، فرضتا عليه ان يتحالف ببراعة مع السلطة الناصرية ، ويكبت مشاعره تماما .. وعندما تولى السادات الحكم خرجت المشاعر القديمة ، لتكون فى خدمة السلطة الجديدة ايضا .. وقد فتح له تاثيره المذهل على السادات كل الابواب .. ومن هذه الابواب اعاد لمصر بعض الإخوان الفارين إلى ثروة النفط ، وكان منهم من ساعده على الخروج من مصر ايام عبد الناصر ، وكان منهم من شاركه فى إحدى شركات مقاولاته الخارجية ، وكان منهم من فتح له فرص الاستثمارات بلا حدود فى سنوات الانفتاح الاقتصادى التى بدات بعد حرب اكتوبر بفترة وجيزة .

وربما كان ابرز هؤلاء المليونير عبد العظيم لقمة ، الذى اشترى بمساعدته سلسلة محلات « جروبى » الشهيرة ، بثمن اقل من قيمتها ، بعد ان تدخل لرفع الحراسة عنها ، وكان على الورثة المالكين ان يقدروا قيمة هذه الحركة ، عند التفاوض مع لقمة .

وقد كان القرار الأول للقمة منع الخمور فى جروبى ، لكن قراره الثانى كان رفع الاسعار بنسبة تعوض الفترات الطويلة لانخفاضها .

وقد كان لعثمان دوره ايضا فى دعم الجماعات الإسلامية ماديا ، ومعنويا .. كما كان من ابرز الشخصيات التى تدخل فى الازمات بينها وبين السادات .

إن ظروف الطرفين كانت تدفعهما للتحالف .. للتعاون .. حتى ولو بدا أن كل طرف يقبل الطرف الآخر على مضض .

لذلك ..

لابد أن نقول إن تحالفهما كان مشوبا بالحذر .

فالإخوان كانوا يخشون أن يستخدمهم السادات لتنفيذ أغراضه ثم يلقى بهم فى عرض الطريق (أو فى عرض السجون) بعد ذلك .

والسادات من جانبه كان يريدهم لمساندة نظامه مقابل حرية الدعوة لا حرية التنظيم . خوفا من أن يمارسوا الضغوط عليه كلما أرادوا ذلك ، إذا ما سمح لهم بعودة الجماعة رسميا .

تحالف مشوب بالحذر .. فعلا ..

وبالتحفز والقلق غالبا !

أو .. هو زواج مصلحة .. يسعى فيه كل طرف للحصول على أكبر المكاسب بأقل خسائر .. ويعرف فيه كل طرف نية الطرف الآخر تجاهه .. ويعرفان معا أن الطلاق ـ عند حد معين ـ لابد أن يقع .

وقد كان !

□□

فى عام ١٩٧٣ ، مات المرشد العام (الثانى) للإخوان المستشار حسن الهضيبى .. ودون صراع أو انقسام ـ هذه المرة ـ اتجهت الأنظار إلى عمر التلمسانى ليخلفه .. وبايعته ..

قال التلمسانى :(١٥)

ـــ إن سبب اختياره أنه كان أكبر الإخوان سنا .. وأنهم كانوا يسألونه فى كل كبيرة وصغيرة ، ولم يختلفوا عليه .

أى أن السبب أنه فقيه ، عاقل ، بحكم الخبرة والسن .

لم يقل التلمسانى إن هناك أسبابا أخرى دعمت اختياره ، منها أن الجيل الذى كان قائما على شئون الجماعة استفاد من دروس الماضى ، وهده طول العمر والمحن ، فهذا الجيل ـ الذى عاصر حسن البنا ـ دخل السجن فى محنة الإخوان الأولى (١٩٤٨)

---

(١٥) عمر التلمسانى من عائلة جزائرية اصلا .. من مدينة تلمسان فى اقصى الغرب الجزائرى ، وهذا هو سر التسمية واللقب .. هاجر جده إلى مصر بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر (١٨٣٠) .. ولد فى حارة « حوش قدم » بمنطقة « الغورية » فى ٤ نوفمبر ١٩٠٤ .. تزوج مبكراً .. درس الحقوق .. انضم إلى الوفد فى شبابه . انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٣٣ .. اعتقل فى كل المرات التى اصطدم فيها الإخوان مع حكومات العهود المختلفة ، قبل وبعد الثورة .. لم يكن عضواً فى النظام الخاص « الجهاز السرى » .. لا يميل إلى العنف بطبعه .. مات عن أكثر من ٨٠ سنة فى مايو ١٩٨٦ .

والثانية (١٩٥٤) والثالثة (١٩٦٥) فأصبح أكثر مرونة وأقل تشدداً .. وطلق « العنف » وسعى إلى تهدئة العواصف لا إلى إثارتها .. ووضع هدف عودة الجماعة رسميا إلى الواقع فوق كل اعتبار .

وقد كان التلمسانى يمثل هذا الجيل خير تمثيل .

فلم يختلفوا عليه .

والذى يقرأ ما كتبه التلمسانى عن أيام محنة الإخوان فى العهد الناصرى سيلاحظ أنه لم يفرط ـ كغيره ـ فى الكلام عن التعذيب البدنى ، وإن كان قد أشار أكثر من مرة إلى التعذيب النفسى .. وقد لفت نظرى ـ فيما رواه ـ واقعة إجبار الإخوان على أن يغنوا بصوت مرتفع ـ فى فناء السجن الحربى ـ أغنية أم كلثوم : « ياجمال يامثال الوطنية » وقد وقف أمامهم مرشدهم العام حسن الهضيبى كالمايسترو يحرك يديه مثل أى قائد كورال أو قائد أوركسترا .. بينما جنود السجن يدورون حولهم مهددين من لا يرفع عقيرته ، أو من يكتفى بتحريك شفتيه فقط ، بالضرب المبرح بالسياط .(١٦)

إن التعذيب النفسى لا يقل قسوة ـ فى رأى التلمسانى ـ عن التعذيب البدنى .. والتعذيب عموما ـ فى رأيه أيضا ـ كان حافزا على التحدى ، والترابط ، والاستمرار .. والاستفزاز والعنف والتطرف وتكفير المجتمع ووصمه بالجاهلية كذلك . لكن التلمسانى ـ رغم هذا التفسير ـ كان ضد أن ينزلق الشباب .. شباب الإخوان إلى الهوة ، وأن يكفروا المسلمين ، ويعاملوا المجتمع على أنه مجتمع جاهلى ، وحاول هو ومن بقى من جيله أن يردوه عما عزم عليه وقد نجحوا قليلا .. وفشلوا كثيراً .(١٧)

وعندما أصبح مرشداً عاما سعى بكل ما يملك من هدوء وحكمة أن يجنب الإخوان تكرار الأيام السوداء فى حياتهم .. فكان من جانبه يرفض العنف .. والعمل المسلح .. وكان من جانبه يسعى إلى الدعوة والدعاية بالفكر .. وحتى مات لم يكف عن الكتابة فى الصحف .. ولم يكف عن دعوته لأن يكون للإخوان حقهم فى أن يكون لهم حزب وصحيفة .(١٨)

---

(١٦) قال لى شاهد عيان لما حدث للإخوان فى السجن الحربى ، وهو ليس منهم ، أنه كان على الإخوان فى طوابير الجرى أن يصرخوا : « بص يمينك . بص شمالك . وحوش السجن اهه قدامك » .. كما كان عليهم أن يكرروا عبارة بدت كالشعار : « لا دخان .. ولا نسوان » .. ولم يكن الإخوان من جانبهم أقل استفزازا ، فقد بصق احدهم على صورة فى مدخل السجن لعبد الناصر تحتها شعار من شعارات الاشتراكية ، فكان أن اجبر على الزحف على بطنه ساعات طويلة !!

(١٧) لمزيد من التفاصيل ، ولأهمية هذه التفاصيل ، نقترح الرجوع إلى كتابنا عن سيد قطب ـ الناشر دار سينا .

(١٨) على فراش المرض الذى سبق الموت كتب عمر التلمسانى فى جريدة الشعب (٨٦/٣/١٨ ـ ص ١٠) خطابا مفتوحا إلى الرئيس حسنى مبارك قال فيه إن الإخوان استنكروا التدمير والتخريب والإرهاب (الذى يحدث من بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة) ولكن رغم ذلك « وضع قانون الأحزاب وكأنه اعد خصيصا لحرمان الإخوان المسلمين من تكوين حزب » .. ووضع قانون الصحافة بدوره =

وقد نجح التلمسانى أيام السادات أن يكون للإخوان صحيفة .. كانت هى مجلة « الدعوة » لكنه فشل فى إعادة الجماعة رسميا ، وفى أن يكون لهم حزب .. ثم كان أن أغلقت الصحيفة قبل اغتيال السادات بقليل ، فأصبح عليهم أن يعيدوا الكرة من جديد !

□□

كانت شخصية التلمسانى وسياسته وراء إعادة نشاط التنظيم السابق للإخوان المسلمين .

بدأ هذا النشاط باجتماعات غير منتظمة بين فلول القيادات السابقة .

لكن .. هذه الفلول لم تلبث أن قامت بحملة تجنيد واسعة ، وفى صفوف الشباب المثقف بصفة خاصة حتى تمكنت من إعادة بناء التنظيم فى أكثر من مدينة .. مع تركيز خاص على القاهرة وعلى العاملين فى الحكومة ومؤسسات القطاع العام .

وقد ظل هذا النشاط سريا فى المرحلة الأولى .

ثم بدأ يسعى ـ بعد نشأة المنابر ـ نحو العلنية ، وقام التنظيم بأول محاولة لجس النبض ، وأشاع أنه سيطلب الترخيص بإعادة تأسيسه « كجمعية دينية » برئاسة كمال الدين حسين أو حسين الشافعى .

ولكن نتيجة المحاولة كانت سلبية . فقد نفى الخبر كل من الرجلين ، وأعلنا براءتهما من الفكرة .

ومنذ فشل هذه المحاولة ، تحول التنظيم الجديد للإخوان عن فكرة طلب العلنية .. إلى فكرة فرضها عمليا .

ثم تقدم التنظيم خطوة أخرى ، وأصدر مجلة « الدعوة » لإعلان مبادىء الإخوان وآرائهم وبياناتهم السياسية والفكرية .[١٩]

ومجلة « الدعوة » صدرت قبل سنوات من ثورة يوليو ، بترخيص رسمى يحمل اسم صالح عشماوى ، وكانت تعبر عن التيار الإسلامى الإصلاحى ، ثم أصبحت إحدى صحف الإخوان المسلمين .. وبعد أن وقع الخلاف بين صالح عشماوى وحسن الهضيبى

= لحرمان الإخوان المسلمين من صحيفة تنطق برايهم .. » فهل ترى سيادتكم ان هذا من مساواة الإخوان المسلمين بكل افراد الشعب فى جميع الحقوق والواجبات ؟ » .. واشتكى التلمسانى من تحفظ رجال الأمن على كتابهم غير الدورى ، رغم ان هذا يباح لجميع المصريين . وقال : « إننا نعامل معاملة خاصة دون افراد الشعب المصرى ، فهل لدى الحكومات دليل على وجوب حرماننا من نشاطنا السياسي والاقتصادى والاجتماعى » !

(١٩) حتى إعلان المنابر ، لم يكن عمر التلمسانى قد عرف بصفته المرشد العام للإخوان ، إلا بين الإخوان فقط . بل إن الإخوان اطلقوا شائعات حول شخصيات غيره ، نسبوا لها رئاسة تنظيمهم الجديد ، ومن هذه الشخصيات كان صالح ابو رقيق ، وذلك على ما يبدو لصرف الانتباه عن المرشد الجديد الذى اختاروه ، عمر التلمسانى .

سنة ١٩٥٣ ، فصل صالح عشماوى من الجماعة ، وحول « الدعوة » إلى صحيفة أسبوعية إسلامية مستقلة .. ولأن صالح عشماوى كان مؤيداً لعبد الناصر فى صراعه مع الهضيبى ، فإنه لم يذق ـ هو وصحيفته ـ مرارة المحنة الأولى للإخوان بعد الثورة فى سنة ١٩٥٤ ..

وقد استمرت « الدعوة » فى الصدور ـ كما أكد صاحبها ـ بشكل غير ظاهر طوال عهد جمال عبد الناصر .. صدرت فى عدد قليل من الصفحات ، وطبع منها كميات قليلة ، حفاظا على ترخيصها القانونى ، وكانت تكتفى بنشر الأحكام القضائية بما فيها الأحكام التى صدرت ضد الإخوان المسلمين من محكمة « الشعب » والمحاكم العسكرية التى حاكمتهم .

أى أن موقفها القانونى كان سليما ولم تكن فى حاجة إلى قرار استثنائى من السادات لتعود إلى الصدور من جديد فى سنة ١٩٧٦ .

لكن خصوم الإخوان والسادات معا ، رفضوا هذا التبرير وأكدوا أن قبول السادات بعودة « الدعوة » كان جزءاً من صفقة التحالف بينهما .. وأن السادات أعاد « الدعوة » حتى بدون ترخيص قانونى .. وبتعليمات شفهية لرجال الأمن بعدم مصادرتها .

حسب رواية الإخوان أنفسهم ، جاء صالح عشماوى إلى عمر التلمسانى .. وبعد حوار طويل دار بينهما سبحا فيه بين قيادات الماضى والحاضر ، وضع عشماوى « الدعوة » تحت تصرف الإخوان من جديد .. ولم يمر وقت طويل حتى تكونت شركة نشر وتوزيع إسلامية لإصدار « الدعوة » تولى التلمسانى رئاسة مجلس إدارتها .. ولم يحاول نظام السادات أن يقف فى وجه هذا التغيير .

وكان أن بدأ الإصدار الثانى للدعوة فى يوليو ١٩٧٦ ، تحت شعار « صوت الحق والقوة » .. الذى وضعته تحت رسم المصحف والسيفين الخاص بالإخوان المسلمين ..

وفى صفحات أعدادها الأولى ، أعلنت أنها سوف تدعو للإسلام ، وتنادى بالقرآن ، وتطالب بتطبيق الشريعة ، والتخلص من القوانين الوضعية المستمدة من التشريعات الفرنسية .

وقد لوحظ أن أبرز كتابها ، كانوا من الإخوان السابقين الذين طردهم حسن الهضيبى من الجماعة ، لميلهم إلى النظام فى سنة ١٩٥٣ .. وكان من بينهم صالح عشماوى ، ومحمد الغزالى (مؤلف ٤٠ كتابا دينيا) الذى عينه السادات وكيل وزارة الأوقاف ، ثم ترك المنصب الحكومى وسافر للعمل فى السعودية .

اعتبر هؤلاء أنفسهم المعبرين ، عن الجماعة وعن تراث الحسنين (حسن البنا وحسن الهضيبى) لكنهم فى الحقيقة لم يتمكنوا من إعادة تكوين الجماعة إلى المستوى الذى كانت عليه عند صدامها بجمال عبد الناصر فى منتصف « الخمسينيات » وإذا لم يكن السبب فى

شخصياتهم ، فأغلب الظن أن الظروف كانت قد تجاوزتهم .. لذلك يجد البعض أن من المناسب أن تسمى الجماعة منذ ذلك الوقت وإلى الآن باسم « الإخوان المسلمون » الجدد .. صحيح أنها وليدة الجماعة الأولى ، لكن صحيح أيضا أن الكثير من تراث الإخوان قد اختفى .

لكن .. رغم ذلك ، سجلت أرقام توزيع « الدعوة » قفزة كبيرة وصلت أحيانا إلى ٨٥ ألف نسخة أسبوعيا وهو رقم لا بأس به وإن كان أقل مما سجلته مجلة « روز اليوسف » في ذلك الوقت ، الذى كانت تعبر فيه عن فصائل اليسار .. فقد تخطى توزيعها رقم الـ ١٥٠ ألف نسخة أسبوعياً ..

بجانب التوزيع والاشتراكات والتبرعات ، اعتمدت « الدعوة » في تمويلها على الاعلانات التجارية التى تدعو إلى ترويج السلع الاستهلاكية التى كان بعضها مستورداً (السيارات والأقمشة والأغذية) وكانت هذه الإعلانات تعكس النفوذ المالى والتجارى للإخوان أو للمتعاطفين معهم .. كما أنها بدت انقلابا إذا ما قورنت بإعلانات الإصدار الأول .. حيث كانت الإعلانات لا تزيد على مساحات صغيرة داخلها سطور تروج للكتب وللمكتبات الإسلامية .

وعلى ما يبدو ، كان من حسن حظ « الدعوة » أنها أعيدت إلى الحياة في وقت نشطت فيه سياسة الانفتاح الاستهلاكى (التى خططها وأشرف على تنفيذها رئيس الحكومة في ذلك الوقت الدكتور عبد العزيز حجازى) فقد راحت إعلانات التجار والمستوردين والشركات الخاصة تنهال عليها ، وتدعمها بالتمويل اللازم .

ولم يتردد القطاع العام بدعمها بالإعلانات أيضا .. ففى عدد يوليو ١٩٨١ ، نشر بنك « مصر » الحكومى إعلانا على صفحة كاملة عن فرع المعاملات الإسلامية ، الذى يتعامل - على حد قول الإعلان - طبقا للشريعة الإسلامية .

وفى الحقيقة لم ينكر الإخوان الجدد أنهم على علاقة ببعض دوائر التجارة والأعمال .. واعترف بذلك عمر التلمسانى نفسه لمجلة « المصور » في يناير ١٩٨٢ .(٢٠)

---

(٢٠) في كتابه « النبى والفرعون » يقول الباحث الفرنسى « جيلس كيبل » : إن بعض المنتمين إلى الحركة الإسلامية من ذوى الصلة بمجلة « الدعوة » أسسوا شركة في مدينة الاسكندرية اطلقوا عليها اسم « القادسية » وكانت شركتهم تتاجر في السلع المستوردة ، وفى نوع « معين » من العقارات تربح منه الكثير .. هذه العقارات هى التى استردها اصحابها بعد رفع الحراسة عنها .. إن ملاك هذه العقارات لم يكن من السهل عليهم استردادها بسبب التصرف فيها بالبيع أو التاجير من قبل اجهزة الحراسة .. وقد ترتب على ذلك العديد من المشاكل والمنازعات القضائية لاحد لها . ورغم أن الملاك القدامى حصلوا على أحكام باسترداد ممتلكاتهم فإنهم ظلوا عاجزين عن تنفيذ الأحكام ووضع أيديهم على الممتلكات ... وهنا تقدمت شركة « القادسية » باقتراح لهؤلاء الملاك بشراء عقاراتهم - الصادر بشان إعادتها احكام - مقابل ثلث قيمتها السوقية .. وما إن يتم دفع الثمن وتصبح « القادسية » هى المالك القانونى حتى يذهب =

ورغم أن عثمان أحمد عثمان كان متعاطفا مع الإخوان إلا أنه لم ينشر إعلانا لشركة من كاته فى « الدعوة » .. ولا يقارن هذا بسيل الإعلانات التى قدمها ـ فيما بعد ـ إلى حف المعارضة التى تهاجمه ، رغم عداوته للأحزاب والتيارات التى تعبر عنها هذه سحف .

□

« الدعوة » لم تكن المجلة الإسلامية الوحيدة التى سمح لها بالصدور .. كانت هناك نىا مجلة « الاعتصام » ومجلة « المختار الإسلامى » ..

« الاعتصام » صدرت شهريا معبرة عن « الجمعية الشرعية » التى أسسها الشيخ حمود خطاب السبكى » بهدف بناء المساجد فى مصر .. وكان بدء إصدارها على يد أحمد شور سنة ١٩٣٦ ، متخذة من الآية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » عارا دائما لها .. وقد كانت « الاعتصام » فى السبعينيات أكثر حدة ، وعنفا من الدعوة » ، وكان كتابها أكثر شبابا وراديكالية من كتاب « الدعوة » .

أما « المختار الإسلامى » فقد صدرت فى سنة ١٩٧٩ على غرار مجلة « ريدرديجست » مريكية .. وتميزت بالمقالات ، الأقرب إلى الدراسات ، والأقل إثارة .

وفيما بعد .. فى سبتمبر ١٩٨١ تعطلت المجلات الثلاث .

لكن .. فيما بعد أيضا أعيدت « الاعتصام » و « المختار الإسلامى » ولم تعد الدعوة » رغم لجوء الإخوان إلى القضاء .. وقد حاول الإخوان النفاذ من بعض غرات ، وأصدروا مجلة « البشير » على شكل كتاب غير دورى ، لكن المحاولة فشلت نتهت بالمصادرة .. ومرة أخرى كان القضاء هو الملاذ الوحيد .

□

بدأت « الدعوة » عهدها الجديد بفتح النيران عن آخرها على اليسار .. ومن الصفحة ولى للعدد الأول بدا واضحا أن أولى مهامها العاجلة تصفية الحسابات القديمة مع العهد ناصرى .

نسبت لذلك العهد كل المتاعب والهموم التى تعانى منها مصر .. أزمة الإسكان .. أزمة خلاق .. انفجار مواسير المجارى .. انفجار قضايا الفساد .. الهزيمة العسكرية .. هزيمة النفسية .. الكبت .. الانغلاق .. تمزق الشباب .. وراحت تفرغ شحناتها فى هجوم على الماضى القريب .

ـالها لشاغلى العقار أو الأرض ويعلنوا ملكيتهم ، ويقولوا إنهم سيبنون عليها مسجداً . ويفرضوا على اغلى العقار الرحيل بالذوق أو بالهراوات التى يحملها بعض شباب إحدى الجماعات الإسلامية فى سكندرية ، وكان بعض رجال البوليس يتغاضون عن ذلك لاسباب غير اخلاقية ، وما إن تضع الشركة ها على الأرض والعقارات حتى تحولها إلى مشروع استثمارى جديد ينشرون عنه الإعلانات الكبيرة فى الدعوة » والجدير بالذكر أن الكثير من تحليلنا للدعوة يستند إلى كيبل .

ويبدو أن قراءة عددين من الدعوة ، كانت كفيلة بأن ترد عليها مجلة « روزاليوسف » ..

فى عدد ١٣ سبتمبر ١٩٧٦ ، كتب د . عبد العظيم رمضان فى روز اليوسف :

« والسؤال الذى يطرح نفسه اليوم بعد عددين صدرا من مجلة « الدعوة » حافلين بالهجوم على اليسار هو :

« إلى أين يتجه الإخوان المسلمين فى عهدهم الجديد ؟ هل يتجهون إلى الوراء أم إلى الأمام ؟ هل يبدأون من حيث انتهوا أم يرجعون إلى ما بدأوا ؟

« وأية فلول من قيادات الإخوان المسلمين تلك التى بقيت ؟ هل هى فلول القيادات الرجعية التى تحالفت قديما مع فاروق وأحزاب الأقلية ، أم هى فلول القيادات التقدمية التى انفتحت على تيار الديمقراطية العريض ؟ هل هى فلول القيادات الرجعية التى وضع اليمين على عينيها عصابة « مقاومة الشيوعية » ليعميها عن رؤية « الأبعاد الاجتماعية » الحقيقية للمعركة ، أم فلول القيادات التقدمية التى تفتحت بصيرتها واستنارت قلوبها « للمستوى الاجتماعى للنضال الوطنى » ، فصاغت برنامج الإخوان المسلمين المشار إليه فى بداية الثورة ؟

« هل هى فلول القيادات التى تقبل فى سذاجة استدراج اليمين لها على غير طبيعة الدين التقدمية الذى تدين به أم هى فلول القيادات التقدمية التى تدرك الأرض المشتركة بينها وبين القوى الوطنية الديمقراطية التقدمية التى يجمعها تنظيم التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ؟

« هذا هو السؤال العويص الذى تحدد الإجابة عليه مصير الجماعة فى عهدها الجديد .

« فاليمين يخوض حرباً ضارية لكى يصور «المعركة الاجتماعية » الدائرة الآن بين الغالبية الساحقة من جماهير شعبنا المحرومة وبين قلة ضئيلة تريد أن تعود ببلادنا إلى مجتمع النصف فى المائة مرة أخرى ـ على أنها دينية بين الإسلام والشيوعية ! واليمين يفعل ذلك لأن هذا التصوير وحده هو الذى يخدم مآربه ويحقق أهدافه فى تزييف المعركة وخداع الجماهير وصرفها عن نضالها وإبعادها عن أصدقائها الحقيقيين .. ومن هنا التركيز على أن الشيوعية تساوى الإلحاد ! وتصوير الماركسى على أنه ملحد حتى ولو آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ! .. وكذلك تصوير تنظيم التجمع الوطنى التقدمى على أنه تنظيم ماركسى إلحادى ، ومهاجمة أعضائه على هذا الأساس حتى ولو كانوا من علماء الإسلام .

« فما رأى الإخوان المسلمين وجريدتهم « الدعوة » فى طبيعة المعركة الدائرة ؟ هل يرون أنها « معركة اجتماعية » أم هى « معركة دينية » تتطلب حربا صليبية ضد القوى الوطنية التقدمية ، يفنى فيها الإخوان المسلمون والشيوعيون والناصريون وكل القوى الوطنية

ـدمية ، ولا يبقى سوى الرجعية المصرية والصهيـونية والـولايـات المتحـدة ريكية ؟[٢١]

نتهى .

م يستجب الإخوان لنصيحة اليسار واندفعت « الدعوة » فى الطريق الذى بدأته .. .ت سياسة السادات الانقلابية ضد التأميم والاشتراكية والقطاع العام ،ودعت ـ بعد .ن الأحزاب ـ إلى حل حزب اليسار ، وإلى طرد اليساريين من الحكومة والصحف جامعات .

ربجانب التركيز على بطولات وأمجاد المسلمين الأوائل ، والدعوة إلى تطبيق الشريعة سلامية ، اعتبرت « الدعوة » أعداء الإسلام أربعة هم : اليهود ، والصليبيون ، شيوعيون ، والعلمانيون .

اليهود أعداء الله .. قامت دولتهم العبرية نتيجة مؤامرة صليبية .. مثل المؤامرة ىليبية التى نزعت الأندلس من الخلافة الإسلامية .. لذلك ـ تضيف الدعوة ـ على لسلمين الآن أن يتذكروا أنهم يجب أن يسترجعوها فى يوم من الأيام » .. واعتقدت عوة أن المؤامرات الصليبية على الإسلام لا تزال مستمرة من خلال البعثات التبشيرية ابات المستشرقين التى تثير الاضطراب فى أذهان المسلمين حول فقههم ؟! .[٢٢]

الشيوعيون ـ كما قالت الدعوة ـ هم الإلحاد أولاً والإلحاد أخيراً .. وبالتالى هم فى ها ـ أعداء الإسلام الألداء .. وهم ـ فى رأيها ـ يحاربون الإسلام متحالفين مع ىليبية .

واعتبرت الدعوة نظام حكم عبد الناصر نظاما شيوعيا ، وكان فى تصورها كالسرطان ى لا يمكن استئصاله بسهولة ، وقالت : إن الشيوعيين احتلوا الاتحاد الاشتراكى ربى ، والتنظيم الطليعى وعاشوا كملوك ، وفرضوا حالة من التجسس العام ، يطروا على الصحافة ، وعلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى كان شعاره لاشتراكية طريقنا والميثاق دستورنا والناصرية عقيدتنا » .. والعبارة الأخيرة للدعوة .

---

٢) د . عبد العظيم رمضان ـ مقال : التنظيم الجديد للإخوان المسلمين . ومن الإنصاف ان نذكر ان ءة ضرب كل القوى الوطنية بما فيها الإخوان ، لحساب الرجعية والصهيونية والولايات المتحدة ريكية قد تحققت فى سبتمبر ١٩٨١ !

٢) فى هذا الصدد فجرت « الدعوة » القضية التى عرفت باسم « قضية ميتشل » وميتشل هو شارد ميتشل المستشرق الأمريكى ، مؤلف الكتاب الشهير « الإخوان المسلمون » .. ففى سنة ١٩٧٩ نما د . ميتشل فى زيارة لمصر نشرت « الدعوة » وثيقة باللغة العربية موجهة من د . ميتشل إلى رئيس ىلة المخابرات المركزية تطالب بالقضاء على الحركة الإسلامية بمعرفة الحكومة المصرية وقد رد ريكيون بقولهم : ولماذا يكتب ميتشل مثل هذه الوثيقة باللغة العربية إذا كانت موجهة إلى مسئولين يكيين ولم ترد الدعوة ـ راجع كيبل ، النبى والفرعون .

وربطت الدعوة بين الشيوعية والصهيونية على أساس أن كارل ماركس كان يهوديا !!

أما العلمانية فهى أيضا فى رأيها من أسباب الشر .. « لأنها تعمل على نسف القاعدة الرئيسية التى تقول إن الإسلام دين ودولة » .. وكمال أتاتورك ـ فى رأيها ـ خائن .. وهو لم يقض على الخلافة لأنه كان يريد أن يضع تركيا على طريق العصر ، وإنما لأنه كان ـ مثل كارل ماركس ـ يهوديا ، وإن كان من « يهود الدونمة »[٢٣] مع أنه ليس هناك دليل واحد على أنه كان ينتمى إلى هذه الجماعة المريبة من اليهود .. وأغلب الظن أن هذا الاتهام أطلقه خصومه الذين نفاهم خارج تركيا .. فتجمعوا فى مصر .

فى تلك الفترة فتحت « الدعوة » نيرانها على الصحف والمجلات التى تدافع عن اليسار أو لا تمشى فى ركاب الحملة التى طاردته ووصفته بالإلحاد ، وكان على رأسها مجلة روز اليوسف[٢٤] التى كانت فى عرف الإخوان مجلة شيوعية .. حمراء ، من الغلاف إلى الغلاف .

وفى تلك الفترة نشر « صلاح جاهين » رسما كاريكاتيريا فى جريدة « الأهرام » صور فيه مصر فى هيئة امرأة وقورة تضم ثلاثة أبناءبهم : الوحدة ، والتعايش ، والعلمانية .. فهاجم الرسم صالح عشماوى بنفسه ، وطالب الحكومة بالاستقالة لأنها سمحت بنشره .[٢٥]

على ما يبدو ، قطع هجوم صالح عشماوى الكثير من الجسور الممدودة بين الإخوان والسادات .. أحسوا أنه غير متحمس بما فيه الكفاية ـ لتطبيق الشريعة الإسلامية ،

---

(٢٣) الدونمة طائفة يهودية تتبع اليهودى « ساباتاى زفى » المسيح المزيف الذى ظهر فى الدولة العثمانية فى منتصف القرن السابع عشر ، وادعى انه المسيح المنتظر الذى سياخذ بيد اليهود ويؤسس لهم دولة فى فلسطين ومنها يسودون العالم . تتخذ هذه الطائفة اسماء إسلامية وتؤدى تعاليم الإسلام الظاهر منها امام الناس ، وتخفي فى باطنها اعتقاداتها اليهودية المتمثلة فى إيمانها بالله رباً وساباتاى زفى مسيحا لا مخلص لها إلا هو والتزام كل ما امر به . افراد هذه الطائفة يدخلون مساجد المسلمين ويؤدون طقوس طائفتهم فى معابدهم الخاصة ، يحجون إلى بيت الله الحرام ويحتفلون باعياد المسلمين ويصومون شهر رمضان فى الظاهر ، ويحتفلون باعياد اليهود ويصومون صيامهم ، ايضا يكرهون الإسلام ويدبرون المؤامرات للإطاحة بحكامه ، يظهرون المودة للمسلمين فى الظاهر ، ويسعون للسيطرة عليهم سرا ، هذا التعريف من كتاب يهود الدونمة ـ للدكتور محمد عمر ـ الناشر مؤسسة الدراسات التاريخية .

(٢٤) كان على رأس جهاز تحرير روز اليوسف عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ وفتحى غانم ، وقد اخذت المجلة طابعها اليسارى بعد حرب اكتوبر ابتداء من منتصف سنة ١٩٧٤ ، وظلت على هذا الحال إلى ما بعد احداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ بقليل ، حيث تغيرت قيادتها ، وخيث انتهت إلى غير رجعة اية فرصة للتقارب بين السادات واليسار .

(٢٥) فيما بعد .. قبل ان يموت الفنان صلاح جاهين من الاكتئاب (فى ربيع ١٩٨٦) بايام ، نشر فى جريدة الأهرام رسوما هاجم فيها النقاب ، الذى كان حديث الناس فى تلك الأيام ، فتلقى اكثر من تهديد بالقتل ، وفرضت التهديدات عليه استضافة رجال امن لحمايته ، فكان ان احس اكثر بالاكتئاب . وقربه ذلك من حافة الموت .

فانقلبوا عليه ..وراحوا ينتقدون سياسة الانفتاح ، والربا ، والفساد ، والترف ، والاستهلاك الفاخر ، والاحتكار ، والسوق السوداء ، والمناخ الذى أفرز اللصوص والمرتشين وتجار المخدرات ، والعمولات .. وفسر الإخوان كل هذه الظواهر تفسيرا إسلاميا .. فهذه الظواهر سببها الابتعاد عن شرع الله .. وطريق الله .

□□

رغم الهجوم الذى قادته « الدعوة » على معظم التيارات والجماعات الأخرى فى المجتمع المصرى ، فإن عمر التلمسانى كان يكتب دائما :(٢٦)

« إن الحب هو شعار الإخوان المسلمين » !

وكان يؤكد دائما :

« إن مهمتهم توحيد الناس وتجميعهم » !

ومهما كانت أفكار الإخوان المسلمين « الجدد » والتى عبرت عنها « الدعوة » بوضوح (على النحو الذى حاولنا تلخيصه بأمانة) فإنه لابد من الاعتراف : أنهم غيروا أسلوبهم القديم ، ولم يعودوا راغبين فى العنف ولا فى قلب نظام الحكم ، وكان كل ما يسعون إليه هو إعادة الكيان الشرعى للجماعة ، ودخول ممثلين لهم فى البرلمان (مجلس الشعب) .

وفى تلك الفترة تصوروا أنهم سيكون لهم فرصة فى تشكيل حزب سياسي ، مثل اليمين (الأحرار) واليسار (التجمع) والوسط (حزب الحكومة) .. وحتى آخر يوم فى حياة عمر التلمسانى كان هذا هو بالضبط الحلم الذى كان يتمنى أن يحققه .

كان الإخوان يتصورون أن التحالف مع السادات سيسهل عليهم تكوين الحزب الذى يتمنونه ..لكن السادات لم يحقق حلمهم ، بل لم يسمح لهم حتى بإعادة الجماعة رسميا ، كجمعية دينية .. لقد كان ماأعطاه لهم هو أقصى ما كان يريد فبدأ الإخوان يعيدون حساباتهم .

لقد جاءت الأحداث بما لايشتهي الإخوان .

جاءت باختبار لطبيعة العلاقة بينهم وبين السادات .

إن المطالبة بحزب كان الاختبار .. وبعد الرفض بدا تلامس الأسلاك العارية بينهما مسألة وقت ..لقد ألغى الاتحاد الاشتراكى ، وبدأ نظام المنابر ، الذى سرعان ما انقلب ـ بقرار جمهورى ـ إلى أحزاب وكان أن طالب الإخوان بحزب ، ورفض الطلب .. وبعد فترة سمح بقيام حزب جديد ، هو حزب العمل ، وتكرر طلب الإخوان ، وتكرر الرفض .. وبعد فترة أخرى سمح بقيام حزب الوفد ، وتكرر الطلب والرفض أيضا .

---

(٢٦) فيما كتبه التلمسانى وبدا غريبا ، تفسيره لحل جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ ، فقد قال : « إذا كانت الجماعة قد حلت عام ١٩٥٤ فليس ذلك إلا لأنها كانت تهدد بقاء إسرائيل ، وكان هذا سببا قويا لاضطهادها » !

أغلب الظن أن السادات بنى رفضه على أساس « الوحدة الوطنية » ، التى اشتعلت فى أطرافها نيران الفتنة الطائفية ، وكان المطلوب أن لا تزيد النيران عن حد معين ، حتى لا يعجز النظام ـ الذى ساهم فى إشعالها ـ عن إخمادها .. فتحرقه هو نفسه . كما حدث فعلاً ، فيما بعد .

وبصدور قانون الأحزاب أغلق السادات الباب تماما أمام طلب الإخوان .. إن القانون يحرم قيام حزب سياسي على أساس دينى .. لكن .. الإخوان ردوا : إن ذلك النص « أو المبدأ » لا ينطبق عليهم ، لأن الإسلام دين ودولة .. لا دين فقط .. ولهذا فحزبهم لن يكون حزبا دينيا .. ولم يستمع أحد للرد .. فكان أن حذروا من خروجهم عن إطار الشرعية القانونية إذا ما أصر النظام على موقفه .

ولابد من الاعتراف أن الموقف الذى اتخذه السادات من حزب الإخوان كان لا يتسم بالصدق .. أو على الأقل كان يمتلىء بالتناقض والحيرة .

فدورهم فى محاربة اليسار ـ وإن ارتدى عباءة الدين ـ كان دوراً سياسيا .

وهجومهم على الناصريين ـ وإن دخل فى نطاق الثأر ـ كان جزءاً من مخطط سياسي .

ومساندتهم لتغير السياسة الخارجية فى اتجاه بعيد عن الاتحاد السوفيتى ـ وإن دخلت تحت بند مقاومة الإلحاد ـ كانت مساندة سياسية .

وحماسهم الأول لسياسة الانفتاح الاقتصادى ـ وإن أخذ هجوما على الانغلاق ـ كان حماسا سياسيا .

ولا يمكن ـ بعد ذلك ـ أن يدعى السادات أنهم جماعة دينية : لا حق لها فى حزب سياسي !

ثم ...

كانت خيبة أمل الإخوان فى أن ينفذ السادات وعوده ، ويطبق الشريعة الإسلامية !

لقد لعب السادات بهذه الورقة أيضا لإقناعهم بأنه فى نفس الزورق الذى يبحرون فيه .. فى نفس الخندق الذى يقاتلون منه .. وراح ـ من باب المزايدة ـ يطالب مجلس الشعب بتنقية القوانين من الشوائب غير الإسلامية .. لكن سرعان ما اتضح أن ذلك تصرف لا يخلو من المناورة .. خدعة .. مسرحية .. كلام للاستهلاك .. إذ راحت مسودات قوانين الشريعة تتعرض للتسويف والمماطلة ، فوصف الإخوان هذه السياسة بأنها سياسة مقصودة متعمدة .. غير صادقة .. ولم تبتعد أوصافهم كثيرا عن الحقيقة .

إن الإخوان اعتبروا تطبيق الشريعة ، والسماح لهم بحزب سياسي ، وجهين لعملة « واحدة » .. فحزبهم السياسي ـ كما قالوا ـ الحزب الوحيد الذى سيطالب بالشريعة وسيطبقها .. لأنه ـ فى رأيهم ـ لا يمكن لحزب آخر ـ مهما كانت شعاراته الإسلامية ـ أن

يطبقها .. وإلا كان من الممكن ـ على حد قول « الدعوة » فى يونيو ١٩٧٧ـ لحزب رأسمالى أن يطبق الشيوعية .

والسادات نفسه تداول هذه العملة ، ودفع بها للإخوان ما عليه من مبالغ وديون ، فى صفقة التحالف بينهما ثم .. اكتشف الإخوان أنها عملة مزيفة .

ثم .. اتسعت رقعة الخلاف بين السادات والإخوان بعد الثورة الإسلامية فى إيران .

لقد تحدى السادات المسلمين باستضافة الشاه المخلوع ، وتوديعه ـ بعد وفاته ـ إلى قبره (فى مسجد الرفاعى) فى جنازة عسكرية ، رسمية ، كان على رأسها هو وكبار رجال الدولة وقادة القوات المسلحة .. وفى الوقت الذى لاقت فيه الثورة الإيرانية حماسا وتأييداً غير محدد من الإخوان (ومن الجماعات الإسلامية التى اعتبرتها النموذج الذى يحتذى) .. راح السادات بأسلوب ساخر ينتقدها ، وينتقد من يؤيدها .. وكان نصيب الإخوان والجماعات الإسلامية نصيب الأسد .

ثم ..

كانت رحلة القدس الشهيرة (نوفمبر ١٩٧٧) التى انتهت بمعاهدة صلح مع العدو الصهيونى (مارس ١٩٧٩) !

لقد تحدى السادات كل أقدار التاريخ ، وسافر إلى إسرائيل .. قطع فى ساعة واحدة مالم يكن ممكنا قطعه فى أزمان وأجيال .. راح يزرع السلام فى أرض بور ، مالحة .. وراح يطالب مناحم بيجين بفقد ذاكرته والتحول من إرهابى شرس إلى حمل وديع !

إن ذلك العام من حكم السادات كان عاماً مذهلاً ..

بدأ بمفاجأة له .

وانتهى بمفاجأة منه .

بدأ بمظاهرات الجوع (سميت أيضا مظاهرات الطعام) ولم تفلح تسميته لها بانتفاضة الحرامية (رداً على وصف الانتفاضة الشعبية) فى أن تعيد الشرخ الذى حدث بسببها فى شرعية النظام .

وانتهى بزيارة « القدس » التى نافست فى إثارتها هبوط الإنسان على سطح القمر !

وعلى ما يبدو ، كانت المفاجأتان على علاقة « ما » ببعضهما البعض .. ففيما بعد حاول السادات الربط بين حلم السلام وحلم الرخاء .. و .. فيما بعد لم يتحقق أى منهما !

« فقد كان مهرجان السادات الكبير بلا قاعدة حقيقية » .. وكان الذين يشاهدونه ـ عبر الأقمار الصناعية ـ أكبر بكثير من الذين يؤيدونه .. وأكبر بكثير من الذين تفاعلوا خيراً من وراء هبوطه على كوكب الأعداء !

وبدون الدخول فى التفاصيل التى تقذف بنا خارج الموضوع كان الإخوان المسلمون من الجماعات السياسية (لا نقول الجماعات الدينية) التى رفضت « الصلح مع اليهود » ..

وقد استخدمت كلمة « اليهود » هنا ، لأن الإخوان المسلمين لا يفرقون ـ فى الحقيقة ـ لأسباب دينية « لا سياسية » بين اليهودية والصهيونية .

إن رفض الإخوان لليهود سببه دينى فى الأساس .. فهم « أعداء الله » كاذبون ، فاسدون ، منافقون ، ينقضون عهد الله ، وأشد كرها للمسلمين .. إنهم لا ينظرون (مثل القوى السياسية الأخرى) إلى فلسطين على أنها أرض عربية محتلة يجب تحريرها ، وإنما ينظرون إليها على أنها أرض مسلمة اغتصبها اليهود .

وبعد زيارة « القدس » خصصت الدعوة بابا ثابتا من أبوابها ، عن اليهود بين الأمس واليوم ، وصفتهم فيه بالغش والخداع واللف والدوران ، وتضليل الآخرين .[٢٧]

وفى أكتوبر ١٩٨٠ وزعت المجلة ملحقا خاصا ، موجها لأشبال المسلمين ، ليعرفوا اليهود .. عدوهم .. وليعرفوا لماذا لعنهم الله .[٢٨]

وفى مايو ١٩٨١ . كان غلاف المجلة صورة للمسجد الأقصى ، مكبلا بسلسلة عليها قفل مرسوم عليه نجمة داود ، وتهوى عليه يد تمسك ببلطة لتكسره .. والمعنى واضح .. جهاد المسلمين هو فقط الذى سيحرر القدس .[٢٩]

وأثناء المفاوضات الإسرائيلية ـ المصرية (عام ١٩٧٨) نشر التلمسانى مقالا افتتاحيا قال فيه :

ـــ إن إسرائيل دار حرب ، والنظام المصرى إذا كان حريصا على صفته الإسلامية فعليه أن يعلن الجهاد فوراً وإذا تقاعس عن بذل الجهد لاسترجاع أى جزء مقتطع من أرضه يكون آثما .[٣٠]

لكن ...

رغم ذلك ، رفض التلمسانى الانضمام إلى أية جبهة معارضة للسادات ، أو لسياسته الجديدة مع إسرائيل .. وكان من بين الذين عرضوا عليه ذلك حزب العمل الاشتراكى ، وقد برر التلمسانى الرفض كتابة (الدعوة ـ ديسمبر ١٩٧٨) قائلا : لقد جربنا كل الأحزاب فى مصر لمدة نصف قرن ، ذقنا خلالها المر ، وسنقف الآن وحدنا ، واعتمادنا سيكون على الله .[٣١]

على أن هذا الموقف لم يعجب تياراً داخل الإخوان ، وصف بالصقور ، لأنه بدا أكثر تشدداً .. فقام الشيخ صلاح أبو اسماعيل وسيف الإسلام البنا (ابن حسن البنا) ومحمد نصر عاشور بالانضمام إلى ما سمى بالائتلاف الوطنى (مجموعة من الشخصيات داخل البرلمان وخارجه عارضت السادات والصلح والتطبيع) وراحت هذه الشخصيات مع باقى المعارضين توقع البيانات والعرائض التى تعبر عن مواقفها .

وقد تشبث التلمسانى بموقفه .. رفض الصدام .. رفض الخروج عن شرعية النظام ..

---

(٢٧) و (٢٨) و (٢٩) و (٣٠) و (٣١) جيلس كيبل ـ مرجع سبقت الإشارة إليه .





زيارة السادات للقدس .. رحلة اللا عودة .

ولم يقبل أن تتجاوز المعارضة حدود مجلة « الدعوة » مهما كانت ضغوط الظروف ومهما كانت تجاوزات النظام نفسه .

إن التلمسانى خطط للجماعة السير داخل المسموح ، لا الممنوع ، وتعامل مع الضوء الأخضر ، وكان يقف إذا ما تغير إلى الأحمر .. لذلك تركز نشاط الإخوان الجدد على الدعاية (الكتب والمجلات والندوات وأشرطة الكاسيت) .

وعلى النشاط الاجتماعي (العيادات الطبية والدروس الخصوصية زهيدة الأجر) وعلى النشاط التنظيمى (توسيع حجم العضوية وتأهيل الأعضاء) .

وإذا كان التلمسانى قد التزم بحدود النظام العام ، فالسادات لم يلتزم بهذه الحدود ، مع أنه هو الذى حددها ورسمها بنفسه .

لم يقبل السادات ـ الذى تحدث كثيرا عن حرية التعبير ـ أن يهاجمه التلمسانى على صفحات « الدعوة » خاصة بعد رحلة القدس ، التى يمكن أن نقول إنها كانت نقطة اللاعودة بين الرجلين .

بعد بدء التطبيع ، كتب التلمسانى :

« إن تطبيع العلاقات أى جعلها طبيعية أمر خارج عن طبائع الأوضاع البشرية .. هل يتصور أحد أن اليهود يمكن أن تكون لهم علاقات طبيعية مع إنسان غير يهودى ! .. كيف يمكن لبشر أن يغير من السنة الكونية ؟ إنها محاولة خاتمها الدمار والخراب للمسلمين جميعا » إننا مسلمون والله الذى نؤمن به يقول : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾ .. إنه تقرير إلهى لا لبس فيه ولا غموض .. إن العداوة منهم وليست من جانبنا . فهل نحن أعلم باليهود وكراهيتهم للمسلمين من الله !!

ورغم أنه دعا الدول العربية إلى عدم مقاطعة السادات طالما ليست لديها سياسة بديلة عن التى طرحها ونفذها إلا أن السادات لم يقبل بالحد الأدنى الذى لم يتخطه التلمسانى .. وهو المعارضة بالرأى فقط .. فكان أن استدعاه بعد المقال الذى رفض فيه التطبيع ، وقدم من خلاله ٢٠ سببا لاعتبار التطبيع شراً محققاً .

فى اللقاء سأله السادات وهو يسحب نفسا من غليونه :

ــ لماذا تعارض معاهدة السلام ؟

قال التلمسانى :

ــ أنا أبعد الناس عن السياسة بمعناها المتداول بين الناس فى العصر الحديث ، ولكنى أعارضها دينياً لأن الإسلام يرفض أن يعترف المسلم لغير المسلم باغتصاب أرض مسلمة . ولأنه إذا ديست أرض المسلمين وجب على كل مسلم ومسلمة أن يخرجوا للجهاد ، حتى المرأة بغير إذن زوجها ، والعبد بغير رضاء سيده .

ولأن الرد لم يحمل أى هجوم على السادات ، فقد قال له كلمة واحدة :

ــ اكتب !

وقد اعتبر التيار المتشدد فى الإخوان موقف المرشد العام أقل مما يجب .

وسرعان ما اعتبره السادات أكثر مما يجب !

□□

فى عام ١٩٧٥ افتى علماء الأزهر : « أن الحاكم الذى يعقد صلحا مع إسرائيل .. كافر » .

وانتهى بيان شهير لهم بصيحة الجهاد .. الجهاد .. الجهاد .

كانت هذه الفتوى تعبيراً عن موقف رسمى للنظام بعد أخبار تسربت عن قيام حاكم عربى باتصالات سرية مع إسرائيل .

لكن ...

بعد أن وقع النظام معاهدة الصلح مع إسرائيل تغير موقف الأزهر ، وصدر بيان عن دار الإفتاء للشيخ جاد الحق على جاد الحق (المفتى) .. أكد أن « الإسلام كان ولايزال دين الأمن والأمان والسلام والسكينة والصفاء والإخاء وليس دين حرب أو شحناء أو بغضاء » .. وأكد أن الامتناع عن القتال واجب « إذا لم تكن هناك ضرورة » عملا بالآية الكريمة ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ .. الأنفال (الآية ٦١) .

وقال البيان إن الرسول « ﷺ » عقد فى المدينة معاهدة مع اليهود ، قد نسميها بأسلوبنا المعاصر « معاهدة دفاع مشترك » ثم إنه عقد معهم أيضا صلح « الحديبية » .

ولم يجد البيان فى « نصوص اتفاقية السلام » وملحقاتها ما ينأى عن أحكام القرآن والسنة .

لذلك .. فالعلماء الذين هاجموا الاتفاقية ـ كما أضاف البيان ـ قد تسرعوا فى الحكم ، وانساقوا ، أو سيقوا إلى الحكم بغير ما أنزل الله .

انتقدت « الدعوة » البيان والفتوى ، ونشرت هجوما عليهما للدكتور عبد العظيم المطعنى .

ورغم أنها نشرت رداً من مكتب الشيخ عبد الرحمن البيصار .. شيخ الأزهر ، إلا أن الحكومة اعتبرت هذا الهجوم موجها لها هى .. مباشرة .. فكان أن تعرض مجلس تحريرها لضغوط حادة .. ثم انقلبت الضغوط إلى تحذيرات وكانت التحذيرات تبدأ بتعطيل المجلة وإيقافها .. وتمتد إلى ما هو أكثر !

وكان أن تحول عمر التلمسانى إلى المدعى العام الاشتراكى للتحقيق بتهمة ابتكرها النظام .. تهمة تهديد السلام الاجتماعى . ولم يجد المحقق ما يناقش الشيخ فيه سوى تقارير الأمن التى كانت ترصد تحركاته وأنفاسه .. لذلك لم يكن مستغربا أن يسألوه عن

محاضرة القاها فى نقابة المحامين عن « الحرية والإسلام » .. ولم تكن مفاجأة أن ينتهى التحقيق إلى لا شىء .

ويبدو أن تجربة التلمسانى السابقة والأخيرة جعلته أكثر حذرا فى كل كلمة يقولها .

وقد رفض أن يوجه أى نقد يوقعه فى حرج مع النظام .

حتى أن أحد المراسلين فى لندن قال له :

« إنك تتهرب من الإجابة على أسئلة واضحة » .

رد التلمسانى :

« إن طباعى تأبى علىَّ أن أنقد حكومتى خارج مصر » .

ويعترف الشيخ أنه كان يبلغ رجال الأمن بكل اتصالاته مع الجهات الأجنبية .. ويضيف :

« ولو أن وزارة الداخلية عارضت لأوقفت الاتصالات قطعا » !

ومن أغرب المقابلات التى اشار إليها التلمسانى ، المقابلة التى تمت فى مقر مجلة « الدعوة » مع اربعة أساتذة إسرائيليين من جامعة تل أبيب .. وقد قال عنها :

« كنت يومها على سفر .. فقابلهم الأخ الفاضل مصطفى مشهور فى أدبه المعروف واتزانه وحكمته ، ودار حديث بينهم ، قال أحدهم : إننا لسنا مستائين أن تكون فى مصر معارضة لمعاهدة السلام لأننا فى إسرائيل نجد معارضين لها . فأجاب الأخ الأستاذ مصطفى مشهور : إن المعارضة قامت هنا لأن المعاهدة هضمت كل حقوق الشعب الفلسطينى ، أما المعارضة عندكم فقد قامت طلبا للمزيد من استلاب الحقوق » .

وبعد ساعات من الزيارة كان الأمن على علم بتفاصيلها من الإخوان أنفسهم .

□□

بسبب هذا الموقف الذى يوصف ـ فى أفضل الأحوال ـ بالاعتدال ، فقد الإخوان المسلمون الكثير .. وبدأت المعارضة الدينية تغلى فى مراجل أخرى لم تلامسها نيران الغضب والرفض من قبل .. وخطفت الأضواء والعدسات والميكرفونات شخصيات كان لها مـريدون بمئات الألوف .

كانت مراجل المعارضة الدينية الجديدة بعض الجمعيات الإسلامية[٣٢] التى انتشرت فى المدن الكبرى والمحافظات لنشر الدعوة وتحفيظ القرآن ، وتقديم خدمات العلاج رخيصة الأجر ، وخدمات دفن الموتى . الخ .. ولكن هذه الجمعيات تخطت هذا الدور ، واتجهت

(٣٢) مثل « الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية » و « جمعية انصار السنة المحمدية » و « جمعية شباب محمد » و « جمعية الدعوة الإسلامية » فى بنى سويف ، و « جمعية انصار السنة النبوية » فى بورسعيد وسوهاج ، و « جمعية فجر الإسلام » فى الأسكندرية ، و « جمعية الإرشاد الإسلامى » فى السويس ، و « الجمعية الإسلامية » فى أسيوط ، و « جمعية الإحياء الإسلامى » فى الفيوم ، وغيرها ، ولمزيد من التفاصيل عنها ـ انظر جريدة الأهرام ـ ٦ سبتمبر ١٩٨١ .

، السياسة ، وهاجمت النظام ، وحرضـــت على تغييره .. وفيما بعد فى سبتمبر ١٩٨١ ، ، عدد كبير منها .

أما الشـخصيات التى برزت ، فكان أغلبها من أئمة المساجد الذين اقتربوا من حدود :عامة الدينية ، ولعل أشهـرهـم كان الشيخ عبد الحميد كشك فى القاهرة ، والشيخ أحمد حلاوى فى الأسكندرية .. ويبدو أنهم أصابوا السادات بضربات موجعة ، جعلتـه تقلهم فى سبتمبر ١٩٨١ .. وجعلته يقول على أحدهم فى خطاب رسمى ، « أهو مرمى زى كلب فى السجن » .. وقد أخطأ السادات بهذا الوصف .. ودفع الثمن من شعبيته قبل أن فعه من دمه .

فى تلك الفترة أيضا برزت أنياب ومخالب الجماعات الإسلامية فى الجـامعات .. خارجها .

إن أغلب هذه الجماعات ــ التى دعمها الإخوان ــ راحت تهاجمهم .

اتهمتهم بالتساهل .. والتهاون .. وأحيانا وصفتهم بالانتهازية !

لقد رفضت أغلب هذه الجماعات أن ينكسر الجناح العسكرى للإخوان .. وأن يسعوا ، الحكم وتطبيق الشريعة بالوسائل السلمية المشروعة .. فكان أن اتهموهم بأنهم « جيل يقم بواجباته تجاه الجهاد » .. وبأنهم « جيل لم يكن مخلصا فى هدفه نحو إقامة الدولة إسلامية » .

ولأن الشيخ التلمسانى كان يستجيب لمطالب النظام ويسعى لتهدئة الغضب الذى فى صدور الشبان ، فقد كان له نصيب الأسد فى هذه الاتهامات .

ووصل الأمر إلى حد الاعتداء عليه من بعض أعضاء تلك الجماعات فى أسيوط .. تدخلت قوات الأمن لإنقاذه وتخليصه منهم .

إنه مفترق الطرق !

افترق النظام والإخوان .

افترق النظام والجماعات .

وافترق الإخوان والجماعات .

وسبحان مغير الأحوال .

لقد بدا واضحا أن الخلاف بين الإخوان والجماعات وصل إلى السطح .. وعلى السطح صل إلى الصدام .. وفى الصدام تكون الغلبة للأكثر ميلا إلى العنف .

ولا نبتعد كثيراً عن الحقيقة إذا قلنا إن هذا الصراع كان صراع أجيال داخل التيارات سلفية . جيل كبار هدته السنون وأصقلته التجربة ، وفرضت عليه الحكمة ، والبدء لواقع ، والانطلاق منه إلى المطلق ، وجيل شاب لم تختبره السنون ، تجربته هى فقط راءاته ، وحماسه باعده عن الحكمة ، فبدأ بالمطلق ليصل منه إلى الواقع .

وامام هجوم الجماعات المتتالى ، وجد الإخوان أنفسهم فى موقف الدفاع .
وكان دفاعهم لا يخلو من المنطق :[٣٣]

١ - إن طريق الإخوان بعيد كل البعد عن المظاهرات والعنف والتآمر بهدف الوصول إلى الحكم .. طريق الإخوان هو طريق العمل المستمر لنشر الدعوة الإسلامية بواسطة تعريف الشعب بأصولها .. وخاصة الشباب .

٢ - إن أفكار أولئك الشبان تتعارض - من ناحية المبدأ - مع الإسلام ، لأنّ الدولة الإسلامية فقط ، وليس أفرادا بها ، هى التى تملك اتهام الكفر !!

٣ - من الناحية العملية فإن تبنى هذه الفكرة بواسطة الدعاة المسلمين ، يعزلهم ، ويجعل أغلب المسلمين يتنكرون لهم .. إن مهمة الإخوان هى الدعوة للإسلام ، وليست تكفير المسلمين . نحن دعاة ، لا قضاة .

٤ - كل رجل مخلص ، شريف ، يعرف أننا والنظام الحاكم فى هذا البلد على طرفى نقيض فيما يختص بالبرامج والأوضاع .. وسنظل كذلك إلى أن يأتى اليوم الذى تطبق فيه أحكام الله وأوامره .. والحركة عندنا ليست - كما يفهم البعض - إحراق وسائل المواصلات ، وتحطيم المحلات ، ونهب المنشآت - إننا لا نقبل ذلك .. والله لا يرضى عن المخربين .. فما يتم نهبه وتدميره ليس ملكا لرئيس الدولة أو الحكومة ، ولكن ملك للشعب ولكل واحد منا .

٥ - إذا كان المقصود بـ « الحركة » - التى نتهم بالتقاعس عنها - التآمر لقلب نظام الحكم ، فليكن معلوما أن هذا عمل من يسعى إلى السلطة من أجل السلطة .

٦ - إن حركتنا تقوم فى إطار الرسالة الإسلامية .. إننا ننشد الحقيقة وندعو الناس للتجمع حولها ، لنقول لهم ما حلل الله وما حرم عليهم .

٧ - ونحذر الناس من العلمانية المتنكرة فى ثياب إسلامية من أجل عزل الشباب المسلم عن دينه بمقولات مسمومة بقدر ما هى معسولة . وفى تعليمنا الشباب نعتمد على كتاب الله وسنة رسوله .

٨ - بالنسبة لنا لا نختلف على شخص الحاكم ولكننا نختلف على نوع الحكم وشرعيته .

٩ - لا مجال فى البحث حول الإطاحة بالنظام ، فالأهم أن نقدم لهذا النظام ما يحسن منه تدريجيا .

١٠ - إننا جزء من المعارضة الشرعية التى تعد من صلب النظام .

١١ - إننا سنمارس قدرا كافيا من الضغوط على النظام للوصول إلى تحول سلمى فى اتجاه « الدولة الإسلامية » التى تقام على أسس الشريعة .[٣٤]

□□

---

(٣٣) مستوحاة ومستخلصة من كتابات عمر التلمسانى فى « الدعوة » .

(٣٤) اعتبر البعض هذا الدفاع نوعا من الرد غير المباشر على افكار سيد قطب ، حول التكفير=

إن الثمن الذى دفعه الإخوان أيام « الحرس القديم » والنظام الخاص ، جعلهم
ستوعبون الدرس (لانقول الدروس) وجعلهم يرفضون العنف ، ويسعون إلى الشرعية
تى يرسم حدودها النظام ، بحثا عن مكان تحت « سقف » القانون .

هم هنا أشبه بالأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية ، التى لم تعد تعتقد فى الثورات ،
سعى إلى الحكم بواسطة صناديق الاقتراع ، وهو ما يسمى بالشيوعية الديمقراطية .

هذا التفسير يبرر قبول الإخوان – بعد اغتيال السادات – بفكرة « الحزبية » التى كانوا
كدون من قبل أنها ليست من الإسلام فى شىء .. لقد دخلوا مجلس الشعب كمستقلين ،
كنواب متحالفين مع حزب « الوفد » ثم مع حزب « الأحرار » ثم مع حزب « العمل » .

من خلال مجلس الشعب ، جدد الإخوان مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية وإحلالها
ل القوانين الوضعية . وقد ارتفع صوتهم بهذا المطلب عام ١٩٧٧ ، وتصوروا أن رئيس
جلس د . صوفى أبو طالب (حاصل على الدكتوراة فى القانون من باريس) معهم ، عندما
ر اكثر من مرة ، إن مصر ستطبق الشريعة الإسلامية فى يوم قريب .. إلا أنهم سرعان
اكتشفوا أن ما يقوله جزء من مناورة أكبر يقوم بها رئيس الدولة ، بأسلوب
برجماتى » يستخدم فيها أسلوب اللعب على كل الحبال المشدودة ، حتى يستنفد
راضه .(٣٥)

فالسادات – الذى تحدث كثيرا عن الشريعة – أعلن فى مارس ١٩٧٩ كلمته المشهورة :
لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة » .

وفى الشهر التالى أصدر قراره بحل مجلس الشعب ، رغم أن ٩٥٪ من أعضائه وافقوا
معاهدة « كامب ديفيد » وقالوا « نعم » للصلح مع « إسرائيل » .

ثم ...
كان أن تقطعت الحبال بين النظام والإخوان .

جاهلية ، والإطاحة بالنظام القائم على أساس انه نظام غير إسلامى – انظر كتابنا عن سيد قطب – دار
نا .

٣) فى شهادته امام محكمة تنظيم الجهاد ، قال الشيخ صلاح ابو اسماعيل : إن الياس غلبه من عدم
ى محاولات تطبيق الشريعة ، إلا انه فوجىء بعد رفض بيجين مقابلة السادات على جبل موسى (١٨
مبر ١٩٧٨) برئيس مجلس الشعب يقترح على المجلس – لتغطية الفضيحة – ان يوافق على تكوين
ة عامة لتقنين الشريعة الإسلامية ، ورغم انه قد عرف سر هذا الاقتراح المفاجىء إلا انه رحب به ..
سة وقد فشلت محاولات الوصول لقوانين الشريعة عن طريق وزارة العدل .. إن هذا المثال دليل على
ماتية السادات ، وعدم تردده فى اللعب باية ورقة مهما كان الثمن .

ولم يمض وقت طويل حتى كان الشيخ عمر التلمسانى ـ مع باقى رموز المجتمع المصرى ـ فى السجون والمعتقلات .

كان ذلك فى سبتمبر ١٩٨١ .

وفى أكتوبر التالى مباشرة احترق السادات بالنار التى لعب بها .

قتل بعد الإفتاء بأنه كافر !

| ٤ |

الهزيمة ترفع يدها الى السماء !

□ هزيمة يونيو والإرهاصات الأولى □ هيكل : النظام الذى يفقد ارضه يفقد شرعيته □ الحالة النفسية للجنود المصريين بعد الحرب مباشرة □ ارتفاع استهلاك المهدئات والمنشطات □ جرائم العنف تزداد ايضاً □ اهتزاز صورة الحاكم □ الشباب يبحث عن قوة سرية جبارة □ الفن الهابط مخدر ساذج □ عبد الناصر والعلاقة بين الفكر والمسدس □ ذروة الغيبيات : حادث كنيسة الزيتون □ نص الحوار بين عبد الناصر والشيخ عاشور □

انتهت محاكمة صالح سرية فى صمت ..

.... وبهدوء نفذ فيه حكم الإعدام .

كانت نهاية صالح سرية بداية لمسلسل مثير ، بلغ ذروته « الدرامية » يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ .. يوم اغتيال رئيس الجمهورية « محمد » أنور السادات .

وقد نفذ عملية الاغتيال ـ كما يعرف أصغر صبى فى هذا الجيل ـ جماعة من العسكريين الشبان ، تسلحوا بالبنادق الآلية ، والقنابل ، وبفتوى من تنظيم « الجهاد » تبيح دم « الرئيس » ولا جدال أن حادث الاغتيال أنهى حياة السادات .. وأنهى مرحلة أساسية من مراحل تنظيم « الجهاد » أيضا .

والذين يعرفون هذه « النهايات » جيدا .. قد لا يعرفون أصولها .. وجذورها .. وبدايتها بنفس الدرجة .. وإذا كان علينا أن نقفز إلى الوراء .. ونهبط من الفروع إلى الجذور .. ونفتش عن أول الأسباب ، فلا مفر من العودة إلى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ .

إن عدداً من المؤرخين والباحثين والمفكرين لا بأس به ، لا يجدون ـ وهم يرصدون حركة الجماعات الدينية ـ بداية مقنعة ينطلقون منها أفضل من هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .. فالدكتور سعد الدين إبراهيم يؤكد : أنه على غير ما يعتقد علماء الاجتماع فى الغرب[1] .. « بدأت إرهاصات ما يسمونه بصحوة الإسلام المعاصرة قبل الثورة الإيرانية بعدة سنوات . وبالتحديد ظهرت تلك الإرهاصات فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، كانت فى البداية كتلة من التعبيرات الهلامية غير محددة المعالم ، وغير مكتملة القسمات ، واختلطت فيها الغيبيات بالتصوف ، بالعزوف والانسحاب ، وتداخلت فيها النزعات الفورية الجديدة بالخرافات ببذور الاحتجاج السياسي الصامت » .

ويقول الباحث نبيل عبد الفتاح أيضا . إن هزيمة ١٩٦٧ كانت « بداية تفاعل هذا العامل الجديد » .. فقد كشفت الحرب عن « زيف الشعارات السياسية التى قدمت فى

---

(١) د . سعد الدين إبراهيم ـ مقدمة بحث غير منشور عن جماعات العنف الإسلامية .

مرحلة الستينيات » والتى اتسمت بعدم « الأصالة » .. وكشفت « الهزيمة إخفاق البورجوازية فى حل مشكلة التنمية » كما أنها عجزت عن إيجاد « تبرير عقلانى للهزيمة » وأدى ذلك « إلى بروز ظاهرة الإحياء الدينى » .[٢]

إن الهزيمة كانت صدمة عنيفة ، ومفاجئة لجيل ما قبل الثورة .. جيل « الغرس » الذى غرس بذور التغيير فى تربة الوطنية المصرية .. ولجيل ما بعد الثورة . جيل « الثمار » الذى فتح عينيه ليجد نفسه على « موعد مع القدر » !!

لقد انتفخت « الذات » المصرية ، وتضخمت فى سنوات ما قبل الهزيمة بدعاية هائلة .. كاسحة .. راحت تتحدث عن أقوى « قوة » ضاربة فى الشرق الأوسط .. وراحت تتحدث عن النظام الذى يعمل له « الكبار » فى العالم « ألف حساب » .. وراحت تتحدث عن العدو الصهيونى الذى سيقضى عليه بضربة « حذاء » فى ثوان .. فى غمضة عين .. فى « نزهة » قتالية من باب التمرينات البدنية .. وراحت تتحدث عن متاعبنا الداخلية التى انتهت فى « بستان » الاشتراكية ، وجعلتنا نملك الوفير من الوقت والجهد والخبرة والموهبة لكى نفكر للآخرين .. ونرسم لهم الطريق .. وكما يقول الكاتب الماركسى المعارض « صلاح عيسى » : « غطت الرطانة كل شىء »[٣] .

ثم .... كانت الهزيمة !

جاءت كالزلزال .. يأتى فى ثوان ويدمر الكثير .. كالسيل .. ينقض على كل شىء ويغرق الجميع .

جاءت لتلقى بنا من سابع سماء إلى سابع أرض .. من قمة الزهو إلى قاعِ الإحباط .. من « جنة » عبد الناصر إلى « جحيم » موشى ديان !

كان ما حدث أكبر من أن يتجاوزه أحد .. أكبر من أن يفسره أو يبرره أحد . حتى أن محمد حسنين هيكل نفسه كان واقعيا عندما أرجع أصول وجذور الشعور بالإحباط قبل نهاية حكم السادات إلى هزيمة يونيو .. وقال :[٤] « إن عبد الناصر قد حقق كثيراً من المنجزات فى زمانه ، ولكنه أيضا فى نفس الوقت خلق آمالا لم يكن فى استطاعته تحقيقها . إن الجيل الذى شب فى عصره وجد الملكية تسقط والجمهورية تقوم ، ورأى قناة السويس تؤمم .. مع هزيمة ساحقة تلحق بامبراطوريتين كبيرتين (بريطانيا وفرنسا) فشلتا فى منعه من تحقيق هدفه فى تأميم قناة السويس .. ثم إن هذا الجيل رأى مصر زعيمة معترفا بها فى بناء عالم عربى جديد » .. و « بدأ هذا الجيل يظن أن أكبر الأهداف تقع فى متناول يده ، وفى نطاق قدرته ، ثم جاءت كارثة حرب سنة ١٩٦٧ » .. و « ليس هناك مجال للإنكار

---

(٢) نبيل عبد الفتاح ـ المصحف والسيف ـ مكتبة مدبولى ـ ص ٣٩ ـ ٤٠

(٣) صلاح عيسى ـ مثقفون وعسكر ـ مكتبة مدبولى ـ ١٩٨٦

(٤) هيكل ـ خريف الغضب ـ الطبعة السابعة ـ ص ٢٦٥

أن عبد الناصر سنة ١٩٦٧ فشل فى تحقيق الهدف الأساسى لأى نظام ، وهو قدرته على حماية حدود وطنه . وبهذا الفشل فإن شرعية نظام عبد الناصر اهتزت على نحو واضح بنفس المقدار الذى اهتزت به شرعية نظام السادات بعد حوادث يناير ١٩٧٧ »[٥] .

ومع خريف ١٩٦٧ الذى جاء ـ ذلك العام ـ فى شهر يونيو .. فى عز الصيف . بدأ المصريون يسخرون من أنفسهم .. من جيشهم .. من قياداتهم . من الحلم الذى كان واليأس الذى أصبح والمرارة التى انفجرت وحطت كطائر الموت بلا مقدمات ، وراحت تفرش أجنحتها بطول البلاد وعرضها .. وراح المصريون يطلقون النكات اللاذعة . المؤلمة .. الجارحة .. وكان « شر البلية ما يضحك » وكان أن طلب عبد الناصر من الشعب أن يكف عن النكتة[٦] .. أن يكف عن ضرب قواته المسلحة فى الظهر .. مع أن الشعب المصرى كان يبكى بعين ويضحك بالعين الأخرى .. يبكى ويضحك على نفسه فى وقت واحد ..

كان على النظام أن يهزم مرتين فى شهر واحد .. مرة باحتلال سيناء .. ومرة عندما راح الشعب يغنى من الغيظ : « قولوا لعين الشمس ماتحماشى أحسن الجيش المصرى راجع ماشى » .[٧]

إن احدى الدراسات النفسية التى أجريت على عينة من الجنود المصريين الذين حاربوا فى يونيو ١٩٦٧[٨] تشير إلى أن متوسط أعمارهم كان ٢٦ سنة (انخفض المتوسط فى حرب ١٩٧٣ إلى ٢٥ سنة) وكان ٥٤٪ منهم أعزب و ٤٦٪ منهم متزوجا (فى سنة ١٩٧٣ كانت النسب على التوالى ٥٩٪ و ٣٩٪ تقريبا) .. وكان ١٨٪ منهم أميا و ١١٪ يحمل شهادة جامعية (فى سنة ١٩٧٣ تغيرت النسب إلى ١٦٪ و ٣٦٪ تقريبا) وبسبب ما حدث لم تكن لدى ٨٥٪ منهم أية رغبة فى العودة إلى وحدته .. وخاصة أن ٣٦٪ منهم اعترف بأنه مشى أكثر من أسبوعين قبل أن يعود إلى وحدته .

وتبين أن نسبة المصابين من الجنود الذين تحولوا إلى العلاج النفسى كانت ١٤,٨٪ ..

---

(٥) هناك فارق زمنى ـ عادة ـ بين اهتزاز شرعية النظام ونهايته الفعلية .. فشرعية نظام الملك فاروق اهتزت فى حريق القاهرة ثم كانت نهايته الفعلية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وشرعية نظام عبد الناصر اهتزت فى ٥ يونيو بينما كانت النهاية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. وشرعية نظام السادات اهتزت فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ونهايته كانت فى اكتوبر ١٩٨١ .. ولعل الفرق بين الاهتزاز والنهاية اقرب للفرق بين الموت الاكلينيكى والموت الفعلى .

(٦) خطاب عبد الناصر فى مجلس الامة عقب الهزيمة مباشرة .

(٧) اصل الاغنية : « قولوا لعين الشمس ما تحماشى احسن حبيب القلب راجع ماشى » .

(٨) د . عمر شاهين ـ « بعض مؤشرات للتغيرات النفسية والاجتماعية فى المجتمع المصرى بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ » ملحق مجلة الصحة النفسية ـ ١٩٧٥ .. وكانت إحدى دراسات الندوة الدولية لحرب اكتوبر .

وكانت أمراضهم بالترتيب : هيستريا عضوية .. هيستريا عضوية مع قلق .. قلق مع اكتئاب .. هيستريا نفسية .. قلق نفسي .. اكتئاب .. وهوس .. وعكست هذه الأمراض النفسية نفسها فى صورة أعراض لأمراض عضوية مثل الإنهاك والجفاف .

لم تتوقف الأمراض النفسية عند حدود الثكنات العسكرية بل تجاوزتها إلى البشر فى الحياة المدنية .. وكان أسرع الناس إصابة بها هم الأدباء والشعراء والكتاب . إنهم بحكم طبيعتهم الحساسة ، وبحكم مسئوليتهم عما حدث وبحكم اقترابهم من كواليس السلطة ومصادر الأخبار والمعلومات سقطوا قبل غيرهم فى بئر الاكتئاب المزمن .. لقد عرفوا الحقيقة أسرع ، فكانت صدمتهم أكبر .. وسقط كاتب مبدع مثل يوسف إدريس من شدة الحزن الذى وصل إلى حد المرض .. ولحق به فنان وشاعر مثل صلاح جاهين تغنى ـ شعرا ولحنا ـ بكل ما سبق .. وسافر الاثنان للعلاج فى الخارج .[9] واستسلم البعض الآخر لما هو أكثر من الحزن والاكتئاب[10] وكان منهم من هام على وجهه فى شوارع القاهرة ، حاملا معه مصباحا صغيرا لعله يلقى بقليل من الضوء على الظلام الذى غرقنا فيه .

ومثل رفاق الحسين (رضى الله عنه) راح المصريون يجلدون أنفسهم ، ويطرزون بأيديهم كفنا جماعيا .. « ومع عمق الإحباط انتشر الإحساس بالحزن والألم واتهام الذات واتهام الآخرين ، وانتشر الإحساس باليأس من المستقبل ، والانطواء على الذات » .. وهكذا .. « أوشك المجتمع المصرى أن يصبح جزراً آدمية تعيش فى وطن واحد وقلوبها شتى »[11] وكان أن راح أقدم مجتمعات الأرض حضارة يفقد أشهر خصاله واحدة بعد الأخرى .. انكمش الإحساس بالآخرين و « أصبحت الذاتية هى القاعدة » .. احترقت الجسور بين الفرد والمجتمع ، وابتعد القادرون ـ بالهجرة ـ عن السفينة الغارقة .. اهتزت صورة الحاكم وفقدت الجماهير الثقة فى قيادتها .. اختفت روح المرح وعمت الكآبة الجماعية .. سيطر الشعور بالنقص وبدت الفرصة مناسبة للغرق فى بحار اللذة .. احترق الضمير الجماعي والفردى وانطلقت الرغبات والأهواء بلا حدود .. جنس .. شذوذ .. رشوة .. فساد .. استغلال نفوذ .. ولا مبالاة .. مع جرائم العنف الفردى فى مواجهة الآخرين .. وفى مواجهة السلطة أيضا ..

وانقلبت الآية .. وتغيرت صورة العدو .. كان فأراً فأصبح أسداً .. كان ضعيفا فأصبح « سوبر مان » .. أصبح العدو « يوصف بكل ميزة وينزه عن كل ضعف وأصبحت المقارنات التى تعقد بينه وبيننا تنتهى دائما فى صالحه »[12] .. فى العلم ، والخبرة ، والجرأة ... وحتى فى التدين والارتباط بالله .

---

(٩) و (١٠) صلاح عيسى ـ المرجع السابق .

(١١) و (١٢) د . عمر شاهين ـ المرجع السابق .

وارتفع عدد ضحايا الأمراض النفسية والعقلية والعصبية من ٥٠ ألفا (١٩٦٦) إلى ٦٦ ألفا (١٩٦٧) إلى ٧٩ ألفا (١٩٦٨) إلى ٩٤ ألفـا (١٩٦٩) إلى ١٤٠ ألفا (١٩٧٠) . بزيادة ٣٢٪ و ٥٨٪ و ٨٨٪ و ١٨٠٪ على التوالى بالقياس إلى عام ما قبل الهزيمة .[١٣]

وزاد إلى حد الهوس معدل استهلاك المهدئات والمنبهات والمنشطات الجنسية وأقراص النوفالجين والأسبرين .. لقد فرض الإحساس العام بالعجز إحساساً خاصاً بالفشل النفسى ، والجنسى أحياناً .. فكان الغيظ .. ثم الصداع .. ثم الانفجار .. ثم كان العنف .

بعد أقل من عام على الهزيمة ، نضجت بذور العنف ، وخرقت ساقها وجذورها القشرة البنية التى تغلفها .. وراحت الجذور تتشعب وتمتد وتخترق طبقات الأرض .. وفى نفس الوقت كانت الساق تتفرع والفروع تحمل الثمرات .. والثمرات تنفجر كالقنابل فى كل مكان .. ولا تزال .

بين عامى ٦٧ ـ ١٩٦٨ زادت جرائم القتل من ١١٧٤ إلى ١٥٤٥ جناية بزيادة ٣١٪ .. وزادت جرائم الضرب الذى أدى إلى موت من ٣٠٩ إلى ٣٨٦ جناية بزيادة ٢٥٪ تقريبا .. وقفزت السرقات المصحوبة بعنف من ١١١ إلى ٢١٣ حالة بزيادة ٩١٪ .. وقفزت حرائق العمد من ٦٧ إلى ٨١ حريقا بزيادة ٢٠٪ وسجلت جريمة الاغتصاب وهتك العرض ارتفاعا من ١٥٢ إلى ١٧٠ جريمة بزيادة ١٢٪ .. وسجلت جريمة تزوير الأوراق المالية ارتفاعا من ١٠ إلى ١٩ جريمة بزيادة ٩٠٪ .. وارتفعت حالات إتلاف المزروعات من ١٠ إلى ٢٠ حالة بزيادة ١٠٠٪ وارتفعت حالات تزييف المسكوكات من ٣ إلى ٧ حالة بزيادة ١٢٣٪ وكانت جرائم تعطيل المواصلات ١٨ جريمة أصبحت ٢٠ جريمة بزيادة ١١٪ تقريبا .[١٤]

ولا تحتاج الأرقام إلى تعليق .

مابها من جنون وانفلات وعنف وتهور يكفى .. ويزيد عن أى تعليق ..

أكثر من ذلك تصرخ الأرقام بحقائق أخرى بدت أميل إلى الشذوذ .. فحوالى ٣٠٪ من الذين ارتكبوا هذه الجرائم من الشباب فى سن السعى إلى مستقبل أفضل .. بين ٢٠ ـ ٣٠ سنة .. كان أغلبهم من الذكور وثلاثة أرباعهم لهم زوجة وطفل أو أكثر .. وفى هذه المرحلة من العمر سجلت معدلات الانتحار أعلى معدل . حوالى ٤٣٪ من حالات الانتحار فى تلك الأيام .. وكان ملفتا للنظر تزايد الانتحار باستخدام الأسلحة النارية وأصبح الرصاص أولى وسائل انتحار الذكور .. وكان مثيرا للذهول إقبال العمال والفلاحين وموظفى الحكومة على الانتحار .[١٥]

على أن أخطر ما نتج عن الهزيمة كان اهتزاز صورة الحاكم فى مصر !

---

(١٣) صلاح عيسى ـ المرجع السابق .

(١٤) و (١٥) د . عمر شاهين ـ المرجع السابق .

إن الإعجاب إلى حد التقديس ، الذى كان من نصيب « زعيم » مثل جمال عبد الناصر ، تعش بعد الهزيمة .. أصبح مثل مصباح « النيون » قبل أن يخفت تماما .. وجعلت هزيمة المصريين أكثر استفـزازاً فى مواجهـة السلطة .. وأكثـر تحفزاً لتصرفـاتها راراتها .. وأقل تصديقا لحسن نواياها .. لقد أعطوا للحاكم كل شىء .. الحلم .. حرية . المستقبل . التأييد .. الهتاف .. الحب .. وأيدوه .. وناصروه .. ورفعوه على أعناق .. ثم إذا بكل ذلك ينتهى إلى الظلام .. ظلام التهم ـ مثل الديناصور ـ كل ساحات وأشكال الضوء .. وكان من الصعب عليهم أن يكرروا التجربة ، ويمنحوا ثقتهم ن جديد له .. أو لغيره .

ولا نملك أية دراسات أو أرقام (ولا غيرنا يملك) عن اهتزاز الصورة .. ولا نثق فى أية عليلات أو مذكرات أو اعترافات كتبت بعد تغير الحكم .. فهى ـ مع عظيم الاحترام ـ إما اخر ببطولة مؤجلة .. أو .. نوع من العلاج النفسى الذاتى . وليس أمامنا إلا أن نلجأ إلى شعر ، لعل وعسى يمنحنا الانفعال ، إذا ما عجز عن تقديم الدليل .

ولا أحمل الأمور أكثر مما تحتمل عندما أقول إن قصيدة الشاعر أحمد عبد المعطى جازى التى نزفها بعد الهزيمة (سميت نكسة) تحت عنوان « مرثية للعمر الجميل » انت صياغة حزينة ، موحية لاهتزاز صورة عبد الناصر بعد يونيو ١٩٦٧ .. لقد سبق أن تب فى يوليو ١٩٥٦ قصيدة بعنوان « جمال عبد الناصر » ، قال فيها :

« فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا .
« أمر تحت قوس نصر .
« مع الجماهير التى تعانق السنى
« تشد شعر الشمس ، تلمس السماء .
« كأنها أسراب طير .
« تفتحت أمامها نوافذ الضياء .
....
« فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا .
« أشاهد الزعيم يجمع العرب .
« ويهتف الحرية .. العدالة .. السلام .
« فتلمع الدموع فى مقاطع الكلام .
....
« يا شعراء ، يا مؤرخى الزمان .
« فلتكتبوا عن شاعر كان هنا .

« فى عهد عبد الناصر العظيم .[١٦]

وفى مرثية للعمر الجميل انشرخت الصورة :[١٧]

« هذه آخر الأرض !

« لم يبق إلا الفراق .

« سأسوى هنا لك قبرا ،

« وأجعل شاهده مزقة من لوائك .

« ثم أقول سلاما .

....

« إننى قد تبعتك من أول الحلم .

« من أول اليأس حتى نهايته .

« ووفيت الذماما .

....

« ورأيتك تسقط دون جراح

« كما يسقط النجم دون احتراق !

....

« من ترى يحمل الآن عبء الهزيمة فينا

« المغنى الذى طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه

« أم هو الملك المُدَّعى إن حلمَ المغنى تجسد فيه .

....

إننى أحلم الآن .

لم تأت .

بل جاء جيش الفرنجة .

فاحتملونا إلى البحر نبكى على الملك .

لا ، لست أبكى على المُلك .

لكن على عمر ضائع لم يكن غير وهم جميل !

فوداعا يا أميرى هنا !

وإذا كان الروائى فتحى غانم قد كتب « الأفيال » قبل اغتيال السادات بشهور ، فإنه يقترب بأبطالها كثيراً من الهزيمة ، التى هى عنده أيضا سبب مباشر وأصيل للعنف وللتطرف الدينى .. فبطل الرواية ، الفتى الصغير ، حسن يوسف منصور ، فتى طيب

---

(١٦) ديوان « مدينة بلا قلب » ـ الاعمال الكاملة ـ دار العودة ـ بيروت ـ ص ١٧٧

(١٧) ديوان « مرثية للعمر الجميل » ـ الاعمال الكاملة ـ ص ٥٤٦

ب ، يحلم بالصدق ، يفتش عن الحنان ، كل ما حوله مهزوز .. الأسرة طردته من
تها .. المدرسة فرضت عليه قوانينها .. والمجتمع كله انهزم .. فقد الأب ، والأم ،
خ ، والمعلم ، والنموذج ، والمجتمع ، وهرب من الجميع لينضم إلى إحدى الجماعات
سلامية ..دُفع للهرب من كل ما حوله ، وفُرض عليه النزول تحت الأرض .. « الشبان فى
سنه ينجذبون إلى العمل السرى من كل طبقة ومن كل لون .. العمل السرى يرضى
ورهم بالمغامرة وأحلام البطولة والمخاطرة ، والغريزة المنطلقة للمراهق تريد تحطيم كل
ء ، ولكن فى الوقت نفسه وجدت بخبرتى أن الشباب من هؤلاء متعطش للطاعة العمياء ،
ث بأسنانه وأظافره وبكل طاقات روحه عن قوة يحترمها إلى درجة التقديس ويستسلم
ويعيش فى كنفها .. ماذا يبقى للولد الذى يفقد احترامه لمدرسته وناظره ومدرسيه ،
قد احترامه للكبار .. يجلس بينهم فيجدهم يتشاتمون .. ولا يخرج حديثهم عن نطاق
رقات والرشاوى ، يتهمون بها أصدقاءهم بمجرد أن يولوا ظهورهم » .. « الولد الذى
رض لهذا التغير من حوله ، يتمرد على كل شىء ، وينطلق إلى تدمير كل شىء ، حتى ولو
فى بتدميره فى خياله ، ولكنه يفقد توازنه ويحاصره الضياع ، ويتمنى فى قرارة نفسه أن
تعيد أمنه ، واستقراره ، والشعور بالحماية الذى يفتقده .. وهنا يتقدم للعمل السرى
بته ، والهالة الباطشة التى تحيط به ، السرية والغموض ، والاشتراك فى عمل مع
رين مجهولين ، والانصياع الكامل لأوامر وتعليمات قيادة عليا مجهولة تصدر قرارات
سة لابد من احترامها ولا تهاون مع من يخالف الأوامر .. إنه يفقد حياته .. بطش
هاب ، نعم .. ولكنه وضوح واستقرار ، أبيض وأسود ، لا لف ولا دوران ، وهذا
يستهوى الشبان » .

إن الكل سقط أمام الشاب الصغير . أو أسقطوا أنفسهم أمامه .. الكل أعلن فى صراحة
ناهية عجزه وعدم قدرته على التعامل الإنسانى .. فكان لابد أن يهرب .. من هزيمة فى
يت إلى هزيمة فى المجتمع .. من هزيمة صغرى إلى هزيمة كبرى .. « هزيمة ساحقة ..
رثة يونيو ١٩٦٧ » .. « سقطت هيبة الكبار .. ضاعت الآمال .. القوة الرهيبة المنتصرة
ولت إلى رماد فى دقائق .. سقط الناس فى كابوس ، واستيقظوا من كابوس . هذا ما قاله
ولاد لأنفسهم .. أفقنا من خدعة أذلتنا وأهانتنا . وانطلقوا وراء قوى سرية تصدر لهم
رارات وتطالبهم بالطاعة العمياء .. وانصاعوا لها ليتخلصوا من ذل الطاعة العلنية لمن
وهم إلى الهزيمة ، اتجهوا إلى الجمعيات السرية بحثا عن سلطة جديدة أو طمعا فى
رتباط بسلطة لم تنهزم أو وصولا لسلطة تعوض المهانة العلنية بأعمال سرية فيها بطش
نتقام واستعلاء .. أعمال تتم بتدبير فى الخفاء .. شبان من كل لون ، طبائع مختلفة ،
يط من المثالى والمتعصب والأحمق والأبله والفاشى والخائن والدساس ، فقراء وأغنياء ،
هلة وأميون ومتعلمون ، جاءوا يضعون إرادتهم تحت تصرف قوة سرية مجهولة ،

لا يعرفون عن أشخاص قيادتها شيئاً محدداً .. ولكنهم يثقون فى بطش هـذه القوة وجبروتها ، يستمدون منها الإحساس بالقوة والقدرة على البطش الذى يسترد للنفس المقهورة عزتها وكرامتها »[١٨] .

ورغم فداحة ما حدث .. رغم الجروح النفسية والاجتماعية والجنائية ، لم يتعامل النظام بواقعية مع الكارثة .. أصبحت الهزيمة نكسة .. واتجهت كل طاقات النظام ومواهبه إلى إزالة آثار العدوان . إلى إزالة آثار الهزيمة العسكرية فقط .. وكأن الهزيمة كانت عسكرية فقط .. حتى هذه الإزالة « الميرى » .. أو « الكاكى » كان الشعب بعيداً عنها .. إن المشاركة فيها كانت نوعا من العلاج .. لكنه لم يقدم للناس .. وكل ما قدم لهم كان لا يزيد على مسكنات فنية ساذجة وبلهاء ، ضاعفت من السخرية ومن الجراح أيضا .. فكان المسلسل الإذاعى الشهير (الذى أصبح فيلما) .. « شنبو فى المصيدة » . وعلى غراره كان مسلسل آخر هو « أنت اللى قتلت بابايا » .. ثم .. راح الانهيار يتدفق .. واختفت الأفلام السياسية والتاريخية وسيطرت أفلام لا يمكن القطع بنوعيتها .. اجتماعية .. عاطفية .. أم كوميدية ؟ .. لكن .. يمكن القطع بهبوط مستواها .. بنفس درجة الانحطاط التى نزلت إليها الأغنية التى من عينة « العتبة جزاز والسلم نايلو فى نايلو » .. و « الطشت قاللى » .. لقد أفلس شعراء الأغانى ولم يجدوا أمامهم سوى الفلكلور الشعبى القديم ، وأغانى « العوالم » فأعادوا تقديمها على أنغام وألحان براقة ، دون أن ينسوا الإيحاءات الجنسية .

ولا نعرف من الذى أقنع النظام بأن نداء « طشت » لامرأة كى تستحم إذا ما تحول إلى أغنية يمكن أن يرضى الناس وينسيهم .. إن ما حدث كان على العكس تماماً .. إذ راح الشبان يشدون لكلمات وألحان الثنائى الشهير نجم ـ إمام[١٩] .. وراحوا ينسخون أشعارهما ويتداولونها سراً ، وراحوا فى أوقات الصدام مع السلطة يحولونها إلى شعارات .

« يعيش أهل بلدى
« وبينهم مافيش
« تعارف
« يخلى التحالف يعيش .[٢٠]

....

« واه ياعبد الودود

---

(١٨) فتحى غانم ـ الافيال ـ مؤسسة روز اليوسف ـ ١٩٨١ .
(١٩) المقصود الشاعر احمد فؤاد نجم والملحن الشيخ إمام .
(٢٠) احمد فؤاد نجم ـ قصيدة التحالف ـ الأعمال الكاملة ـ دار طلاس ـ ص ٥٩٠

« يا رابض ع الحدود
« ومحافظ ع النظام
« كيفك ياواد صحيح
« عسى الله تكون مليح[٢١]

....

« الميدان بعيد
« عن جوف المدينة
« ياتار الشهيد
« دير ياسين
« وسينا .[٢٢]

وهكذا غنت الحكومة « العتبة جزاز » وغنى الشبان « ياتار الشهيد » .

ومن الإنصاف أن نذكر أن النظام فقد توازنه .. ثم .. كان أن راح يحاول تسكين الجراح بأى مسكن تصل إليه يداه دون وعى بآثاره الجانبية الخطيرة .. تماما مثل الذى يحقن مصاباً بالحروق بالمورفين ، فإذا ماشفى من الحروق بقى مدمنا للمورفين .. وقد امتلأت الصحف ومقاهى المثقفين وتجمعات المتخصصين بتحذيرات لا نهاية لها من آثار الفن الهابط ، وخطورة الإغراق فى سينما الجنس .. لكنها .. ظلت فى إطار الكلام المجرد .. الساكن .. المستهلك للغضب وللضيق .

ومن الإنصاف أن نذكر أن النظام ، سمح للمثقفين بحرية أكبر فى النقد والتعبير والتلقى .. بدت حرية النقد أكبر فى الصحف التى تحدثت لأول مرة عن الأزمات الاقتصادية ، وظاهرة الطوابير على السلع الغذائية ، ومطبات الشوارع ، واختناقات المواصلات العامة .. الخ .. وبدت حرية التعبير أكبر فى المسرحيات السياسية التى قدمت على مسارح الدولة ، والأفلام الأجنبية التى وافقت عليها الرقابة .. الخ .. لكن .. ذلك على ما يبدو كان موجها – فى بلد نسبة الأمية فيه ٨٥٪ – إلى المثقفين فقط .. أما عامة الشعب فكانت فلسفة « شنبو فى المصيدة » هى الفلسفة التى اقتنع بها النظام وهو يتعامل مع السواد الأعظم .

وخوفا من أن لا يجدى مسكن الفن الهابط فى التخفيف من آلام الهزيمة وصدمتها ، وجد النظام نفسه يفقد جزءاً من عقلانيته ، ويمد يده إلى المؤسسة الدينية ، ليستعير منها بعض الأقنعة المناسبة .. وانضمت الأجهزة الدينية إلى باقى أجهزة التعبئة والدعاية السياسية .. وترادفت على لسان جمال عبد الناصر فى خطبه واجتماعاته كلمات تعطى

---

(٢١) نجم – قصيدة رسالة – الأعمال الكاملة – ص ٦١٣ .
(٢٢) نجم – قصيدة الجدع جدع – الأعمال الكاملة – ص ٦٥٥

للدين اهتماما مضاعفا .. كلمات تفسر الهزيمة على أنها قضاء وقدر ، واختبار من الله ، وتؤكد أن تخطيها سيكون بالجهاد فى سبيل الله ، أو الجهاد الأصغر ، وبالصبر وضبط النفس ، أو الجهاد الأكبر .(٢٣)

إن الدين كان عند عبد الناصر شكلا متميزاً ، له دور كبير فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، « إلا أنه مع ذلك ظل محتفظا بموقف عقلانى أقرب إلى رؤية الفريق الذى انتمى إلى مدرسة الإمام محمد عبده الإصلاحية »(٢٤) والدين عنده «لا يشكل أيدلوجية سياسية » ، كما هو الحال عند الإخوان المسلمين ، وإنما « الفكر الدينى يصلح لأن يكون منطلقا لأيدلوجية سياسية » ، ومن ثم آمن بإمكانية تحول « الفكر الدينى إلى حركة سياسية منظمة » ووافق « على وجود وظيفة سياسية للفكر الدينى يقوم هو بتوجيهها دعما لسياسته العامة ، وبما يساعد على تحقيق التعبئة السياسية » .(٢٥) وبما يدعم « تأصيل شرعيته لدى الجماهير » .(٢٦)

وقد أدى ذلك إلى « استخدام الدين فى تحقيق التغير الاجتماعى وإلى تحكيم قبضة النظام على رجال الدين » . وإخضاع المؤسسة الدينية ـ وفى مقدمتها المساجد لإشراف السلطة التنفيذية « وزارة الأوقاف » .. التى كانت تعين الوعاظ ، وتحدد لهم موضوعات الخطب التى يلقونها على المنابر .(٢٧)

ويرى البعض أن هذه الرؤية كانت غير أصيلة ، وإن ارتباطها بالتحديث الظاهرى للنص الإسلامى ، أثر على مصداقيتها .. ومع تصدع النظام ـ لأسباب داخلية وخارجية فى يونيو ١٩٦٧ ـ اندثرت هذه الرؤية ، وبدأ التشكيك فى المؤسسة الدينية ، وأصبحت الرؤية السلفية المتعصبة للدين شديدة الجاذبية للأجيال الشابة .(٢٨)

ويرى البعض الآخر أن انفجار الحركة السلفية بعد الهزيمة ، يرجع إلى عجز ثورة يوليو الشديد عن حل مسألة الديمقراطية .. فبسبب تراجع الديمقراطية « ظلت المسألة الدينية من المحرمات التى لا يجوز الخوض فيها ، ولو لمصلحة الدين أو لمصلحة الشعب » .(٢٩) بالإضافة إلى استخدام الدين كسلاح تكتيكى لمهاجمة الشيوعية ، دون الأخذ فى الحسبان أن هذا السلاح يمكن أن يرتد إلى النظام ، « حين يتحول أصحابه من الدين إلى السياسة »(٣٠) كما حدث بعد ذلك .

وقد سمح عبد الناصر بكل الأفكار الدينية حتى المتطرف منها ، فلم يمانع فى نشر كتاب « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب ، ونشرت إحدى مؤسسات الدولة كتاب « معالم فى

---

(٢٣) رفعت سيد احمد ـ الدين والدولة والثورة ـ طبعة كتاب الهلال .

(٢٤) و (٢٥) و (٢٦) و (٢٧) و (٢٨) انظر نبيل عبد الفتاح ـ المصحف والسيف .

(٢٩) و (٣٠) و (٣١) و (٣٢) غالى شكرى (مع اخرين) المسالة الطائفية فى مصر ـ دار الطليعة ـ بيروت .

الطريق » لسيد قطب .. ولم تكن المواجهة لتتم إلا إذا تحولت الأفكار إلى تنظيمات ، والكتب إلى مسدسات .. « دون إدراك للعلاقة الحتمية بين الكتاب والمسدس » .[٣١] إلا عند التعامل مع اليساريين .

إن الدين فى ظل التجربة الناصرية كان « أحد أوراق لعبة التوازن بين اليمين واليسار ، وكان من الطبيعى أن تكون الخاتمة لليمين ، فاللعب على أرضية الدين يربح فيه الأكثر تطرفا » .[٣٢]

فى ١٠ مارس ١٩٦٨ ، ذهب عبد الناصر إلى الجبهة يتفقد أحوال حرب الاستنزاف ، وعندما التقى بالجنود البسطاء قال لهم :

ـــ « مفيش حد مننا حيموت ناقص عمر ، وكل مخلوق له أجل محدد وكلنا مؤمنين بالله »[٣٣]

وأضـــاف :

ـــ « لابد أن يتعمق هذا الإيمان فى قلب الجنود ، وعاوز كل عسكرى يكون مؤمن بالدين وبالمبادىء والقيم » .

وفى اليوم التالى خاطب رجال القوات المسلحة مؤكداً أن الواجب الملقى عليهم « واجب صعب ، ولكنه مش مستحيل ، وبالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس وبالتدريب وبالجهد وبالعلم نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر »[٣٤]

وبعد شهر تقريبا ، أكد أن الجندى عليه رسالة ثورية ورسالة نحوربه « وعلينا أن نبث فيه روح الإيمان ، لأنه بدون إيمان وبدون عقيدة الواحد حيحارب ليه ؟ الواحد حيموت ليه ؟ الواحد بيموت لأنه مؤمن بشىء » .. « واحنا طبعا نؤمن بالله » ![٣٥]

وامتد استخدام الدين إلى التنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكى العربى) وراحت نشرته الداخلية « الاشتراكى » ، تتحدث بإفراط ومبالغة عن الانتصارات الحربية فى تاريخ الأمة الإسلامية ، مؤكدة « أن العاقبة للصابرين » ، مطالبة « بضرورة الإيمان وعدم الشك فى القيادة أو مخالفتها » .[٣٦]

واستقبلت الطرق الصوفية أعداداً هائلة من الشبان الذين انضموا إليها ، ووجدوا أنفسهم فى ذكر الله ، وقراءة الأوردة ، والهروب مما حولهم .. أو على الأقل التعالى عليه .. وقد لوحظ أن أولئك الشبان من المتعلمين تعليما عاليا .. أطباء .. مهندسين .. ضباط .. علماء فى الذرة .. ولوحظ أيضا أن الدولة باركت هذه الخطوة وشجعتها .. ولم تمر سنوات قليلة على الهزيمة إلا وكانت الطرق الصوفية تضم أعداداً من الشبان .. بالملايين !

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد .. وخرجت بعض القوى السياسية المنتسبة لليمين

---

(٣٣) و (٣٤) و (٣٥) رفعت سيد احمد ـ المرجع السابق .

(٣٦) رفعت سيد احمد ـ المرجع السابق .

(لا نقول المنتسبة للرجعية ولقوى الثورة المضادة حسب تعبيرات تلك الأيام) وهى تفسر ما حدث تفسيراً لم يخلُ من الانبساط (لا نقول شماتة) .. وراحت ترقص على الأطلال ، وهى تفسر الهزيمة تفسيرا كان بينه وبين المنطق والعقل والواقع مسافة من عدم الفهم ليست قصيرة .. فالهزيمة عندها لم تقع بسبب صراعات السلطة ، وفساد الجيش أو بالتحديد فساد قيادته ، وانعدام الخبرة ، وضعف التدريب والتخطيط .. الخ الأسباب التى كشفت فيما بعد ، وإنما وقعت الهزيمة لأننا نسينا الله .. ولأننا فقدنا اتصالنا بالسماء .. ولأننا تركنا طريق الإسلام ومشينا فى طريق الشيطان .. الخ هذه المقولات التى لا تزال تتردد حتى الآن وفى مناسبات مختلفة .. وبدا هذا التفسير مناسبا للجميع .. بدا مريحا للنظام ، وللناس أيضا ، إنه تفسير دينى ـ أخلاقى تقليدى .. العقاب بعد الخطيئة .. أو العقاب للخروج من الضلال إلى اليقين .. إنه العقاب القديم قدم الحياة على الأرض ، والذى بدأ باقتراب آدم وحواء من الشجرة المحرمة ، فأحسا بعورتها .. وطردا من الجنة .. وهبطا على الأرض .

فى المقابل .. بدا الاجتياح الإسرائيلى ـ خلف هذا الغبار الكثيف ـ لا علاقة له بأى عنصر عملى ، أو فعلى ، أو حقيقى من عناصر الحرب والقتال والانتصار .. فاليهود كسبوا الحرب لأنهم أكثر تدينا منا .. ولأنهم يعيشون تحت سقف دولة تمشى على تعاليم الرب .. ولأنهم حاربوا حربا رفعوا فيها « التوراة » على مواسير البنادق والمدافع .

وقبل أقل من عام .. وفى ٥ مايو ١٩٦٨ .. وصلت هذه الميلودراما إلى ذروتها بقصة ظهور « العذراء » فى كنيسة « فقيرة » بالزيتون .. لقد أعلن البابا كيرلس السادس أن ظهور العذراء حقيقة .. أعلن ذلك فى مؤتمر صحفى كبير ، حشدت له وسائل الإعلام كل إمكانياتها ومواهبها .. وراحت بوعى شديد تغرق الناس فى لا وعى شديد .. فى هوس دينى مقصود ومتعمد .. مشيرة إلى أن ظهور العذراء يعنى أن الله « سيكون فى نصرتنا وأن السماء لم تتخل عنا » .(٣٧)

فى هذا المؤتمر قرر البابا كيرلس أن يسدد ضربة تحسب له هدفا يسجل باسمه ، فقال :

« لقد قلنا إن القديسين والشهداء يظهرون للمؤمنين فى وقت الشدة لمساندتهم وشد أزرهم ، ولذلك جاءت العذراء لشد أزر الشعب المصرى المؤمن المبارك بنص الكتاب المقدس ، فى الشدة أو الأزمة التى يمر بها الآن وتبصيره بأن الله لم ينس وعده لهم بأنهم شعب مبارك لديه .. ودعوة أبناء مصر إلى التمسك بإيمانهم وعقائدهم فى هذا الوقت بالذات الذى تنتشر فيه دعوات الإلحاد وأصوات الكفر وصرخات الابتعاد عن الله وعن الإيمان ..

---

(٣٧) جريدة الأهرام ـ ٥ مايو ١٩٦٨

ونحن لا ننسى حتى الآن ذلك الإنسان الذى أرسل إلى الفضاء وعاد ليقول إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده » .(٣٨)

وأمام الزحام الخانق بسبب تدفق الملايين إلى الشوارع المحيطة بالكنيسة ، نزلت أجهزة الدولة بكل ثقلها للإشراف والاستغلال والتنظيم .. الأمن .. السياحة .. والاتحاد الاشتراكى .. وقد أشارت جريدة « وطنى » إلى « اهتمام رجال المباحث والاتحاد الاشتراكى العربى بصيانة المعجزة من أى تلفيق أو كذب أو اختلاق ».(٣٩)

وفيما بعد .. تحولت كنيسة « الزيتون » الفقيرة إلى كنيسة شهيرة ، كبرى ، وثرية ، تملك القدرة على التوسع ، ولها سيارات وميزانية ضخمة .

وفيما بعد أيضا ، فى عام ١٩٨٦ ، سرت شائعة مشابهة عن ظهور السيدة العذراء فى كنيسة فقيرة أخرى .. لكن الشائعة لم تستمر ولم تستثمر هذه المرة !

ومن المذهل أن تنزل الدولة بكل ثقلها لإقناع الناس بظهور العذراء بعد أقل من شهر على بيان ٣٠ مارس الذى أصبح وثيقة من وثائق الثورة ، ودعا إلى قيام الدولة العصرية .. دولة المؤسسات وسيادة القانون .. دولة العلم والتكنولوجيا .. دون التفريط فى الاشتراكية العلمية كمنهج للتغيير الاجتماعى ، مع اختيار الديمقراطية كأسلوب للحكم .. إن بيان ٣٠ مارس(٤٠) فى مجمله كان اتجاها فكريا واضحا نحو « العصر والعلمنة والنهضة فى مواجهة الدعوة الثيوقراطية النامية تحت السطح سواء فى أجهزة الدولة أو بين طبقات المجتمع أو فى سراديب الثقافة » .(٤١) .. لكن .. هذا الاتجاه الواضح على الورق لم يترجم إلى قرارات .. كما أنه كان متناقضا مع ما يحدث فى الواقع .

ويبدو أن هذا التناقض قد دفع الطلبة للتظاهر من جديد(٤٢) فى نوفمبر ١٩٦٨ .. وكان أن عقدت دورة طارئة للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى .. وفى جلسات الحوار بين جمال عبد الناصر والأعضاء ، برز اسم الشيخ عاشور محمد نصر - إمام مسجد أبو العباس بالأسكندرية - وكان ما قاله وما رد به عليه جمال عبد الناصر يحمل الكثير من المؤشرات والدلالات .

قال الشيخ عاشور :(٤٣)

« عشية افتتاح هذا المؤتمر قال الرئيس بأن حرية المناقشة مكفولة فى هذا المؤتمر ،

---

(٣٨) الأهرام - المصدر السابق .

(٣٩) جريدة وطنى - ٥ مايو ١٩٦٨ .

(٤٠) انظر بيان ٣٠ مارس - وثائق ثورة يوليو - اللجنة العربية لتخليد القائد جمال عبد الناصر .

(٤١) غالى شكرى - المرجع السابق .

(٤٢) وقعت المظاهرات الأولى فى فبراير ١٩٦٨ ، وسنؤجل الحديث عنها إلى الفصل القادم .

(٤٣) جريدة الأهرام - ١٩٦٨/١١/٤ - ص ٥

وهذا ما شجعنى على طلب الكلمة معقبا على السيد وزير التربية والتعليم[٤٤] الذى قال فى خطابه بأن القيم الدينية جاءت فى القانون الجديد للتربية والتعليم ،ثم تحدث بعد ذلك كثير من الأعضاء نسبوا إلى الطلاب فراغا فكريا ، أو سياسيا ، وأنا أقول إن هناك فراغا دينيا ، ليست مسئوليته على الطلاب وحدهم ، وإنما مسئوليته عليكم جميعا ، ليست القوانين وحدها التى تنشر الدعوة .. ولكن التطبيق هو الأساس .. لقد تأخرت الأمة الإسلامية يوم أصبحت دولة كلام ..

« حتى فى التطبيق الاشتراكى لا نجد فقط إلا الذين يتكلمون عن الاشتراكية ، لقد حضرت إحدى المحاضرات عن الاشتراكية .. ييجى المحاضر راكب عربية مرسيدس ثمنها ٧ آلاف جنيه ، وبعدين لابس خاتم يساوى له ألفين جنيه وبعدين يطلع ..

وقاطعه الأعضاء ... لكنه أصر على الاستمرار :

« وبعدين يطلع من المحاضرة ياخد الشلة معاه ، يروح المطعم يتعشوا ، يدفع سبعة ، ثمانية جنيهات ، وهو فى المحاضرة لسه بيقول اربطوا الحجر على بطنكم للجوع .. جوع .. جوع إيه الله يخرب .... أنت خليت فيها جوع .. وانت ما بتجوعش ليه .. هو الجوع ده مكتوب على أنا .. هى الاشتراكية عليه وعليك لا .. ..

« المهم .. اليوم نرى القيم الدينية قوانين فقط .. نريد أن نراها فعالة .. مطبقة » .

.. وقاطعه الأعضاء ... وبشدة هذه المرة ..

واستمر الشيخ عاشور يتحدث من موضوع إلى آخر ، حتى أشار إلى دخول السيدات مسجد « أبو العباس » بالمينى جيب .. وكان أن أطلق تشبيها جعل الأعضاء يضجون منه ، وطالبوه بالنزول .

وتدخل جمال عبد الناصر للرد :

« الشيخ عاشور برضه أفادنا فى أنه رفه عننا شوية فى وسط هذا الاجتماع .

« وفى الحقيقة أنا أعتبر أن بلدنا من أكثر البلاد تمسكا بالدين .. هذا باعتراف كل الناس . فى الحقيقة أيضا الثورة عملت من أجل الدين . وأنا أقول برضه للشيخ عاشور وأمثاله إن ده شغلهم اللى بياخدوا عليه ماهيه واللى بياخدوا عليه فلوس واللى مفروض إنهم يدعوا ويبشروا من أجله ، ولكن بالأسلوب السليم مش بالأسلوب القبيح اللى اتقال النهاردة .

« أما الكلام عن المينى جوب ، الكلام ده فى الحقيقة غير مقبول . أنا أعتقد إن العملية الأساسية لأن الكلام ده إذا اتقال فى المسجد ، فى مسجد أبو العباس والناس ضحكت زى احنا ما ضحكنا النهاردة تبقى العملية عملية هزلية وليست عملية جدية .

« والحقيقة هناك وسيلة للوعظ ، وهناك وسيلة للإرشاد ، وفى أول الثورة جاءنى من

---

(٤٤) كان د . حلمى مراد أمين حزب العمل المعارض فيما بعد .

طالب بحاجات كثيراً جداً ، وقال من لم يزع بالقرآن يزع بالسلطان ، واعمل كذا ، واعمل كذا واعمل كذا ، كان ده مش ممكن لأن أنا إذا كنت حاعمل هذا الكلام كنت سأضيق على كل الحريات اللى فعلا اتعودنا عليها فى هذا البلد ، ولا يمكن الحقيقة إن احنا نرجع فيها .

« العالم كله بيتطور الحقيقة مثلا هو بيتكلم عن المينى جيب أنا لو طلعت قانون يمنع المينى جيب معنى ده إيه . معناه إن البوليس له الحق أن يتعرض لكل ست فى الشارع سواء كانت لابسة مينى جيب أو مش لابسة مينى جيب . وهذا ـ الحقيقة ـ شعور يؤذى كل واحد فينا . مين اللى عليه إنه يعمل هذا القانون . كل عيلة عليها إنها تعمل هذا القانون ، كل رب عيلة عليه إنه يعمل هذا القانون ، وإلا تحت قانون بهذا الشكل نستطيع فى الحقيقة إن احنا نقوم بأعمال تمس أعراضنا وتمس عائلاتنا .

« الحقيقة بالنسبة للجامعات مثلا يطلعوا قرار إن ماحدش يدخل الجامعة بالمينى جيب وإن البنت اللى تيجى فى الجامعات بالمينى جيب أو بشىء من هذا القبيل تفصل ، وبهذا نستطيع إن احنا نحدد أمورنا .

« الخلاصة ـ الحقيقة ـ فى هذا الموضوع بالنسبة للإذاعة هناك مواد كثيرة خاصة بالدين ، بالنسبة للتليفزيون أيضا هناك مواد كثيرة خاصة بالدين ، وبالنسبة للإذاعة أيضا هناك محطة مخصصة لإذاعة القرآن الكريم والتفاسير . وبعدين بالنسبة ـ الحقيقة ـ للدين إحنا اتعلمنا الدين على أساس .. ومين اللى علمنا الدين . اتعلمناه من أهلنا ، الواحد اتعلمه من عيلته واتعلم إن الدين ده حلال وده حرام وتوارثنا هذا أبا عن جد ، ما بيقاش الحقيقة إن احنا كل واحد مسلم بالبطاقة ، أبداً ، تعلمنا واتعلمنا وحفظنا القرآن وده الكلام اللى بيؤكده القانون الجديد للتعليم ، الحقيقة على أن يكون تعليم الدين بالنسبة للديانات المختلفة مادة أساسية لأن الدين هو الوازع .

« وأيضا أحب أنهى كلمتى بأن أقول إن رجال الدين والوعاظ والمشايخ عليهم فى هذا مسئولية كبيرة ، إنهم يوعظوا مش بس فى المسجد اللى هم فيه ، فى الحى .. يختلطوا بالحى وأولياء الأمور والآباء والعائلات هى المسئولة وبعدين المجتمع منذ قام حتى اليوم فيه الصالح وفيه الفاسد ، وقصة هابيل وقابيل .. هناك الفاسد وهناك الصالح ويجب علينا جميعا أن نعمل على أن نقوم الفاسد وعلى أن ندعم الصالح والحمد لله نحن بخير فى بلدنا ونعمل جميعا كأسرة واحدة ، فى هذه الأمة ، وهذا الوطن على تدعيم الدين ، لأن الدين هو الذى يهدى إلى القيم السليمة ، والقيم الحقيقية . وأشكر الشيخ عاشور على أنه فتح لنا هذا الموضوع لنتكلم فيه اليوم » .(٤٥)

وفى اليوم التالى ، كان هذا الحوار حديث الناس فى أربعة أنحاء البلاد .. وحصل الشيخ

---

(٤٥) الاهرام ٦٨/١٢/٤ ـ ص ٥

عاشور على وسام الشجاعة والجراة ، لانه قام ، ولأنه قال[٤٦] ولم يقرأ أحد ما بين السطور .. ولم يتوقف أحد بالتحليل ولم يرصد ما فيه من رموز ومعان .

إن أبرز هذه الرموز أن ما جاء فى بيان ٣٠ مارس كان حبرا على ورق .. إسفنجة لامتصاص غضب المثقفين وإقناعهم بالبقاء فى أماكنهم وعدم الخروج عن الصف والطابور .. فى نفس الوقت مغازلة السواد الأعظم بالنزعة إلى الدين للإبقاء على الجماهير حيث وضعت .. أى أن النظام كان يتكلم بأكثر من لغة .. لغة للمثقفين .. ولغة للعامة . ولم يكن بين اللغتين من يقوم بالترجمة .

أما أوضح هذه المعانى ، فهى المزايدة على الدين .. واعتباره افضل مرهم للشعب المحترق بمعجون نابالم الهزيمة .. دون حساب أن المرهم يمكن أن يكون مسكنا لا علاجا .. وأن الحروق يمكن أن تتقيح وتؤدى إلى مضاعفات خطيرة كالتى حدثت فيما بعد .. ولا تزال .

إن البحث عن « شماعة » تعلق عليها الأخطاء التى أدت إلى الهزيمة ، خلق بؤرة من الفوضى والارتباك والتمزق النفسى للشباب ـ الذى يمكن أن يوصف بجيل « الهزيمة » .. وصدق هذا الجيل أن سبب الهزيمة الابتعاد عن الدين ، فسعى للاقتراب من الدين ، وعندما أحس أن هذه المقولة نوع من الاستغلال غير المحسوب للدين ، انقلب على الذين كذبوا عليه .. ومع غيظ مكتوم فى الصدور ، ورغبة متزايدة فى العنف والانفجار ، كان من السهل أن يكون الانقلاب مسلحا بالغضب ، وفقدان الثقة ، والتطرف ، وعدم التفاهم ، والرصاص ، والقنابل ، وزجاجات المولوتوف ، والأمنيات الغالية بأن يهدم المعبد على رءوس الجميع !

---

(٤٦) لاشك ان الشيخ عاشور قد تحول إلى بطل بعد هذا اللقاء ، حتى ان احمد فؤاد نجم كتب قصيدة باسمه ، قال فيها : سلام مربع للشيخ عاشور . قلب الأسد . سلام ياواد . على دا واد . لو دستة منه . ماكانش كان . كل اللى كان . ولا كان دا حالك . يابلد . مدد ياشيخ عاشور .. مدد . وقد كان هذا الموقف كفيلا بنجاحه فى دخول مجلس الشعب ايام السادات ـ قصيدة نجم كتبت ١٩٦٨ ـ انظر ص ٦٩٢ ـ الاعمال الكاملة .

| ٥ |

من فبراير الى نوفمبر !

□ دور الطلبة في الحياة السياسية □ احكام الطيران □ مظاهرات العمال في حلوان □ احداث الجامعة □ عبد الناصر يلغي الأحكام □ النظام يستجيب لنصف مطالب الطلبة □ الكبار يحاكمون الصغار في مجلس الأمة □ بيان ٣٠ مارس □ انفجار في المنصورة ودوى في الاسكندرية □ دورة طارئة لبحث موضوع « الطلبة والجامعات » □ العميل الإسرائيلي الذى ظهر فجاة □ عنف الشباب وعنف السلطة □ قليل من المكياج □

فى اليوم الأخير من فبراير ١٩٦٨ .. رأيت هذا المشهد بأم رأسى ..

كان ميدان « التحرير » يفيض بآلاف من الطلبة والعمال الذين تظاهروا احتجاجا على الأحكام الهزيلة فى قضية تقصير سلاح « الطيران » .. وقد لفهم طوق محكم من جنود الشرطة الذين يتحركون على ظهور الخيل .. وفجأة .. انطلق هتاف « ما » من الجماهير الغاضبة .. رج أركان الميدان .. وأصاب بعض الجياد بالفزع والتوتر .. فكان أن انطلق واحد منها فى سرعة هيستيرية ، ليلف حول المتظاهرين فى جنون ، بعد أن أسقط قائده .. وراح المتظاهرون يتابعونه وهم يشعرون - فى قرارة أنفسهم - أن المشهد يحمل الكثير من الرمز !

وكان أن ساد الصمت .. لثوانٍ .. ثم .. انطلقت الهتافات من جديد .. « الموت للخونة » ... « تسقط المحاكمات السرية » .. « لا اشتراكية بدون حرية » .. « وديتوا فين فلوسنا واليهود بتدوسنا » .. « ياشعراوى ياحزين فين الطلبة المعتقلين » !

إن هذه المظاهرات - التى انفجرت فى ذلك الشتاء الساخن - كانت الأولى من نوعها منذ مارس ١٩٥٤ .. كانت بمثابة أول اعتراض واضح يأتى من الشارع .. أول سلوك ديمقراطى حقيقى يأتى من الناس .

لقد كان الطلبة قبل الثورة وحتى أزمة مارس ١٩٥٤ يلعبون - فى الجامعة والمدارس الثانوية - دوراً لا يستهان به فى الحركة الوطنية .. وكانوا جزءاً من التنظيمات السياسية المعروفة فى ذلك الوقت .. الإخوان .. الوفد والأحزاب الشيوعية . وقد تأثرت مواقفهم من الثورة بمواقف تنظيماتهم الأم منها .. وعندما ألغت الثورة الأحزاب فى يناير ١٩٥٣ تكونت جبهة من الشيوعيين والإخوان فى الجامعة ، ضد الطلبة الذين انتموا إلى هيئة التحرير التى تشكلت بعد حل الأحزاب . وأدى ذلك إلى صدام شهير بين الطرفين فى ١٢ يناير ١٩٥٤ . فى احتفال أقيم بذكرى شهداء القناة ، انتهى - بعد يومين - إلى قرار مجلس الثورة بحل جماعة الإخوان .. وبعد شهور قليلة .. بالتحديد فى ٢٧ مارس ١٩٥٤ ، عقد طلبة جامعة القاهرة مؤتمراً وطنيا فى الحرم الجامعى ، أعلنوا فيه تأليف « جبهة الاتحاد

الوطنى » التى تضم الطلبة الوفديين و الاشتراكيين والإخوان المسلمين والشيوعيين ، ثم اتخذوا قرارات بإلغاء الأحكام العرفية فوراً ، والإفراج عن جميع المعتقلين فوراً ، وتأليف وزارة ائتلافية « لإجراء الانتخابات ، وإلغاء مجلس قيادة الثورة فوراً دون أى انتظار .[١]

ثم .. كانت المظاهرات التى أوصلت الأزمة بين الثورة والمثقفين إلى الذروة ، والتى انتهت بفوز الثورة .. وانحسار القوى الأخرى .. وكان أن تخلصت الثورة من الطلبة وأعضاء هيئة التدريس فى الجامعة ، الذين اختلفوا معها ..و « ضاق نطاق الحرية المتاح للاتحادات الطلابية التى صار أعضاؤها يعينون » أغلب الأحيان فى تلك الفترة التى امتدت من أبريل ١٩٥٤ إلى يونيو ١٩٦٧ .. وكان النشاط السياسي محظوراً داخل أماكن الدراسة ، ولم يستأنف إلا فى الستينيات ، ولكنه كان مقصورا على أعضاء الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب .[٢]

لم تختف ـ خلال تلك الفترة ـ التيارات السياسية الأخرى ، وإن بقى نشاطها تحت الأرض .. أو بعيداً عن السطح .. من تحت إلى تحت .. ففى أحداث ١٩٦٥ التى كان الإخوان المسلمون أبطالها ، اتهم عدد من طلبة الجامعة بدخول تنظيمهم الجديد الذى كان على رأسه سيد قطب ، وكان أغلبهم من الطلبة المتفوقين علميا ، وقد استثمروا هذا التفوق فى صنع القنابل الحارقة تعويضا عن الأسلحة والقنابل المعروفة التى صعب عليهم الحصول عليها .[٣] ..وفى ربيع ١٩٦٦ « اتهم عدد آخر من الطلبة أعضاء منظمة الشباب بالانتماء إلى تنظيم مادى له صلة بحركة القوميين العرب التى صارت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فيما بعد ، وقد اقتصرت حركات الاحتجاج المحدودة التى نظمت فى ذلك الوقت على المطالبة بإلغاء مشروع معين للمساواة بين خريجى المعاهد الفنية وخريجى كليات الهندسة والتجارة ، واتخذت صورة إضراب عن الدراسة فى هندسة القاهرة » .[٤]

وفى جنازة مصطفى النحاس (باشا) ثبت أيضا أن الوفديين لا يزال لهم بعض الوجود ، داخل وخارج الجامعة ، وفيما بعد .. فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى ، تحدث أحد زعماء الطلبة أمام جمال عبد الناصر ، مؤكدا له أن قيادة وفدية قديمة ، طلبت منه التحرك فى وقت ما ، وتحت شعارات مخالفة للتى يرفعها النظام .[٥]

وخلال تلك الفترة كان الحرس الجامعى يسيطر على الجامعات المختلفة ، وكانت النظرة الشهيرة للاتحادات الطلابية لا تتجاوز الأنشطة الرياضية والرحلات ، وكانت هذه النظرة

---

(١) عبد العظيم رمضان ـ عبد الناصر وازمة مارس سنة ١٩٥٤ ـ روز اليوسف ـ ص ١٩٦ .
(٢) د . مصطفى كامل السعيد ـ المجتمع والسياسة فى مصر ـ دار المستقبل العربى ـ ص ٢٦
(٣) القضية رقم ١٢/١٩٦٥ امن دولة عليا والقضية رقم ٤٨٤/١٩٦٥ حصر .
(٤) د . مصطفى كامل السعيد ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧
(٥) جريدة الأهرام ـ ١٨/٩/١٩٦٨ .

تعنى أن الاتحادات الطلابية كانت أقل قيمة من وحدات الاتحاد الاشتراكى ، ومنظمة الشباب ، التى استأثرت بالعمل السياسى فى الجامعات .

لكن ...

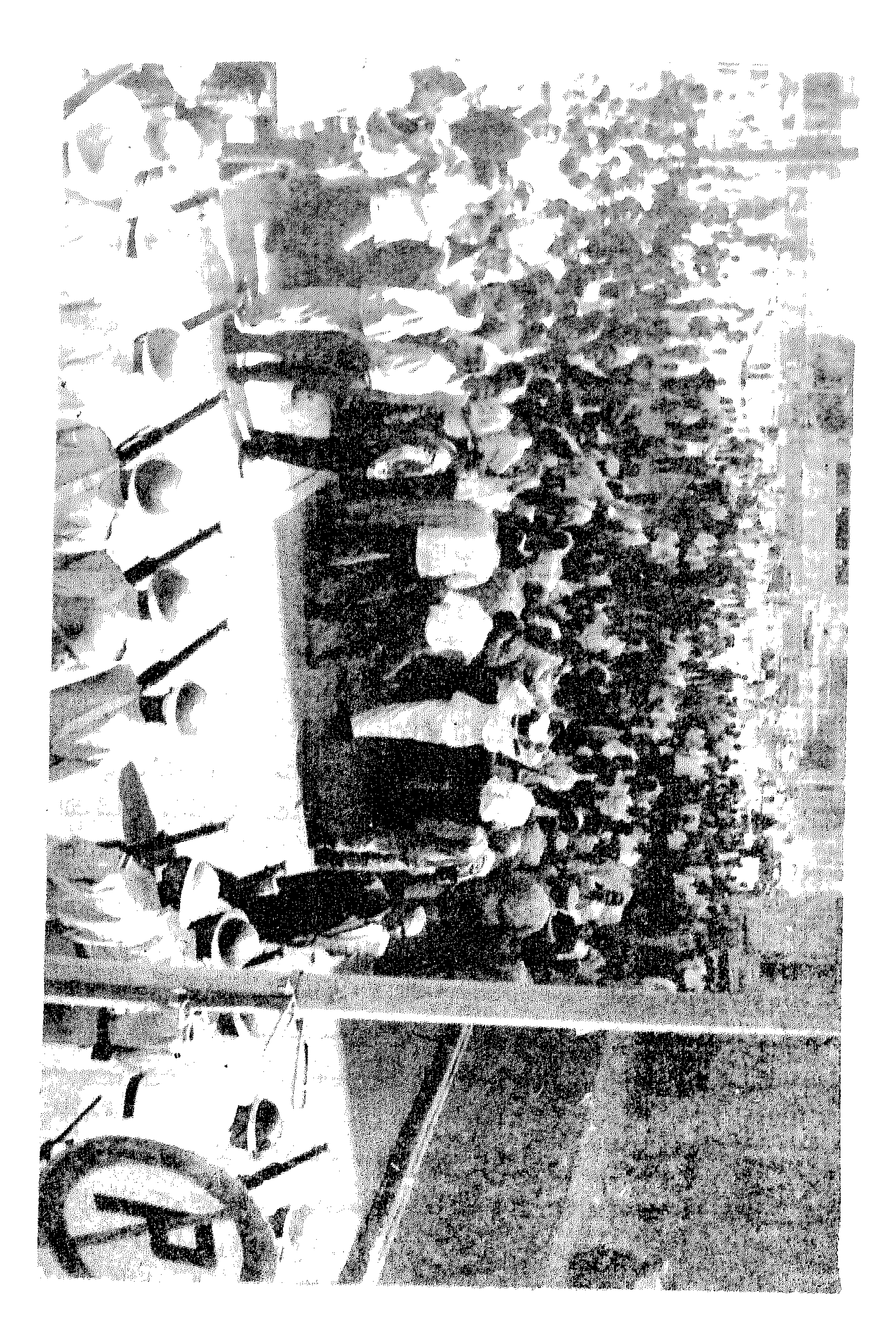
ذلك كله تغير بعد مظاهرات فبراير ١٩٦٨ !

إن السبب الحقيقى لهذه المظاهرات كان ضغط البخار المتراكم فى الصدور بعد الغليان الذى أحدثته الهزيمة .. وقد أحس النظام بهذا الضغط الذى اقترب - منذ الأيام الأولى للهزيمة - من درجة الانفجار ، فكان أن سمح بنشر تفاصيل جلسات محكمة الثورة التى حاكمت المسئولين عن مؤامرة قلب نظام الحكم ، بعد وفاة الرجل الأول فى المؤامرة المشير عبد الحكيم عامر .. وقد تابع الناس بذهول - من خلال الصحف اليومية - أسرار ما كان يجرى فى الكواليس من فساد وعفن ، خاصة فى قيادة الجيش ، قبل ساعة صفر ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وقد ضاعف هذا الذهول - على عكس ما كان مخططا - من ضغط الغيظ فى صدور المصريين .. وقبل أن تنتهى هذه المحاكمات أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها فى قضايا التقصير والإهمال التى اتهم فيها بعض الضباط الكبار والصغار ، والتى عرفت واشتهرت باسم « أحكام الطيران » .. كان ذلك يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير ١٩٦٨ .. حيث حكم على الفريق أول متقاعد محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية السابق بالسجن ١٥ سنة ، وحكم على اللواء متقاعد اسماعيل لبيب الذى كان رئيسا لشعبة الدفاع الجوى بالسجن ١٠ سنوات ، وحكم بالبراءة للفريق أول متقاعد جمال عفيفى رئيس أركان القوات الجوية سابقا ، وللواء متقاعد عبد الحميد الدغيدى قائد الطيران السابق فى المنطقة الشرقية .. ونطق بالأحكام الفريق صلاح الدين الحديدى رئيس المحكمة العسكرية العليا .

فى نفس اليوم أصدرت المحكمة أحكامها فى ٨ قضايا أخرى فى جرائم عسكرية ارتكبت فى ميدان العمليات . كان خمسة من المتهمين فيها برتبة نقيب وملازم أول ، وكان اثنان منهما برتبة عقيد ، وواحد برتبة لواء ، هو اللواء صدقى عوض الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة ، الذى حكم عليه بالسجن ١٥ سنة والطرد من الخدمة ، أما باقى المتهمين فقد تراوحت الأحكام الصادرة عليهم بين البراءة والطرد من الخدمة والأشغال الشاقة المؤبدة .

فى اليوم التالى نشرت الأحكام .. فانفجرت المظاهرات !

إن الاحكام كانت السبب الظاهر للمظاهرات .. كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير .. فقد أحس الشارع أنها لا تشفى الغليل ، ولا تروى ظمأ الثأر للكرامة ، التى بلعتها كالمياه رمال سيناء ، ولا تضمد جراحه ولا تعوضه عن شرفه الذى تحول إلى قطعة « لبان » تمضغها « إسرائيل » بسهولة واستمتاع ، وتنفخها فى وجوهنا ، فى صورة



مظاهرات عمال حلوان .

فقاعات « شماتة » ترسلها لنا عبر الأثير من إذاعة أورشليم ـ القدس .. أحس الشارع أن الأحكام هزيلة جداً ، ليست فى مستوى الكارثة .. ولم يكن أحد يملك هدوء الأعصاب الذى يجعله يراجع هذه الأحكام على قانون الأحكام العسكرية ليحدد مدى موضوعيتها .. فالغضب ـ فى ذلك اليوم ـ كان أكبر من القانون والسلطة .. أكبر من المنطق والعقل ، وأكبر من الشرطة العسكرية وقوات فض الشغب .

بدأت المظاهرات فى مصانع الطيران « مصنع ٣٦ ومصنع ٣٥ الحربى » بحلوان .. خرج ما بين ٢٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ عامل فى مظاهرة كبرى ، كانت تهدف النزول إلى قلب القاهرة ، لتعلن أن الأحكام الصادرة أقل من التهم المنسوبة للمحكوم عليهم .. وعندما فشل مأمور قسم شرطة حلوان فى فض المظاهرة بخراطيم المياه ، أطلق بعض الأعيرة النارية التى أصابت ٢٣ عاملاً ، نقلوا إلى المستشفى .

وفيما بعد وصف عضو مجلس الأمة عبد اللطيف بلطية هذه المظاهرة بأنها « كانت على أعلى مستوى من النظام » .. وأضاف : « وكان علينا كأفراد نعمل فى التنظيم السياسي أن نسرع ونحافظ على نظافة المظاهرة » وخاصة أنها كانت « تهتف بحياة القائد جمال عبد الناصر ، وتطالب بأخذ الحق من الذين فرطوا فيه » .

وفيما بعد ، قال وزير الداخلية شعراوى جمعة فى بيانه أمام مجلس الأمة ، إنه ذهب لزيارة العمال المصابين فى المستشفى وعندما علموا أن معه سامى شرف « مدير مكتب عبد الناصر » طلبوا منه نقل تحياتهم إلى الرئيس ، وقامت مظاهرة أخرى تعبر عن اعتزازهم بجمال عبد الناصر .

ولا جدال أنه لا هذه المظاهرة ولا المظاهرات التى لحقت بها ، كانت موجهة ضد جمال عبد الناصر ، بل إن من المؤكد أن فقدان الثقة فى كل رجال الرئيس لم يمتد إلى الرئيس .. وقد أدرك عبد الناصر ذلك ، فقرر نقل مأمور قسم شرطة حلوان إلى وزارة الداخلية .. وأعلن أن مظاهرات الطلبة التى حدثت فى نفس اليوم سببها سوء تصرف المسئولين الذين لم يسمحوا للطلبة بعقد مؤتمرهم داخل جامعة القاهرة .

الأحداث فى الجامعة ، بدأت بعد فض مظاهرة عمال حلوان بالقوة ، لقد وصلت أخبار إصابات العمال واعتقالاتهم إلى الجامعة ، بعد ظهر نفس اليوم .. الأربعاء ٢١ فبراير .. الساعة الثالثة عصراً ، حيث اجتمع بعض الطلبة فى أحد مدرجات كلية الآداب ، وشكلوا من بينهم لجنة لرفع رأيهم فى الأحكام ، وفيما جرى لعمال حلوان وفى المساء حضر رئيس الجامعة الاجتماع (د . محمد مرسى أحمد) .. وفى اليوم التالى استمر الاجتماع رغم أنه كان أجازة بمناسبة يوم الطلاب العالمى ، وحضر وزير التعليم العالى (د . محمد لبيب شقير) وبعد ٤ ساعات من النقاش ، انتهوا إلى تقسيم المطالب ، وتحويلها إلى جهات



الطلبة خرجوا فى مظاهرات مضادة للنظام لأول مرة منذ ١٩٥٤

الاختصاص المختلفة .. ما يتعلق باتحاد الطلاب يدرس مع اتحاد الطلاب .. ما يتعلق بالاتحاد الاشتراكى يدرس مع الاتحاد الاشتراكى .. وما يتعلق بالجامعة يدرس مع الجامعة .. وهكذا .. إلا فيما يختص بقضية الأحكام فيرفع للرئيس وحده !!

وقد أكد لى بعض أعضاء اللجنة أنهم أصروا على رفع مطالبهم السياسية العامة للرئيس ، لأنهم لم يثقوا إلا فيه .. وكانت المطالب محدودة فى البداية ، ثم راحت مع محاولات الاحتواء التى بذلت ، تتزايد ، حتى شملت الحريات العامة ، والديمقراطية ، واستقلال الاتحادات الطلابية .. وقد كان من الممكن ألا تخرج المظاهرات من الجامعة ، لولا القبض على بعض أعضاء اللجنة .

خرج طلبة هندسة القاهرة من مبناهم المستقل ، وتوجهوا إلى حرم الجامعة ، فانضم إليهم طلبة الكليات الأخرى ، واتجهوا إلى كوبرى الجامعة مطالبين بالإفراج عن الطلبة المعتقلين ، وعلى مدخل الكوبرى من ناحية تمثال نهضة مصر تصدى البوليس لهم .. ومن الناحية الأخرى للكوبرى تصدى البوليس لطلبة كلية الطب ، جامعة القاهرة الذين خرجوا فى مظاهرة تهتف ضد الأحكام وتطالب بإعادة النظر فيها .

فى نفس الوقت خرج طلبة هندسة عين شمس فى مظاهرة اتجهت إلى مبنى الجامعة الرئيسى .. وفى ميدان العباسية كانت الشرطة فى انتظارهم .

لكن .. رغم ذلك نجح الطلبة فى اقتحام حواجز الشرطة ، ووصلوا إلى الشوارع والميادين الرئيسية فى القاهرة مثل ميدان التحرير ، وميدان باب اللوق .

عند منتصف الليل ، وبعد اجتماع استمر ٦ ساعات لمجلس الوزراء برئاسة جمال عبد الناصر ، تقرر إلغاء المحاكمة وإحالة القضية إلى محكمة عسكرية عليا أخرى ، لأن الفريق محمد فوزى وزير الحربية ـ حسب الرواية الرسمية لم يكن قد صدَّق على الأحكام .. وتقرر أيضا وقف الدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا ، ومنع المظاهرات .. وإغلاق المدينة الجامعية بسموحة بعد انضمام طلبة جامعة الأسكندرية إلى تيار الغضب .

وبدأت العاصفة فى السكون ..

وهدأت الأنفاس الشابة الساخطة ..

وأحس النظام ـ لأول مرة منذ سنوات ـ أن عليه ألا يقف فى وجه الزوابع والأعاصير ، وأن عليه أن ينحنى لها حتى تمر بسلام .. كان لابد أن يستوعب ما حدث .. أن يمتصه .. أن يبتلعه دون أن يقف فى الحلق .. إنها المرة الأولى منذ ١٤ سنة التى يخرج فيها الناس غير مؤيدين ولا مباركين .. المرة الأولى التى يثورون فيها على الثورة .. المرة الأولى التى يفرضون فيها حقهم فى الديمقراطية .. انفجار هائل .. مخيف . يختلف عن الانفجار الذى حدث بعد الهزيمة فى ٩ و ١٠ يونيو .. فلابد من التعامل معه بحكمة وكياسة .. لا بعنف وقسوة .. حتى ولو كان ذلك لبعض الوقت ، ودون رغبة حقيقية فى التنازل أو التغيير ..

فكان قرار إعادة المحاكمة . وكان إعلان وزير الداخلية فى مجلس الأمة (٢٧/٢/٦٨) : « إن هذه المظاهرات سمح بها ، وكانت التعليمات التى تلقاها من الرئيس عبد الناصر مباشرة أن يترك للطلبة حرية التعبير عن آرائهم وحرية السير كما يشاءون دون التعرض لهم على الإطلاق » .. وكان اعتراف عبد الناصر فى المؤتمر القومى (١٧/٩/٦٨) بأن المظاهرات « كانت عفوية وبدافع حماسي » .. وكان اجتماعه الشهير برؤساء اتحادات الطلبة وموافقته على جزء كبير من مطالبهم ، وتحقق هذا الجزء الكبير .

إن المطالب التى تحققت هى مطالب الطلبة الخاصة بمزيد من الاستقلال والفاعلية والحركة لاتحاداتهم ، وأن يكون لها حق العمل السياسي ، وأن تكون التنظيم الشبابى المهيمن على الجامعات والمعاهد العليا .. وصدر قرار رئيس الجمهورية رقم ١٥٢٣ لسنة ١٩٦٨ بشأن تنظيم الاتحادات الطلابية منفذا لهذه المطالب .. كما سنعرف بالتفصيل فى الوقت المناسب .

أما المطالب العامة مثل اقتصاد الحرب .. وتعبئة الشعب للقتال .. والحريات العامة ، فلم يستجب لها إلا بقدر بسيط جداً .. وكانت الأخبار التى تنشرها الصحف عن هذه المطالب لا تعكس الواقع بأى حال من الأحوال .. بل إنه فى وقت لاحق جاء شعار « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ليجمد كل التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كان لابد أن تسير جنبا إلى جنب مع التحولات العسكرية .. وكأن المعركة ، معركة حربية فقط .. كأنها لتحرير الأرض فقط !

ورغم تجاوز تلك المطالب ، ورغم محاولات استيعاب شباب الجامعات ، فإن الطلبة منذ ذلك الوقت أصبحوا قوة لا يمكن تجاوزها .. وإن كان من الممكن تملقها وامتصاصها !!

ففى جلسة مجلس الأمة عقب المظاهرات قال د . لبيب شقير : « إن الطلبة لهم كل الحرية أن يتأثروا بما حولهم من حوادث وأن يعبروا عن آرائهم فى تلك الحوادث » .. « إن طلبة الجامعات هم موضع ثقة هذا البلد كله وأنا والحكومة نقدر أن الخير كل الخير فى إبداء آرائهم عن طريق المناقشات الحرة البناءة » .

وفى عدد أول مارس من جريدة « الأهرام » ، كتب محمد حسنين هيكل : « المظاهرات مهما كان فيها ـ بعض الأحيان ـ من جموح ، تعتبر فى الواقع ظاهرة صحية وهى فى أبسط صورها تعبير عن اهتمام بالمصير لابد من تقدير دوافعه وحتى لو ثبت أنه كانت هناك محاولات لاستغلالها فإنه من الضرورى أن نفرق بين النوايا » .

وفى جبهة القتال يوم ١٣ مارس قال عبد الناصر للجنود : « مظاهرات الشباب جاءت تعبيراً عن شعوره بالتمزق نتيجة لاحتلال جزء من الأرض العربية » وإن كان أضاف : « إن عناصر الثورة المضادة حاولت أن تستغل هذه المظاهرات » .

وقال مديرو الجامعة فى بيان لهم (الأربعاء ١٤ مارس) : إن شباب الجامعات ـ الذين

يعتبرون مع غيرهم من شباب الوطن ـ معقل الحماس والفتوة وأمل المستقبل وعدة الوطن فى الذود عنه ، وفى ضمان ودفع تقدمه ، انفعلوا بالأحداث واتجهوا إلى القائد جمال عبد الناصر يعبرون عن مشاعرهم .. » وقد كفلت الجامعة لأبنائها الحرية التامة فى إبداء الرأى وعملت على بسط حمايتها عليهم طالما كانت ممارسة هذه الحرية تتم داخل الجامعة وفى الإطار النظامى المشروع ، بل ويسرت لهم ـ بوصفهم جزءا من هذا الشعب ـ السبيل لتبليغ وجهة نظرهم بالكامل للمسئولين » .

لم يلجأ النظام هذه المرة إلى تفسير ما حدث بالمؤامرة ، وإن كان قد أشار إلى « القوى المضادة » التى قال إنها « حاولت » استغلال عفوية المظاهرة .. وبراءة الطلبة .. دون أن يوضح طبيعة هذه القوى ، ولا الدور الذى حاولت أن تلعبه .

وكان أن أفرج عن جميع الطلبة المعتقلين إما بدون كفالة ، أو بكفالة لا تزيد على ٥ جنيهات .. وخرجت منظمة الشباب من الجامعة ، وركزت الأضواء على اتحاد الطلبة ، وأصبح رئيس الاتحاد على مستوى الجمهورية هو المتحدث بـاسمهم فى المؤتمرات واللقاءات السياسية والشعبية ، التى يحضرها الرئيس ، والتى كان يتحدث فيها من قبل ـ نيابة عن الطلبة ـ وزير التعليم العالى ، أو مدير إحدى الجامعات .. ويبدو أن هذه المعاملة الجديدة كانت ـ مع مميزات أخرى ـ لتحويل القيادة الطلابية إلى قيادة مستأنسة ، لا تخرج عن طوع النظام .. ويبدو أن النظام نجح فى ذلك مع رئيس اتحـاد طلاب الجمهورية عبد الحميد حسن (أصبح فيما بعد وزيراً للشباب ثم محافظاً للجيزة) .. إلا أن الاتحاد العام تخلص منه فى نوفمبر ١٩٦٨ ، وانتخب الطالب حسن عيد خلفا له .. وقال بيان الاتحاد الذى صدر فى نفس اليوم : « إن العمل وحده هو المعيار الوحيد لإثبات القدرة على الحركة والفاعلية » .

وبهذا الإصرار ، أحكم اتحاد الطلبة معظم السيطرة على الجامعة ، وأخذ من المنظمة والاتحاد الاشتراكى الدور السياسى ، وإضافة للدور المهنى والثقافى والفنى الذى كان له أصلا .. لكن .. ذلك لم يمر بسهولة ، وبدأ التنظيم الطليعى يدخل الجامعة ، بديلا عن نشاط الاتحاد الاشتراكى ، وموازيا ، ومنافسا لنشاط اتحاد الطلبة .. إن ذلك كان متوقعا ، وطبيعيا بعد أن أعلنت قيادات الاتحاد الاشتراكى (ومنها ضياء الدين داود) فى مجلس الأمة عقب المظاهرات ، « إن الطلبة يحتاجون فعلا إلى وعى سياسي حقيقى » .. وأضاف داود : إذا كانوا يطالبون بالحرية فإننى أقول لهم إن وجودهم فى الجامعة هو مظهر من مظاهر الحرية .. وإذا كانوا ينادون بالديمقراطية ، فأى ديمقراطية يطلبون وقد رأيتهم يناقشون آباءهم ، مديرى الجامعات ، ووزير التعليم العالى ، ووزير الداخلية .. أليست هذه ديمقراطية ! لقد كنا طلبة قبل الثورة وفتح علينا كوبرى عباس .. هل هذه هى الديمقراطية التى يريدونها ؟!!

من هذا المنطلق سعى الاتحاد الاشتراكى للسيطرة على الطلبة من خلال خلايا التنظيم الطليعى .. ورغم سيطرة التنظيم الطليعى على بعض اتحادات الطلبة (مثل جامعتى الأزهر وعين شمس) فإن القائمة التى تقدم بها للترشيح والسيطرة على اتحاد طلاب الجمهورية لم يكتب لها الفوز !!

وبسبب مظاهرات العمال والطلاب ، كان بيان ٣٠ مارس ، بعد حوالى الشهر تقريبا من انفجارها . إن البيان الشهير - الذى أضيف لوثائق الثورة - كان برنامج عمل محكم ، وقوى ، وجذاب لمرحلة ما بعد الهزيمة .. فهو يشير إلى نجاح النظام فى إعادة بناء القوات المسلحة . وفى تحقيق مطلب الصمود الاقتصادى ، وفى تصفية مراكز القوى التى ظهرت .. ثم .. تحدث عن التغيير والمستقبل الذى « يصبح فى إمكاننا الآن » أن نتطلع إليه .. وذلك بحشد كل القوى الشعبية وبوسيلة ديمقراطية من أجل المعركة ووراء أمل إتمام بناء المجتمع الاشتراكى وبإعادة بناء الاتحاد الاشتراكى عن طريق الانتخاب من القاعدة إلى القمة .. وأن ينص فى الدستور على توافر ضمانات الحرية الشخصية ، وعلى قيام الدولة العصرية .. دولة المؤسسات .. وعلى ضمانات حماية الملكية ، وحصانة القضاة ، وإنشاء المحكمة الدستورية العليا ، ووجود حد زمنى معين لتولى الوظائف السياسية التنفيذية الكبرى ، ضمانا للتجدد وللتجديد باستمرار .

وجرى استفتاء على البيان .. وبدأت إجراءات إعادة بناء التنظيم السياسي .. ووضعت قواعد جديدة للترشيح لعضوية مجلس الأمة .. لكن .. هذه الإجراءات ، مع البيان نفسه ، ظلت فى إطار النوايا الطيبة .. أو للإنصاف كانت التحولات المطلوبة أكثر من طاقة النظام نفسه .. أو كانت فى حاجة إلى من يؤمن أنها أكثر من كلام للاستهلاك .. ذلك أن أول اختبار عملى واجهه النظام بعد بيان ٣٠ مارس ، وهو حادث ظهور السيدة العذراء أدى إلى نتيجة لم تكن فى صالحه . وإن كان هذا لا ينفى أن عبد الناصر حاول من جانبه أن يكون فى مستوى ما جاء فى البيان ، على قدر ما سمح له العمر .. فقد أصدر فى أول نوفمبر قرارات جمهورية بقوانين لضمان الحريات الشخصية . وفتحت هذه القرارات « باب التظلم من جميع أوامر الاعتقال وقرارات فرض الحراسة أمام محاكم أمن الدولة العليا » .. وألغت « الضبطية القضائية لضباط البوليس الحربى » . وحدت من « الفئات التى تعتقل فى حالة تهديد سلامة أمن الدولة » وإن أعطت لرئيس الجمهورية « الحق فى القبض على من يهدد سلامة النظام السياسي والاجتماعى للبلاد » .

وبعد ٣ أيام أعلن عن تشكيل « مجلس الدفاع الوطني » .. وبحث مجلس الوزراء « الإجراءات الخاصة بإعداد الدولة للحرب » .. وإعلان تشكيل « كتائب الجيش الشعبى » وترتيبات « انتخاب مجلس الأمة الجديد » الخ ..

إن بيان ٣٠ مارس لم يتحول - للأسف - إلى أمر واقع .

هذه هى الخلاصة !

على أن ذلك لم يمنع الاعتراف بميلاد قوة سياسية ضاغطة هى الطلبة ..وقد جاءت هذه القوة من رحم الهزيمة ، فسعت للخلاص منها ، ومن الأسباب الحقيقية التى فرضتها .. وعلى ذلك كانت هذه القوة تعبيراً عن الديمقراطية وحرية التعبير وعن التطلع إلى العلم ، والتطور ، والتغيير ، وعن رفض استغلال الدين كمسكن .. أو بصراحة أكثر كمخدر .. والابتعاد بالمجتمع عن الهوس والدروشة والسقوط فى مستنقع الخرافات .. ولم تكن الجماعات الإسلامية جزءاً من فصائل هذه القوة ، لأنها لم تكن قد وجدت بعد فى الجامعات .. أو كانت مجرد أفراد يمارسون بعض النشاط الدينى غير الملفت للنظر من خلال بعض الأسر .

وفيما بعد .. فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أثبتت هذه القوة الطلابية الواعية والمستنيرة أنها لم تكن ترفع الشعارات فقط ، وإنما كانت قادرة على التنفيذ فعلا .. لقد قدر للذين طالبوا بالحرب عام ١٩٦٨ أن يكونوا فى طليعة الضباط والجنود الذين حققوا معجزة العبور عام ١٩٧٣ .. إنهم ـ بحكم الظروف ـ تحولوا من طلبة إلى مقاتلين .. استوعبوا تكنولوجيا السلاح ، وخلقوا المقاتل المتعلم ، المثقف ، الفاهم ، وسعوا إلى معرفة العدو الذى يحاربونه ، وقضوا أصعب السنوات وأحلاها فى الخنادق ، وكللوا كل هذه المحن بالنصر المذهل الذى أثار إعجاب العالم .

وفيما بعد .. اعترف الفريق أول (متقاعد) محمد فوزى (الذى كلف بإعادة تكوين الجيش بعد الهزيمة) أن جمال عبد الناصر ، كان يشعر بالقلق من إزدياد حجم المتعلمين (خريجى الجامعات) فى القوات المسلحة ، وأنه (أى الفريق فوزى) كان يرى أن المتعلمين هم العنصر الأهم فى إعادة بناء القوات المسلحة ، وقد وصل الحوار بين الرجلين إلى حد أن علق عبد الناصر حياة الفريق فوزى على فشل هذه التجربة التى لم تفشل ..وعلى ما يبدو كان عبد الناصر لا يزال متأثراً بمظاهرات ١٩٦٨ ، ويخشى أن يوضع السلاح فى أيدى الطلبة الذين قاموا بها بعد أن يتخرجوا من الجامعة ، وينضموا إلى المقاتلين !

ولابد من تقدير هذا القلق فى ظروف مجتمع مجروح بهزيمة ، وكل طموحه أن يتجاوزها ، وغير قادر على أن يضاف إلى متاعبه الخارجية ، متاعب أخرى داخلية ، يكون فيها الحماس للشباب ، والكلام للسلاح .

كما أنه لابد من إضافة أن حركة الشباب فى العالم ، فى ذلك العام ، تجاوزت كل الحدود ، وسرت عدواها من بلد إلى بلد ـ رغم اختلاف الأسباب والأهداف ـ مثل النيران فى مستودع وقود .. أو مستودع متفجرات وقنابل .

ثم .. إن قوة الطلبة التى أعيدت إلى الحياة السياسية فى مصر بعد مظاهرات فبراير ، أصبحت عنصراً للضغط ، جاهزا للبروز والتعبير والمحاسبة .. بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان

أقوى عناصر الضغط المستعدة للإنطلاق والصدام .. وهذا طبيعي بحكم مستوى التعليم والوعي الذى يتمتع به الطلبة فى مجتمع تسوده الأمية .. وبحكم المثالية التى يتمتعون بها .. وبحكم براءتهم من قيود العمل والجزاءات .. وبحكم انحصار مسئوليتهم فى الدراسة فقط .. وبحكم إحساسهم الواضح بأنهم ينوبون عن المجتمع ككل ، والذى ينتمون لعناصره وطبقاته وفئاته المختلفة .

وقد حدث أن عبرت هذه القوة عن موقفها مما يجرى فى المجتمع ، مرة ثانية ، وبعنف ، قبل أن ينقضى عام ١٩٦٨ .. بالضبط فى ٢١ نوفمبر ، بعد ٩ شهور تماما من مظاهرات فبراير .

طبقا للرواية الرسمية التى قدمها وزير العدل (فى ذلك الوقت) فإن رئيس الجمهورية أبلغه بحدوث مظاهرات بمدينة المنصورة ترتب عليها وفاة ٤ أشخاص .. تلقى وزير العدل مكالمة الرئيس بعد ظهر الخميس ٢١ نوفمبر ، وعندما انتقل إلى المنصورة ، تبين من التحقيق أن الأحداث بدأت يوم الأربعاء ٢٠ نوفمبر ، بتجمع طلبة من مدارس خاصة للاحتجاج على قانون التعليم الجديد الذى يقلل من فرص الرسوب .. وانضم إليهم طلبة المدارس الأخرى .. وصباح يوم الخميس خرج طلبة المعهد الدينى بالمنصورة فى مظاهرة زاد عددها على ٥ آلاف شخص ، عجزت السلطة عن مواجهتها .. وعندما حاول المتظاهرون اقتحام مبنى مديرية الأمن ، أطلقت الأعيرة النارية ، فأصيب أربعة أشخاص (٣ طلاب وعامل) ماتوا على الفور ، وجرح ٢٨ آخرين .. وتعرضت ٢٠ مدرسة ، ومكتب بريد ، ومحل حلوى ، ومحل حلاقة للتلفيات .

يوم السبت ٢٣ نوفمبر ، وقعت مظاهرات فى كلية الهندسة ـ جامعة الأسكندرية ، تطالب بتوضيح حقيقة ما جرى فى المنصورة ، وتطالب بالإفراج عن الطلبة المعتقلين هناك ، وأعلنت احتجاجها على عسف الشرطة فى فض المظاهرات هناك .. وقد انضم للمظاهرة طلبة كليات الزراعة والحقوق والآداب والتجارة وتصدت لها الشرطة بإطلاق الأعيرة النارية فأصيب ٣٠ طالبا ، وقبض على زعماء الطلبة ، وعلى رأسهم أمين اتحاد الجامعة عاطف الشاطر .

تراجع الطلبة إلى كلية الهندسة واعتصموا بها ، وعندما ذهب إليهم المحافظ أحمد كامل ، حجزوه كرهينة لحين الإفراج عن عاطف الشاطر ، وأفرج عنه فعلا .

ولمواجهة احتمالات اقتحام الكلية وفض الاعتصام بالقوة ، بدأ الطلبة عملية الدفاع عن أنفسهم بشكائر الرمل ، وزجاجات المولوتوف الحارقة ، والعصى ، وأسياخ الحديد .. كما راحوا يطبعون المنشورات ، ويوزعونها .. ويذيعونها فى مكبرات صوت علقوها على الأسوار .

يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر ، خرجت المدارس الثانوية فى الأسكندرية فى مظاهرة عارمة ،

ادت ـ بعد مواجهة الشرطة ـ إلى إصابة ١٦٧ شخصا ، توفى منهم ١٥ شخصا ، بينهم ٣ طلاب ، وقبض على ٤٦٢ أخرين .. وتحطم عدد من أتوبيسات النقل العام ، ووحدات الترام ، وإشارات المرور ، وزجاج واجهات عدد من المحلات ومصابيح الإضاءة .

وحسب ما نشرته جريدة الأهرام (٦٨/١١/٢٦ ـ الصفحة الأولى) : كادت الأسكندرية أن تحترق لولا سقوط أمطار غزيرة استمرت ساعات ، تصحبها عاصفة رعدية .

عطلت الدراسة كالعادة .. لكن . على غير العادة عقدت دورة طارئة للمؤتمر القومى العام يوم الاثنين ٢ ديسمبر لبحث موضوع « الطلبة والجامعات » .. و « لوضع ضوابط وضمانات اسلامة العمل الوطنى على أن يكون ذلك مستنداً إلى سلطة الشعب وليس إلى مجرد سلطة الدولة » ـ كما قالت « الأهرام » التى أضافت : « إن موضوع الطلبة والجامعات يجب أن يطرح للبحث بوضوح ، وهذا الموضوع لو أسىء استغلاله يمكن أن يؤدى إلى مضاعفات خطيرة تؤثر على الجبهة الداخلية » ـ (الأهرام ٦٨/١١/٢٧ ـ الصفحة الأولى) .. واشتم من هذا الكلام أن هناك إجراءات قادمة .. وإن كانت ستصدر ـ هذه المرة ـ من السلطة السياسية لا من السلطة التنفيذية كالمعتاد .. رغم صعوبة التفرقة ـ إلا فى الشكل ـ بين السلطتين .. وبدا واضحاً أن الأسلوب اللين الذى عومل به الطلبة فى فبراير لن يتكرر فى نوفمبر ، كما أن تفسير الأحداث بالمؤامرة بدا مسيطراً على الجميع .. وقد تأكد ذلك ، بعد أن تساءلت صحيفة الأهرام (الجمعة ١١/٢٩) عن الأيدى الخفية وراء حادث الأسكندرية ؟ .. وبعد أن ادعت أن بعض الطلبة المعتصمين سلموا نسخا من منشوراتهم إلى قنصليات دول أجنبية فى الأسكندرية .. ومن باب التمهيد التدريجى لكى يتقبل الناس المؤامرة التى ستعلن ، تساءلت الأهرام مرة أخرى : « من هو الشخص الذى لعب دوراً هاما فى عملية الشغب » .. ثم .. أعلنت فى اليوم التالى (السبت ١١/٣٠) أن « النيابة حصلت على اعتراف مفصل يحتوى على وقائع مخيفة ومخزية من أحد المتهمين الأساسيين فى عملية الشغب ، وهو ليس من الطلاب » .

ثم .. كانت عملية الوصول بسيناريو « المؤامرة » إلى ذروة الإثارة ، عندما أُعْلن أن هذا الشخص ، واسمه محمد محمود حداد ، يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، « وقد دفعت له مبالغ من المال فى مصر ، وكانت تتصل به عن طريق عميل غامض سلمه خطابا و ٧٥ جنيها ، وطلب منه مرة أن يحضر بعض المعلومات العسكرية » .. وقد « ظهر فجأة مستغلا مظاهرات طلاب هندسة الأسكندرية وقاد بنفسه عمليات التحطيم والحريق » .. و « هو جندى مصرى من الذين وقعوا فى الأسر فى سيناء ، وحاول الفرار ، وكاد أن يضرب بالرصاص ، ولكنه جند فى النهاية لحساب مخابرات إسرائيل » ـ الأهرام ١٩٦٨/١٢/٣ .

وهكذا ...

وضع النظام خيال المآتة (أو فزاع الطيور) أمام الطلبة حتى يخفف من قوتهم الضاغطة .. فهاهى مخابرات العدو تستغل عفويتهم وبراءتهم بدس عناصر بينهم .. هاهى إسرائيل التى يدفعون النظام لقتالها ، والقضاء عليها ، تستثمر حماسهم وحركتهم لصالحها ، وتهدد الجبهة الداخلية .

وكان أن أعلن بيان لاتحاد طلاب الجمهورية ، أن « جماهير الطلاب تتبرأ من العناصر التى قامت بتنفيذ مخطط القوى المضادة التى حاولت استغلال حادث الأسكندرية » وأضاف البيان : « إن أسلوب المظاهرات لا يتناسب مع الظروف التى يمر بها الوطن الآن » .

وقال البيان : « إن الفراغ السياسي الموجود فى الجامعات هو الذى ساعد على تضليل الطلاب ، وإن ذلك يفرض ضرورة إقامة تنظيم جاد للشباب » .

ولم يكن النظام يريد أكثر من أن يعلن الاتحاد العام لطلاب الجمهورية أن الطلبة مضلَّلُون ، حتى وإن اقترح علاجاً لهذا التضليل .

ولم يتردد أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات فى انتهاز هذا الفرصة للانقضاض على الحركة الطلابية ، فطالب د . حمدى النشار بتشكيل مجالس التأديب ، وإيقاف العمل بتشكيلات الاتحادات الطلابية (الأهرام ١٢/٤) وقال د . مصطفى أبو زيد (أستاذ بحقوق الأسكندرية أصبح فى عهد السادات أول مدعى عام اشتراكى) : « إن الطلبة ينزلقون ليصبحوا مراكز قوى » .. وأضاف : « إننى حريص على أن أقول هنا إن مراكز القوى يجب أن تنتهى » .. وأكمل « إن أكثر الطلبة استغلالا لقوة الطلبة هم أسوأهم خلقا وأقلهم علما » ـ (الأهرام ١٩٦٨/١٢/٤) .

قيل ذلك فى جلسات المؤتمر القومى الطارىء .

وقد جاء الرد الوحيد عليه من طالب بجامعة القاهرة (فريد حسنين) تحدث فى المؤتمر وقال أمام الرئيس جمال عبد الناصر :

« إن السواد الأعظم لطلاب الجامعة يعيشون بعيدين عن واقع هذا الوطن وتجاربه ، يحيون حياتهم اليومية مع أعضاء هيئة تدريس لا يمارسون دورهم التربوى ولا يشاركون من قريب أو بعيد فى مجالات العمل الطلابى ، لا يصححون ، ولا يرشدون ، بل إنهم هم أنفسهم فى حالة من الضياع الفكرى » .

ومن جديد تكرر الكلام عن الفراغ السياسي الذى يعيشه الطلاب .. وكان أبرز الذين تحدثوا عنه هذه المرة فريد عبد الكريم ، أمين الاتحاد الاشتراكى بالجيزة .. والذى كان كلامه عن « الخواء السياسي » و « انعدام الوعى العميق لدى جماهير طلابنا » ، بداية

حركته فى جامعة القاهرة لتشكيل خلايا التنظيم الطليعى من الطلاب للسيطرة على الاتحادات .

ولم يشر أحد ـ داخل المؤتمر ولا خارجه ـ إلى أن أبرز قادة المظاهرات فى المنصورة كانوا من الإخوان المسلمين الذين سبق لهم السيطرة على الاتحاد الاشتراكى ـ قبل حله ـ هناك .. أى أن الخطأ الأساسي كان فى الاتحاد الاشتراكى نفسه ، الذى فتح الباب على مصراعيه أمام عناصر غير متجانسة ، لم ينجح فى توحيدها فكريا ولا تنظيميا ، فكان أن أحس الشباب بعدم جدوى الانتماء إليه ، ثم ، بعد أن جمدت المنظمة ، أصبح لا مفر أمام الشباب سوى الفراغ السياسي ، أو النزول تحت الأرض فى تنظيمات غير معلنة ، تنتمى إلى أقصى اليسار ، وأقصى اليمين .. وكان النزول إلى العمل السرى اعترافا صامتا بأن الجيل « الذى كان على موعد مع القدر » . قد فقد الثقة فيمن حوله ، وتجاوزهم إلى طموح مطلق .

امام المؤتمر الطارىء ، قال جمال عبد الناصر :[٦]

١ ـ لا ينبغى أن يقوم تناقض بين الثورة وشباب الثورة ، وبالذات شبابنا فى الجامعات .

٢ ـ الحوادث المؤسفة التى وقعت لا يمكن أن تكون مسئولية جموع الشباب كله وإن كان قسط من المسئولية فيها يقع على قلة من الشباب تصرفوا بالخطأ ، ثم كان سوء القصد من عناصر مختلفة .

٣ ـ إن الغرض من المؤتمر ليس إعطاء سند للسلطة التنفيذية بإجراءات قمع للشباب لأنها تملك هذا السند بقانون الطوارىء والأحكام العرفية .. المسألة ليست مسألة قمع وإنما مسألة فهم .

٤ ـ لابد أن نسلم أن هناك قلقا يسببه الجو الكئيب نتيجة للنكسة ونتيجة للحالة التى نواجهها الآن بين استمرار الحرب وعدم استمرار القتال .

وفى الحقيقة كان التناقض قد وقع فعلا بين الثورة وشباب الثورة .. ولم يسع النظام للقضاء عليه ، وإنما ساهم ـ بمحاولات الاستيعاب المتنوعة والمبتكرة ـ فى زيادته .. فكان أن انصرفت الأغلبية الطلابية الصامتة للدراسة والتحصيل ، بينما راحت الجماعات النشطة منهم توزع نفسها على العمل السياسي ، الظاهر والخفى ، المرتبط بالنظام ، والبعيد عنه ، وبدأت أولى عمليات الفرز العقائدى لجيل الثورة لأول مرة فى تاريخها .. وبدأت عمليات الحسم الفكرى .. ثم .. كان أن تحولت الأفكار الواضحة إلى تنظيمات متجانسة .

وقد كانت هذه النتيجة التى أصبحت ملموسة فيما بعد ، مختلفة عن توقعات هيكل ، وهو يكتب بصراحة عن قضية الشباب (أهرام الجمعة ٦٨/١١/٢٩) فقد قال : إن الدين

(٦) الأهرام ـ الثلاثاء ـ ١٩٦٨/١٢/٣ .

كان إجابة سهلة أمام حيرة وتساؤلات الأجيال السابقة ، كذلك كانت الديمقراطية ، والماركسية التقليدية أيضا .. لكن .. « أمام الجيل المعاصر فإن الأسئلة نفسها مازالت مطروحة ، لكن الإجابات عليها لم تعد مقبولة بنفس اليقين المتين » وبسبب هذه الحيرة كان العنف .

والتحليل فى شقه الأول . ثبت فيما بعد أنه لم يكن دقيقا ، فقد اندفع الشباب فى تنظيمات تجد فى الدين إجابة سهلة .. أو تجد فى الماركسية نفس الإجابة .. وخاصة أن هذه التنظيمات رفعت شعارات ومقولات بدت مخالفة للتيار العام ، والسياق العام .. وكان هناك بعض العنف .. لكنه كان - فى أحيان كثيرة - رد فعل لعنف السلطة فى التعامل معهم .

ولعل جنوح هيكل يرجع أساسا إلى التعميم ، حيث إنه اعتبر حركة الشباب فى مصر - رغم اختلاف الدوافع والتجارب والأهداف - جزءا من حركة الشباب العالمية .. وهذا غير صحيح .. فالشباب فى الغرب تمرد على ميكانيكية الحياة والعلاقات ، فطالب بالعودة إلى الطبيعية .. فكانت الاتجاهات الهيبية والوجودية .. والشباب فى الشرق تمرد على ذوبان الحريات الشخصية فى الخطط العامة ، فطالب بحقه فى التعبير عن نفسه .. فكانت الاتجاهات الانشقاقية والنزوع إلى الذاتية .. أما فى مصر فكانت المشاكل الملحة أساسية ومصيرية : تحرير الأرض .. الديمقراطية .. التنمية الاقتصادية والاجتماعية .. وإثبات الذات بعد انهيارات الثقة المتتالية التى أدت - مع عدم الاستجابة - إلى التمرد والنزول تحت الأرض .

لقد حاول النظام امتصاص ، « وشفط » الغضب الطلابى والشبابى .. مرة بالغزل ، ومرة بنظرية « المؤامرة » .. مرة بالتدليل ، ومرة بالعنف ، ولم يفكر فى الاستفادة من حماسهم ، وعفويتهم ، لدفع المجتمع إلى الأمام .. فكان أن أحس الجيل الجديد بالاغتراب ، وراح يفتش فى جذوره السلفية أو فى جذور غيره العقائدية .. وظهرت التيارات السلفية من التكفير والهجرة إلى الماركسية التقليدية .

إن النظام الذى سمح بحرية الكلام داخل جلسات المؤتمر القومى الطارىء ، والخاص بالطلبة والجامعات ، لم يجد أمامه سوى المواجهة بالعنف ، والعقاب بالسجن ، وإن أعلن أن هذا العقاب للقلة غير المسئولة ، وهو عقاب تحدده - هذه المرة - سيادة القانون . مجرد مكياج للتجميل .. يخفى بعض العيوب لكن لا يلغيها - وعلى ذلك كانت أولى قرارات المؤتمر هى :

١ - تطبيق سيادة القانون لحماية مصالح الوطن واتباع سياسة حاسمة وحازمة مع القلة غير المسئولة التى أثارت وتثير الاضطراب .

٢ - عزل أفراد القلة المسئولة التى تبث سمومها بين الطلبة وعزل عناصر الثورة المضادة فى أى موضع .

٣ ـ تدعيم العمل السياسي بين الطلبة وربطه بالاتحاد الاشتراكى .
٤ ـ إرساء أسس علمية سليمة للتربية السياسية السليمة فى جميع مراحل التعليم .
٥ ـ اتخاذ الوسائل التى تحقق للاتحاد الاشتراكى فاعلية أكبر فى قيادة الجماهير .
٦ ـ تعديل جميع التشريعات التى تكفل إزالة ما يعترض الوصول إلى هذه الأهداف

وكان .....

أن بقيت هذه الأهداف بعيدة المنال .. إلا ما يختص بضرب وعزل القلة غير المسئولة .

وكان .... .

أن أصبح تعبير « القلة » أشهر مصطلحات القاموس السياسي للحكم فى مصر ، مع إضافة صفة جديدة ومناسبة حسب الظروف .. فهى مرة قلة منحرفة . وأحيانا قلة حاقدة .. وفى الغالب قلة مجرمة .

وكان .....

أن راح الشباب يتقلب بين نيران انفعالاته وحماسه وبرودة الثلوج التى تحاصره .. وبين هذا التقلب نبت الكثير من الأفكار التى كان أغلبها يحتاج ـ لتنفيذه ـ إلى العنف !

| ٦ |

ميليشيات الحرم الجامعى !

□ رجال مايو وتحضير الارواح □ فترة « امتحان الضمير » □ جامعة عبد الناصر ١٠٪ فقط للعمال والفلاحين □ الاغلبية الصامتة والطموحات البورجوازية □ اتحادات الطلبة قبل وبعد فبراير ١٩٦٨ □ حلم السفر إلى الخارج □ عام الحسم وانتفاضة ١٩٧٧ □ « عريضة الكتاب » □ الإسلاميون الجدد يركبون موجة اليسار □ الجماعات الإسلامية واحضان النظام الدافئة □ دور محمد عثمان إسماعيل □

بعد « انقلاب » ١٥ مايو ١٩٧١ ، انكشف سر ، كان بمثابة اللطمة القوية على أم رأس كل رعايا دولة العقل والمنطق !

فى مقالين نشرهما محمد حسنين هيكل فى « الأهرام » ، قال : إن رجال العهد الناصرى الذين أطاح بهم السادات كانوا يقومون بتحضير الأرواح ، للاتصال بجمال عبد الناصر ، بعد وفاته ، لتلقى « الوحى » و « الإلهام » .. والتعليمات منه .

أغلب الظن أن هيكل أراد أن يصورهم فى صورة العاجزين عن الحكم والتصرف بدون عبد الناصر .. أى أن قوتهم كان مصدرها الوحيد شحنات من وجوده وشخصيته .. وعندما مات ، بدوا مثل « بلدوزر » قوى وعملاق فقدت « بطاريته » طاقتها .

ولا نستطيع الجزم بمدى صحة هذا السر ... لكن .. من المؤكد أن أصحاب العقول أحسوا بالحسرة والحزن وربما الندم أيضا .

ولابد أن نعترف أن من أصحاب العقول فى تلك الفترة كان الطلبة .. إنهم هم الذين دفعوا المجتمع بعد الهزيمة إلى تغيير المجتمع فى اتجاه العلم ، والتكنولوجيا ، والديمقراطية ، وسيادة القانون .. وكانوا أسرع القوى استجابة لدعوة معرفة العدو ، وبناء الدولة العصرية ، وتوافق التحرر الوطنى مع التطور الاجتماعى . إن الفترة ما بين الهزيمة (٥ يونيو ١٩٦٧) ووفاة جمال عبد الناصر (٢٨ سبتمبر ١٩٧٠) كانت فترة « امتحان الضمير » .. فترة « حساب الذات » .. وكان الطلبة ـ بحق ـ هم فرسانها .

قبل أن يرحل جمال عبد الناصر ، كان عدد طلاب الجامعة ١٦١,٥ ألف .. وكان هذا العدد يكاد يتناسب مع إمكانيات المدرجات والمعامل وعدد أعضاء هيئة التدريس .. وكان فى الوقت نفسه ـ يفيض عن حاجة الوظائف وفرص الشغل فى القطاعات الإدارية والاقتصادية ، التى كانت تعانى من البطالة المقنعة ، وتكدس الموظفين ، وعدم وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .. وإن كانت هذه المشاكل لم تكن ملحة ، ولا ضاغطة ، حيث إن ٨٠٪ على الأقل من خريجى الجامعات كانوا يجندون فى القوات المسلحة ـ لأجل غير مسمى ـ حتى تحرير الأراضى المحتلة .

وقد كان جمال عبد الناصر ، يعتبر الجامعة إطارا لتعليم وتأهيل المثقفين الذين سيصبحون طلائع « الثورة العربية » .. لكن .. المثير للتفكير أنه وحسب الإحصائيات الرسمية كان أكثر من ٨٠٪ من طلبة الجامعة ، ينتمون إلى الطبقة المتوسطة بشرائحها المختلفة ، بينما كان حوالى ١٠٪ فقط من أبناء العمال والفلاحين .. والباقى كان من نصيب الانتماءات الطبقية الأخرى ، بما فى ذلك أبناء الطبقة الأرستقراطية القديمة التى قصت الثورة ريش أجنحتها .

وحسب التصنيفات السياسية ، كانت غالبية الطلبة ، أغلبية صامتة ، لا لون ولا طعم سياسي أو فكرى لها ، وكان كل همها الحصول على الشهادة الجامعية ، التى تفتح لها أبواب الرقى المادى والمعنوى ، وأغلب الظن أن هذه الغالبية كانت ترى فى العمل السياسى تعطيلا لطموحاتها البرجوازية ، كما أن الاشتغال بالسياسة كان يوهمها بكثير من الأخطار والمحاذير ، إلا أنها كانت كثيراً ما تستجيب لما حولها من أحداث ، وتخرج وراء القيادة الطلابية كما حدث فى فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ ، وكما حدث فيما بعد .. وحتى عام ١٩٧٣ . كانت القيادة الطلابية - فى الغالب - تنتمى لشرائح اليسار المختلفة ، وذلك على خلاف الأوضاع عام ١٩٥٤ ، حيث كان قادة الطلبة ينتمون إلى الإخوان والوفد والشيوعيين .

وحتى الهزيمة ، كان نشاط الاتحادات الطلابيـة ، يقتصر على حفـلات السمر ، ومعسكرات الجوالة ، والرحلات ، وتقديم مسرحية فى نهاية كل عام جامعى ، وتشجيع الفرق الرياضية .. وكان النشاط السياسي محرما عليها ، وتستأثر به وحدات منظمة الشباب ، والاتحاد الاشتراكى ، التى راح أعضاؤها ينظرون إلى أنشطة الاتحادات الطلابية نظرة لم تكن تخلو من السخرية والاستعلاء .

بعد مظاهرات ١٩٦٨ تغيرت هذه النظرة وسيطرت الاتحادات الطلابية على كل شىء ، بما فى ذلك الدور السياسي ، وقد جاء هذا الدعم من جمال عبد الناصر شخصيا ، حيث أرسل فى نهاية أغسطس ١٩٦٨ ، رسالة إلى مؤتمر اتحادات طلاب الجمهورية ، الذى عقد على هذا المستوى لأول مرة فى قاعة « الشعب » بمبنى الاتحاد الاشتراكى ، رسالة بدت تاريخية .. قال فيها :

« إن كل ما تحققونه بأعمالكم المتصلة وبينها هذا المؤتمر ، لا يقتصر أثره على الحركة الطلابية فحسب ، وإنما هو يجد تأثيره فى حياة الشعب ومستقبل الأمة » .. « ذلك أن الدور التاريخى الذى تحمله شباب الجامعات دائما فى تاريخ التطور فى بلدنا وفى كل بلد لم يكن فى يوم من الأيام بمثل هذه الأهمية التى تأكدت له فى ظروف التحدى الخطير الذى يواجهها على طريق المستقبل .»

« إنكم شباب الجامعات سوف تتحملون مسئولية مزدوجة بالغة الأهمية ، عميقة المضمون ، جانبها الأول أنه سوف يكون عليكم تحويل الكم العربى إلى كيف عربى ، وإن

تطور الحياة العربية سياسياً واجتماعياً وثقافياً إلى المستويات المعاصرة للتقدم الإنسانى ، يعطى الجموع العربية الهائلة وزنها الحقيقى وبالتالى سيادتها الحقيقية على أرضها ومصيرها » .(1)

وقد أعد المؤتمر لائحة جديدة ، أقرها الرئيس جمال عبد الناصر بواسطة قرار بقانون أصدره ، وفى هذه اللائحة برزت ـ لأول مرة ـ الأهداف السياسية ، وكانت بالترتيب :(2)

١ ـ إبراز رأى عام طلابى تجاه الأحداث القومية والدولية .

٢ ـ وضع وتنظيم المشروعات والبرامج القومية التى تخدم أهداف الدولة .

٣ ـ تنمية الوعى القومى ، وتعميق المفاهيم الاشتراكية .

٤ ـ ممارسة الطلاب حرية التعبير عن آرائهم وإثبات ذاتهم .

بجانب الأهداف الأخرى التى كانت :

٥ ـ توثيق العلاقة مع التنظيم السياسي ومع الأجهزة التنفيذية .

٦ ـ مقاومة مؤامرات الرجعية والاستعمار والصهيونية .

٧ ـ العمل على حل مشاكل الطلاب .

٨ ـ رعاية الأنشطة الطلابية المختلفة .

وقد ترجم الطلبة هذه الأهداف إلى مطالب ، كان أبرزها : رفض الحل السياسي لأزمة الصراع العربى الإسرائيلى .. سحب الاعتراف بالقرار ٢٤٢ .. دعم العمل الفدائى الفلسطينى .. تأميم الشركات الأمريكية العاملة فى مصر .. ومزيد من القرارات الاشتراكية لضرب قوى الثورة المضادة .

ونجح الطلبة فى أن ترفع عنهم وصاية أعضاء هيئة التدريس ، وإن عجزوا عن إخراج الحرس من الجامعة . ومن تحت إلى تحت راحت كثير من القوى والأجهزة تحاول السيطرة عليهم .

وعلى مستوى الكليات كان للاتحاد مؤتمر عام ، ومكتب تنفيذى يضم أمناء لجان الأنشطة السياسية والثقافية والاجتماعية والفنية والرياضية .. وعلى مستوى الجامعات كان للاتحاد مؤتمر عام أيضا ، ومكتب تنفيذى يضم أمناء لجنة النشاط السياسى ، ولجنة العلاقات الخارجية ، ولجنة العلاقات العربية ، ولجنة الإعلام والنشر .. وعلى مستوى مجلس اتحاد طلاب الجمهورية ، كانت نفس التشكيلات ؛ المؤتمر العام ، والمكتب التنفيذى ، ولجان النشاط المختلفة .

ولا جدال أن القوة الطلابية كانت « تفرمل » أمام « شخصية » جمال عبد الناصر ..

---

(١) الأهرام ـ ١/٩/١٩٦٨ ـ ص ١

(٢) د . طاهر مرسى عطية ـ تنظيم اتحادات الطلاب فى الجامعات المصرية ـ المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة ـ ١٩٨٤

إنه كان بالنسبة للطلبة ، الأب ، والزعيم ، والثائر ، والقائد ، هذه حقيقة ، والغضب الذى كان فى صدورهم لم يكن « منه » ، بل كان لأجله .. لأجل أن يواصل المسيرة فى نفس الطريق .. لهذا لم يتقبلوا السادات بعده بسهولة .. إن السادات لم تكن له شخصية عبد الناصر ، كما أنه كان من رجاله الذين فقد الطلبة الثقة فيهم ، ثم إنه كان رئيس مجلس الأمة الذى اعتقل الطلبة فى فبراير ١٩٦٨ بعد أن قابلوه ، وقدموا إليه مطالبهم ، كذلك كانت شهرة السادات السابقة ، والموحية بالضعف (مستر نعم) والاستسلام الدائم ، سببا إضافيا لرفضه ، ولإحساس الطلبة أنهم زادوا ـ بسبب وجوده ـ قوة على قوة .

وقد جاء السادات إلى السلطة ، وهو يحسب ـ مقدما ـ حساب تلك القوة ، التى شهد ميلادها ، وعرف حجم فاعليتها . وأحس أنها مثل الشوكة فى الحلق .. وكان لابد من نزع الشوكة ، وسحقها .. مهما كان الثمن .. ومهما كانت الآثار الجانبية ، ومهما كانت الأساليب .. ولابد أن نعترف أن خطة السادات لتدمير هذه القوة كانت كبيرة .. وأسلحته أيضا .

فى البداية كان الغزل .. كان الأسلوب الناعم .. ففى أغسطس ١٩٧١ قال لقادة الطلبة : إن دورهم فى العمل الوطنى كبير ، لأنهم الجيل الذى سيتحمل مسئولية الزعامة فى المستقبل .. وفى مناسبات أخرى مختلفة .. كرر مثل هذا القول ، أو معناه على الأقل .

ثم .. وفى نفس الوقت ، حاول السادات أن يبعد جماهير الطلاب عن التظاهر والعمل السياسي ، بفتح أبواب التطلع إلى مصلحة الذات . فكان أن شجع مشروع تشغيل الطلبة فى الصيف لزيادة دخولهم ، ولشغل أوقات فراغهم التى كان السادات يعتقد أنها ـ مع الحرمان الاقتصادى ـ السبب الأكبر وراء غضبهم وتمردهم !!

ثم .. كان أن شجع الطلبة على السفر فى الصيف والعمل فى المهن الدنيا فى أوروبا ... وراحت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها الأولى أخبار الفرص التى حصلت عليها أجهزة الشباب لعمل الطلاب فى الخارج .. « ٦٠٠٠ فرصة عمل للطلبة فى ٧ دول خلال الصيف » .. « ١٤٠٠ فرصة عمل للطلبة فى فرنسا مقابل ٤٠ فرنكا يوميا مع الإقامة الكاملة » .. « ٦٠٠ فرصة لطلاب الهندسة فى مصانع ألمانيا الغربية مقابل ألف فرنك فى الشهر » . « ٥٠٠ فرصة فى معسكرات العمل البريطانية مع الإقامة و٣٠ جنيها أسبوعيا » .(٣) .

وتحدثت صحف تلك الأيام عن فرص أخرى فى السودان ولبنان .. وقدمت الدولة كل التسهيلات لدفع الطلبة للسفر .. فقررت أن يقرضهم بنك الطلبة قيمة تذاكر السفر ، ومصاريف استخراج جواز السفر ، وسمحت لهم بتحويل ٧٥ جنيها بالسعر الرسمى كبدل نقدى .(٤)

---

(٣) و (٤) الاهرام ـ ١٩٧٤/٤/١٢ .

ولم تمر شهور على هذه السياسة حتى كان آلاف الطلبة يحاصرون السفارات الأوربية ، ويقفون بالأيام على أبوابها طمعا فى الحصول على تأشيرة دخول .

ولم تمر شهور أخرى حتى أصبح على أرصفة العالم آلاف من ابنائنا ، تائهين ، جائعين ، ضائعين ، يحلمون برغيف خبز ، ومكان فى حديقة ينامون فيه ، وغير قادرين على العودة ، إما لأنهم لا يملكون ثمنها ، وإما لأنهم يريدون العودة بعد أن يتحقق الحلم الذى دفعوا إليه ، ويشتروا بنطلون « جينز » ، وبلوفر من « سان مايكل » ، وخرطوشة سجائر مستوردة .

وبعد الضياع ، كان التلطع ، ثم راحت الفضائح تتوالى ، راسمة صورة كريهة لمصر .. وكان كل ما فعلته الدولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، هو أنها أرسلت مستشار منظمة الشباب إلى سويسرا ، ثم إلى فرنسا ، فأرصفة انجلترا ، فأزقة النمسا .. لإخراج الطلبة من المطب الذى ألقتهم فيه سياسة السادات .

إن الصورة يمكن أن تكون أكثر وضوحا من خلال التقرير الذى كتبه الصحفى السويسرى « برنار فوترافير » لمجلة روز اليوسف فى ٥ أغسطس ١٩٧٤ (العدد ٢٤٠٨ - ص ٢٠) .. لقد حصل ١٤ ألف طالب مصرى على تأشيرة دخول سويسرا فى ذلك العام ، ليس بغرض السياحة ولكن للبحث عن فرص عمل تعود عليهم بمكاسب مالية .. و .. « اللهفة على التأشيرة تعلن عن تنازلهم عن أشياء كثيرة ، من أجل الحصول على كلمة واحدة ، يتشوقون لسماعها ، أو تدوينها على جواز السفر ، بعدها يبدأ الزحف إلى أرض المطار ، وهناك تقفز العقول - قبل الأجسام - فى أول طائرة متجهة إلى بلاد الجنة والمتعة والخيال ، ترسم لهم شكل الحياة هناك .. نوع العمل ، الدخل المرتفع الذى سوف يسمح لهم بعيش مرفه ، السكن ، الأكل ، اللبس ، الفسحة ، العملة الصعبة ، وكلها بنود ثابتة فى القائمة » لكن .. مجرد أن يصبحوا فى الجنـة حتى يكتشفوا أنهم فى الجحيم .. فالبرجوازية هناك تتهم « العمال الأجانب بأنهم غرباء ، لا يجيدون لغة البلاد التى وفرت لهم فرص الكسب والعيش . ويتمتعون بقدر هائل من الأمية ، وقلة الثقافة والمعرفة ، ويشبهـون الخنازيـر فى طرق معيشتهم القـذرة ، وأنسب مكان لهم هـو « زريبة » الحيوانات .. يغلقون الباب على أنفسهم ، مكونين بذلك حزبا خاصا بهم .. يمتنعون عن مخالطة أهالى البلاد ، وعن تعلم اللغة الأساسية .. اتهمتهم أيضا بسوء الخلق والجهل ومجافاة الذوق العام ، وأنهم لا يتورعون عن مغازلة الزوجات والفتيات فى الشوارع ، ويشجعون على انتشار الدعارة بالبلاد ، ويصدرون أموال الدولة إلى الخارج فى شكل الحوالات التى يرسلونها إلى أهاليهم » .

ورغم أن الدولة هى التى دفعت الطلبة إلى هذا الطريق ، فإنها - بعد أن ابتلعوا الطعم - راحت تشهر بهم ، وتعلن أنهم يسيئون - بتصرفاتهم - إلى مصر فى الخارج .. بل إن رئيس

الحكومة عبد العزيز حجازى (الذى بدأ سياسة الانفتاح الاقتصادى) سخر ـ فى صيف ١٩٧٤ ـ بمرارة من شباب مصر الذى ترك الدودة تنهش قطن بلاده ، وذهب يتلطع على ابواب السفارات الأجنبية لتعطيه تأشيرة يتلطع بها على أرصفة سويسرا وفرنسا وانجلترا . مع أنه كان فى مصر ملايين الشباب لم يتهافتوا على باب أية سفارة ، ولم يعرفوا أوروبا إلا من الصحف ، وأطول رحلة يحلمون بالقيام بها .. رحلة إلى القاهرة .. وكأن المقصود إغراء بعض الشباب بالسفر إلى أوروبا ثم اتهام كل الشباب بالتخاذل والهروب ونكران الجميل .. وبذلك يكون السادات قد ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد .. ابعد الصداع عن رأسه ، وحطم القوة الشبابية ، بإغراقها فى الحلم الأوربى ، وباتهامها بالابتعاد عن الواقع المصرى .

لكن .. هذه السياسة لم تجدِ قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. فقبل الحرب كان الضمير الوطنى للطلاب فى الذروة .. وكانت الحركة الطلابية فى أعلى مستويات اللياقة السياسية .. وكانت الجسور بينها وبين المجتمع مفتوحة وعريضة وقوية .. لذلك لم يجد السادات مفرا من الاستسلام للمطالب الطلابية .. فبدأت « معسكرات الطلبة فى الجبهة » .. وراحت معسكرات الاتحاد الصيفية تناقش دور الشباب ومشاكله .. ورفعت الوصاية نهائيا عن الطلبة .. وألغى الحرس الجامعى .. وفى شتاء ١٩٧١ أجريت أول انتخابات طلابية بعيداً عن تدخل الحرس فعلا .. ونزل الطلاب معركتهم الساخنة وهم يرفعون شعارات سياسية أسخن .. ضد إسرائيل .. وضد المبادرات السلمية .. وضد التعامل مع الأمريكان .. وطالبت بالتدريب العسكرى .. وبحرب التحرير الشعبية .. وبأن تكون معركة التحرير ، معركة الشعب والجيش معا ، لا معركة الجيش فقط .. ولم تخل الانتخابات من مطالب مهنية مثل تخفيض سعر الكتب الدراسية ، ومواجهة سرطان الدروس الخصوصية !

بعد الانتخابات بوقت قصير بدا واضحاً أن أنفاس الطلبة ستخرج زفيراً يمتلىء بالغضب ، بعد شهيق عريض امتلأ بالترقب .. وقد خرجت الأنفاس الحارقة لتعبر عن نفسها فى صحف الحائط التى غطت جدران الكليات .. وحملت تلك المنشورات نقدا لا يخلو من الحدة للسادات . ولنظامه . ولحياته الخاصة .. أى لزوجته السيدة « جيهان رءوف » التى حملت لقب عائلته ، وحملت لقب « سيدة مصر الأولى » وهو لقب كان غريبا على المصريين ، ومستورداً من الولايات المتحدة الأمريكية ، لعبت به دوراً واضحاً ومؤثراً فى الحياة العامة ، كان مصدر استفزاز للكثيرين ..

كان النقد السياسي فى صحف الحائط ـ التى كانت مظهراً قويا من مظاهر التعبير الطلابية ـ يتركز فى فقدان الثقة فى إمكانية دخول الحرب ، ومحو عار الهزيمة .

وفى الحقيقة كان السادات نفسه هو السبب فى ذلك النقد .

فقد أعلن على الملأ أن عام ١٩٧١ سيكون « عام الحسم » .

وهاهو عام ١٩٧١ يحمل عصاه - وقد انحنى ظهره من الشيخوخة - وعلى وشك الرحيل ، وليس فى الأفق رائحة بارود وإحساس يمكن أن يحسم حالة الوقوف على السلم التى عرفت بحالة اللاسلم واللاحرب .. أو حالة البين بين !

ولم يطل نقد الطلاب للسادات طويلاً .

إذ سرعان ما بدأوا الإضرابات والاضطرابات والمظاهرات التى استمرت ١١ يوماً نالوا خلالها اهتمام صحافة الدنيا ما عدا صحافة « أم الدنيا » .

كانت مطالبهم ، مطالب عامة ، كما كانت تعكس مبادىء حركتهم ، وقد صيغت هذه المطالب فى بيانات متفرقة للاتحادات الطلابية على مستوى الكليات (خصوصاً بجامعتى القاهرة وعين شمس) ... ثم أجملت فى الوثيقة الطلابية التى أصدرتها اللجنة الوطنية لطلبة جامعة القاهرة .. وركزت على المطالبة بتدابير محددة لوضع البلاد على طريق اقتصاد الحرب ، وتوجيه طاقات المصانع الحربية لإنتاج الأسلحة وخصوصا الأسلحة الخفيفة ، ووقف إنتاج السلع الترفيهية ، وتضييق التفاوت فى توزيع الأجور ، والحد من امتيازات رؤساء وحدات القطاع العام ، والإعداد العسكرى الفعال للجماهير عن طريق تكوين الميلشيات الديمقراطية غير المركزية والمرتبطة بأماكن العمل والإقامة المفتوحة بدون تمييز وحرية الإعلام ، وإلغاء الرقابة على الصحف ، وعدم تشويه ما يعرض من أنباء ، وضمان حرية التعبير داخل الجامعة ، والإفراج عن الطلبة والعمال الذين ألقى القبض عليهم .. والتأييد المطلق لمنظمات المقاومة الفلسطينية .(٥)

ويلاحظ د . مصطفى كامل السعيد(٦) أنه كان هناك قدر من التباين فى البيانات التى أصدرتها اتحادات الكليات فى هذه المناسبة . فبينما أكد اتحاد كلية الآداب والاقتصاد على الإجراءات ذات الطبيعة الاشتراكية ، دعا اتحاد كلية طب القاهرة إلى « إحياء القيم الدينية ومساءلة الاتحاد السوفيتى عن عدم تأييده الكافى للقضية العربية » .

أى أن المطالب - فى الغالب - كانت فى اتجاه التقدم ، ولم تفصل القضية الوطنية عن القضية الاجتماعية ، ولا الجبهة العسكرية عن الجبهة الداخلية ، باستثناء أصوات لجماعات إسلامية وليدة فى طب القاهرة ، بدت - فى ذلك الوقت - أضعف من أن تلتفت إليها جموع الطلبة .

فى ١٣ يناير ١٩٧٢ ، حاول السادات - فى خطاب ألقاه أمام مجلس الشعب - أن يبرر انتهاء عام الحسم بلا حسم ، فجاء العذر أصعب (لا أقول أقبح) من ذنب !!

قال : إن سبب تأجيل الحرب يعود إلى « الضباب » السياسي والعسكرى الذى فرضته

---

(٥) د . مصطفى كامل السعيد - المجتمع والسياسة فى مصر ، دور جماعات المصالح فى النظام السياسي المصرى (١٩٥٢ - ١٩٨١) - دار المستقبل العربى - ص ٣٢

(٦) المصدر السابق - ص ٣٢

الحرب الهندية ـ الباكستانية على مشكلة الشرق الأوسط .. وأن تورط السوفيت فى هذه الحرب أدى إلى عدم إمدادنا بالسلاح اللازم ، وأدى إلى عدم إضاءة النور الأخضر أمامنا للقيام بمبادرة ساخنة .

جاء ما قاله السادات بأثر عكسى .

فقد شعرت القوة الطلابية المتنامية أن ما قاله الحاكم الجديد ، يمتلىء بالضعف والعجز ، ويرتهن بإرادة وتصرفات آخرين فى موسكو .. أو فى نيودلهى .

وبعد ٤٨ ساعة فقط كانت إحدى قاعات كلية الهندسة (جامعة القاهرة) تشهد اجتماعا ساخنا دعت إليه جماعة أنصار الثورة الفلسطينية .. وتدفق الطلاب من الكليات والجامعات الأخرى .. وكان أن تكررت الاضطرابات .. وكان أن تكررت نفس المطالب .. وأضيف لها مطلب آخر ، شديد الجرأة .. هو أن يحضر السادات بنفسه وفوراً إلى الحرم الجامعى (جامعة القاهرة) ليناقشوا معه سياسته ، ويوافق ـ بعد الحوار ـ على مطالبهم .. وكان هذا المطلب أكثر ما استفز السادات الذى لم يخفِ غيظه ، وراح يتعجب ـ بطريقته الخاصة ـ من أولئك « الأولاد » الذين نسوا أنه رئيس الجمهورية .

على أن ذلك لم يمنعه من الاستجابة لبعض المطالب ، خاصة تلك المتعلقة بالتدريب العسكرى فى الكليات .

وفى نفس الوقت كان يدبر لاستخدام القوة لمواجهة الطلبة الذين احتلوا جامعة القاهرة ، وتحصنوا وراء أسوارها السوداء العالية .

إن قرار استخدام القوة ضد الطلبة ، جاء بعد زيارة لمدة يومين ، قام بها وزير الحربية (فى ذلك الوقت) الفريق محمد أحمد صادق لجبهة القتال وأحس خلالها بالخوف من أن ينتقل التمرد والغضب من الجامعة إلى الجبهة .. وخاصة أن الصفوف الأمامية كانت تضم شبانا كانوا قبل شهور قليلة طلبة ، وتضم ضباط احتياط شارك بعضهم فى مظاهرات ١٩٦٨ ، وتعاطفهم كان لابد مع الجامعة .

كان الخوف أن تسود الجيش حالة من الفوضى ويحدث ما هو أكبر من الاضطراب .(٧)

قبل فوات الأوان ، تقرر استخدام القوة .. وعند الفجر بدأت عملية اقتحام الحرم الجامعى ، واعتقلت أجهزة الأمن زعماء الطلبة ووضعتهم فى المعتقلات(٨) وكان على رأسهم أحمد عبد الله ، وأحمد بهاء الدين ، وشوقى الكردى ، وزين العابدين ، وسهام صبرى

---

(٧) من مقال للصحفى الفرنسى جان بيير جولين ـ صحيفة نوفيل اوبزرفاتور ـ فبراير ١٩٧٢ .

(٨) فى قصيدة للشاعر احمد فؤاد نجم وصف حال المعتقلين من الطلبة ، وقال : انا رحت القلعة وشفت ياسين . حواليه العسكر . والزنازين ، والشوم ، والبوم ، وكلاب الروم ، ياخسارة يا ازهار البساتين ، عيطى يابهية على القوانين . انا شفت شباب الجامعة الزين ، احمد وبهاء والكردى وزين . حرمينهم حتى الشوف بالعين . وفى عز الضهر مغمين . عيطى يا بهية على القوانين .. الخ قصيدة انا رحت القلعة ـ ص ـ ٤٦ الاعمال الكاملة ـ دمشق .

طالبة الهندسة التى أسست مع زوجها محمد توفيق جماعة أنصار الثورة الفلسطينية .. وكالعادة استخدمت الأجهزة نظرية « المؤامرة » ونسبت للمقبوض عليهم تهمة الاتصال بدولة أجنبية ، وتلقى الدعم منها .

لم تكد قوات الشرطة ، تنجح فى اقتحام الجامعة ، حتى اندفع الطلبة خارج الأسوار إلى الشارع .. واحتلوا ميدان التحرير .. لكن .. ذلك جعل الفرصة أكبر لمواجهتهم .. وفى ٢٦ يناير كان الهدوء يسود سطح القاهرة ، أما القلوب الشابة فكانت لاتزال تغلى .

وقد انفجر الغليان فى نفس الموسم بعد عام .. ويمكن القول إن السيناريو لم يختلف كثيراً .. ولا الحوار أيضا .. إلا أن ٦٠٠ من المثقفين والكتاب والصحافيين والفنانين وقّعوا فى تلك الأيام وثيقة عرفت باسم « عريضة الكتاب » أيدوا فيها مطالب الطلبة ، وتعرضوا لعدد من القضايا « بينها قضية الشباب كما تعكسها الأوضاع فى الجامعات » ، وأوضحوا أن الشباب يشعر بتمزق ، خصوصاً شباب الجامعات ، لأن هؤلاء لا ينتظرهم بعد التخرج إلا عدد غير محدود من السنين يقضونها فى الجندية استعداداً لمعركة تبدو أبعد وأبعد كل يوم » .(٩)

وكان على رأس هؤلاء توفيق الحكيم ، الذى وصفه السادات ـ بعد هذا الموقف الجرىء ـ بأنه رجل عجوز استبد به الخرف ، وأنه يكتب بقلم يقطر بالحقد الأسود .(١٠)

إن الذى يقرأ هذه العريضة ، يدرك أن الشرارة الطلابية سرت إلى ضمائر مصر فأيقظتها .. ودفعتها ـ لأول مرة منذ سنوات ـ إلى الحركة .(١١)

وقد ضاعف هذا من غيظ السادات بالطبع .

إن من المستحيل أن ينكر أحد أن السادات أحس بالغضب من الطلبة ، وخاصة أنه كان يتصور أن الإجراءات الليبرالية التى بدأ يتخذها (دستور جديد . دولة المؤسسات ، تصفية الحراسات) ستجد التأييد الذى يريحه من الطلاب .

فكان .. أن اتهم اليسار وليبيا والمقاومة الفلسطينية باستغلال الطلبة للضغط عليه . وكان أن شاع على لسانه تعبير « قلة يسارية » .. وكان أن حاول استيعاب الحركة الطلابية بأسلوب شبيه بالأسلوب الناصرى .. فتكونت لجان مشتركة بين الاتحادات الطلابية والاتحاد الاشتراكى لم تثمر أى شىء .. لأنه لم يكن مخططاً لها أن تفعل شيئا .. كانت مثل الإسفنجة للامتصاص فقط .

ومن المستحيل أن يفكر أحد أن القيادة الطلابية المسيطرة على الجامعة ، كانت ـ فى ذلك الوقت ـ قيادة يسارية ، تتراوح بين الناصرية والماركسية ، وتأخذ تنظيماتها صور

---

(٩) و (١٠) محمد حسنين هيكل ـ خريف الغضب .

(١١) لعل ذلك كان مشابها لما حدث بعد مظاهرات فبراير ١٩٦٨ . حيث اصدر نادى القضاة فى ٢٨ مارس ١٩٦٨ بيانا كرر فيه بعض مطالب الحركة الطلابية والعمالية فى ذلك الوقت . لمزيد من التفاصيل ـ انظر ممتاز نصار ـ معركة العدالة فى مصر .

الجماعات السياسية .. فبخلاف أعضاء منظمة الشباب والتنظيم الطليعى ، كانت هناك جماعة أنصار الثورة الفلسطينية ، واللجنة الوطنية للطلبة ، وجماعة جواد حسنى ، وجماعة مصر .. وفى ذلك الوقت كانت التنظيمات الإسلامية ضعيفة جداً .. كانت تمارس نشاطها على يمين الاتحادات الطلابية فى صورة أسر ، مهمتها إقامة الندوات الدينية ، وإدارة نوادٍ لتحفيظ القرآن .. كانت تتحسس خطواتها بهدوء وببطء .

وبينما كانت القيادة الطلابية اليسارية ترى أن الحرب هى الاختبار الدقيق لنظام السادات ، وأن لا صوت يجب أن يعلو فوق صوت المعركة ، كانت الأقلية الطلابية السلفية فى وادٍ آخر .. مختلف .. لم تشغلها قضية احتلال الوطن بقدر ماشغلتها قضية الفصل بين الجنسين فى المدرجات .. لم يفزعها تأخر المبادرة الساخنة بسبب سحب الضباب القادمة من جنوب القارة الآسيوية ، بقدر ما أفزعها أن يمنع الطلبة من دخول الجامعة بالجلباب الأبيض ومن تحته سروال .

لقد كانت رؤية إعلان كهربائى مضىء يتحرك بالنيون على مدخل ملهى ليلى فى شارع « الأهرام » بالنسبة للطلاب السلفيين أكثر استفزازا من وضع أحذية جنود الاحتلال الإسرائيلى على رقبة الكرامة العربية فى سيناء ، والجولان ، والقدس .

لكن .. رغم ذلك كانوا أضعف من أن يُرفعوا شعاراً منفرداً لهم . أو شعاراً يميزهم عن الآخرين .. وكان أن وجدوا أن من الأنسب الاختباء وراء عباءة اليسار ، والهتاف بشعاراته مع بعض التحوير الذى لم يزعج أحداً ، ولم يلتفت إليه أحد !

أدرك الطلاب السلفيون أن الابتعاد عن القضية الوطنية ـ فى ذلك الوقت ـ واستبدالها بقضية أخلاقية ، رهان خاسر ، سيعزلهم تماما عن القواعد الطلابية .. فتراجعوا .. ومشوا مضطرين وراء اليسار .. كان اليسار يطالب بتحرير العالم العربى من الإمبريالية الاستعمارية ، فنادوا بالجهاد فى سبيل الله للقضاء على الكفار فى دار الإسلام .. ولم يمانع اليسار .

ويوما وراء يوم بدأوا يكسبون أرضاً جديدة .

وفى أوائل عام ١٩٧٣ أصبح لهم الوجود المناسب للانطلاق .. وللانفصال عن اليسار .. والتحرك بمفردهم . وإعلان هويتهم .

بدا ذلك واضحا بعد أول اختبار خاضوه فى منتصف ١٩٧٢ .

فى ذلك الوقت وقف ثلاثة طلبة أمام مجلس تأديب فى كلية الطب ، جامعة القاهرة ، بعد أن فردوا على الجدران مجلات بخط يدهم ، وصفتها إدارة الكلية بأنها تمتلىء بالسب العلنى الموجه لرئيس الجمهورية .. وتجمع الطلبة فى مظاهرة تطالب ببراءتهم ، على أساس أنهم مارسوا حقهم فى الديمقراطية التى يتحدث عنها رئيس الجمهورية .. وكانت المفاجأة المذهلة ، أن خرجت مظاهرة أخرى مضادة ، من الطلبة السلفيين ، تهتف : الله أكبر . الله

أكبر .. إسلامية إسلامية .. لا شرقية ولا غربية .. وتشابكت المظاهرتان .. وجرح طلبة من الجانبين ولم يفهم أحد ما حدث إلا فيما بعد .

ورغم أن السادات وصف مثل هذا الصدام ـ فيما بعد ـ بأنه بين اليسار المغامر ، واليمين الرجعى ، إلا أن هذا الصدام .. الصدام الأول ، جعل النظام يراهن على الطلبة السلفيين ، لمواجهة الصداع الدائم الذى كان يسببه له الطلبة اليساريون .

ومن جانبهم ، لم يمانع الطلبة السلفيون فى أن يغيروا تحالفهم ، ويعطوا ظهرهم لليسار ، ويمدوا أبصارهم وأيديهم للنظام .. كان النظام بالنسبة لهم ـ فى ذلك الوقت ـ حليفا مناسبا ، فهو قد أطاح برجال عبد الناصر ، وسعى للارتباط بالإخوان المسلمين ، ثم إنهم والنظام يكرهون اليسار كراهية التحريم .

إن كلا من التيار السلفى والنظام كان فى حاجة إلى الآخر لمواجهة قوى التقدم .. وقد وجد كل منهما ضالته فى زميله .. فكان العناق .. وكان الاتفاق والتخطيط والتدبير .. ثم كان التنفيذ .

وراء ذلك كله كان هناك بالطبع ـ من رجال النظام ـ من تولى هذه المهمة .

ولعل أبرزهم وأشهرهم كان محمد عثمان إسماعيل .

إنه فى يقين اليسار مهندس الصفقة داخل الجامعة بين النظام والطلبة السلفيين .. أى هو الأب الروحى للجماعات الإسلامية .

محمد عثمان إسماعيل بدأ حياته العملية محاميا . أصبح عضواً فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى عن محافظة أسيوط التى ولد وتربى وعاش فيها .. وقف مع السادات بقوة فى صراعه مع من أسماهم مراكز القوى .(١٢) .. وقدر السادات موقفه ، ورد له التحية بأحسن منها ، وعينه أميناً للتنظيم السياسي ، وهو الموقع الذى كان يشغله شعراوى جمعة ، وكان أن سارع بإظهار عداوته لليسار ، وأصدر أسوأ قرار اتخذ فى بداية عهد السادات ، وهو قرار فصل ١٢٣ كاتبا وصحفيا مصريا .. فى ٤ فبراير ١٩٧٣ .(١٣) وكان أغلبهم من اليساريين (لا نقول كلهم لأن بعض الأسماء أضيفت من باب التمويه أو بناء على طلب رؤساء التحرير) .. ومن بين الذين طبق عليهم القرار ، كان د . لويس عوض ، لطفى الخولى ، د . يوسف إدريس ، الفريد فرج ، أمينة شفيق ، ميشيل كامل ،

(١٢) من المشاهد التى تنسب لمحمد عثمان إسماعيل فى هذا الصراع انه وضع مسدسه المرخص على منضدة بقاعة اللجنة المركزية . وقال بصوت مرتفع لا يخلو من التحدى : سافدى السادات بروحى (فى رواية اخرى قال برقبتى) .. واضاف : ساقف بينه وبين من يمس شعره منه .. (فى رواية اخرى قال : لن يصاب السادات بسوء إلا بعد ان اكون جثة هامدة) .

(١٣) صدرت قائمتان باسماء المفصولين ، الأولى تضمنت ١٠٧ اسماء ، والثانية تضمنت ١٦ اسما ، وقد ادى فصلهم من التنظيم إلى ابعادهم من مؤسساتهم الصحفية والثقافية التى يعملون فيها ، وتحويلهم إلى موظفين فى هيئة الاستعلامات ، وكان ذلك فى وقت سخر فيه من إبعاد الصحفيين ـ قبل ان ياتى للسلطة ـ إلى شركة « باتا » للأحذية .

الشاعر أحمد فؤاد نجم .. وكان من بين المفصولين خمسة من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين .

واتهم البيان الرسمي الخاص بالقرار أولئك الكتاب والصحافيين « بتدبير مخطط يعمل لإثارة الجماهير » .. و « التحريض ضد نظام الدولة وتحالف قوى الشعب العاملة » .. واعتبرهم البيان « خارجين على الخط الوطنى » .. و « محرضين ضد الوحدة الوطنية » .

وكانت هذه الاتهامات (التى صيغت بمبالغة إلى حد النفور) وغيرها ، غير بعيدة عن حركة الطلبة فى الجامعة ، فعدد لا بأس به من المفصولين ، اتهم بتحريض الطلبة ، وإثارتهم من خلال لقاءات وندوات سياسية كانوا يعقدونها فى كليات مختلفة ، وكانت نغمة نقد النظام فيها واضحة .. وقد تحولوا إلى جهات التحقيق فلم تجد ما توجهه إليهم ، فكان لابد من الالتفاف ، وكان لابد من مخرج ، للتخلص منهم ، وقطع الطريق بينهم وبين الطلبة ، فصدر قرار أمين التنظيم ليخرجهم من مؤسساتهم ، إلى هيئة الاستعلامات كموظفين لا عمل لهم فيها .

وقد رشحت هذه الخطوة – على مايبدو – بالإضافة إلى نزعته المعادية لليسار ، محمد عثمان إسماعيل للقيام بخطوة أخرى .. كانت دعم الجماعات الدينية داخل الجامعات لمواجهة القوى اليسارية الطلابية .. وكان الدعم معنويا .. وكان ماديا أيضا .

بل .. ووصل الدعم إلى حد إعطاء أعضاء تلك الجماعات حرية استخدام الأسلحة البيضاء فى صدامهم مع الطلبة اليساريين ، ولم تكن أجهزة الأمن لتعاقبهم على ذلك !

لقد جرم القانون استخدام الأسلحة البيضاء ، وعاقب من يبيعها أو يحملها ، بالسجن .. لكن .. مع أعضاء تلك الجماعات ، لم يكن استخدامها ينتهى إلى أى عقاب !

ويبدو أن النجاحات المتتالية التى حققها محمد عثمان إسماعيل ، رشحته أن يتولى منصب محافظ أسيوط .. وأسيوط بالذات لها وضع لا يخلو من الحساسية بين المسلمين والمسيحيين[١٤] .. وقد أضاف المحافظ الجديد لهذه الحساسية ، حساسية أخرى ، هى الحساسية من اليسار .. فاختلطت الأوراق بعضها ببعض .. أوراق التوتر الطائفى ، وأوراق ضرب اليسار .. وكان أن تضاعف نفوذ الجماعات الإسلامية فى جامعة أسيوط .. ووصل إلى حد الخطر .. وصل إلى حد أن بدأت هذه الجماعات تفرض إرادتها على الجميع .. كما حدث فى نوفمبر ١٩٨٠ ، حيث نظمت اضطرابات داخل الجامعة ، لتعيد إلى الدراسة طلبة منهم فصلوا بسبب استنفاد مرات الرسوب .. وعندما قررت إدارة الجامعة

---

(١٤) حسب التعداد الرسمى فى نوفمبر ١٩٧٦ يشكل الاقباط فى اسيوط ٢٠٪ من السكان (٢٤,٥٪ فى الحضر و١٨,٢٪ فى الريف) وهى اعلى نسبة لهم فى اية محافظة فى مصر .. وقد اشار التعداد إلى أن النسبة الكلية للأقباط ٦,٣٪ وان عددهم ٢,٥ مليون ، وهو ما اعتبره المعتدلون منهم يمثل نصف الحقيقة .

بناء سور خارجى حول مبانيها ، تعرضت الجماعات للعمال ، وللشرطة التى تدخلت لحمايتهم وهم يعملون .. وانتهى الأمر إلى تعطل الدراسة فى الجامعة .

ولابد أن نذكر أن جامعة أسيوط كانت تفخر بأنها أول جامعة بلا أسوار .. وكان هذا الفخر إشارة إلى أنه ليس بينها وبين المجتمع سواتر .. ولا حواجز .. ولا أسلاك شائكة !

أصبح محمد عثمان إسماعيل محافظ أسيوط سنة ١٩٧٣ وظل فى منصبه مدة قياسية ، لم يحققها مسئول آخر فى عهد السادات ، ولم يتركه إلا بعد اغتيال السادات بحوالى السنة .. وعندما أصبح خارج السلطة ، كانت جامعة أسيوط جامعة للمتاعب .. وكانت قادرة على تصدير هذه المتاعب إلى باقى جامعات الصعيد ، من المنيا حتى أسوان .

وفيما بعد .

بعد اغتيال السادات ، ومحاولة تنظيم « الجهاد » العنيفة ، السيطرة على مدينة أسيوط ، وجهت إلى محمد عثمان إسماعيل كل الاتهامات التى أطلقت حوله[١٥] .. وكان رده :

« أنا أشجع التربية الدينية السليمة فقط » .

ووصف الجماعات الإسلامية المتطرفة بأنها « جماعات غير إسلامية » .

وقد جاء هذا الوصف متأخراً .. جاء بعد أن وقعت الفأس فى الرأس .. وتضخم « الشبل » الذى ربوه ليأكل اليسار ، فلما صار أسداً ، سارع بالتهامهم .. هم .. أو كما قيل .. أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رمانى !

فى الحقيقة .. كان دعم نظام السادات للتيارات السلفية فى الجامعة مثل السحر .. إذ سرعان ما ظهر مفعوله .. سرعان ما انفتح « القمقم » وخرج المارد الشاب من القاع ، محاطا بالبخور والدخان والصياح اللازم .. معلنا بدء عصر « الميلشيات » المسلحة ، التى ما إن سيطرت على الجامعة ، حتى قررت أن تواصل المسيرة ، وتسيطر على المجتمع .

إن حادث كلية الطب ـ جامعة القاهرة ، كان مبادرة من هذه الجماعات فى اتجاه التحالف مع النظام .. كان عربون مودة .. وكان أن منحها النظام رعايته وعطفه .. وبدا أن الطريق للسلطة يمر ـ أولاً ـ على جثث خصوم النظام .. ولم يتصور النظام أن الخطوة التالية ستفرض المرور على جثته !

فى صيف ١٩٧٣ نظمت الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة أول معسكر من معسكرات التدريب الروحى والبدنى ، التى انتشرت كثيرا فيما بعد .. أقيم المعسكر فى أرض معسكرات حكومية فى مدينة الأسكندرية .. اشترك فيه ٥٠٠ طالب قضوا أسبوعين فى حفظ القرآن ، والمناقشات والندوات الدينية .. وأيضا فى التدريب على رياضة الدفاع عن النفس ، مثل الجودو والكاراتيه .

---

(١٥) روز اليوسف ـ ٢٦ اكتوبر ١٩٨١ .

كان هذا النوع من المعسكرات إحياءً للمعسكرات الصيفية التى كان ينظمها الإخوان المسلمون فى أوائل الخمسينيات .. كما أنها أعادت إلى الأذهان فرق « الجوالة » التى كونها الإخوان ، وكانت نواة التنظيم السرى المسلح ، الذى عرف باسم النظام الخاص .(١٦)

فى حفل الختام ، تدفق عدد من كبار المسئولين .. وتابعت الصحف اليومية ما قالوه ، وأشادت بنجاح التجربة ، وقدمت صورة حية لما جرى .. وهذه الصورة تشير إلى أنه بجانب رجال الدين كان من بين الحاضرين رجال سياسة .. وكانت مهمتهم واضحة .. إذ راحوا يتحدثون عن الوضع المرير الذى يعيشه المجتمع المصرى فى ظل ما سمى « بسيطرة اليسار والإلحاد والعلمانية » .

وقد انتظمت هذه المعسكرات عاما بعد آخر .. واتسعت .. وتضاعف دعمها المادى .. وزاد عدد المشتركين فيها وارتفع شأن المحاضرين والوعاظ الذين يزورونها .. وفى سنة ١٩٧٥ (بعد حوالى ٣ سنوات) كان شيخ الأزهر (الشيخ عبد الحليم محمود) يفتتح بنفسه معسكراً من هذا الطراز فى مدينة « بنى سويف » .(١٧)

إن هذه المعسكرات كانت بالنسبة للنظام بمثابة معسكرات مضادة للتى تخرج منها أعضاء منظمة الشباب فى العهد الناصرى والتى وصفت ـ من المحاضرين ـ بأنها لم تعلم الشباب سوى الإلحاد .

كانت هذه المعسكرات بالنسبة للنظام بمثابة معامل لتفريخ جنود يحاربون فى صفوفه .. بخداع أكبر .. وبتكاليف أقل !

أما بالنسبة للشباب فكانت واحات مجانية لاستعادة العصر الأول للإسلام ، عصر الرسول « ﷺ » والصحابة « رضى الله عنهم » .. كانت بالنسبة لهم نموذج المجتمع

---

(١٦) فى عام ١٩٣٤ ، تبلورت فكرة تعميم فرق الرحلات فى مشروع كبير عرف ـ داخل جماعة الإخوان المسلمين ـ بمشروع فرق الرحلات . وقد ذكر حسن البنا ان الفكرة من تاسيس هذه الفرق « التاثر بفكرة الجهاد الإسلامى » .. وفى الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٧ نمت هذه الفرق نموا مذهلا .. واثناء الحرب العالمية الاخيرة ، قرر البنا التغلب على العقبات التى تثور فى وجه فرق الرحلات فى ظروف الحرب ، فقرر تحويلها إلى فرق كشافة ، وعند نهاية الحرب كان لدى الإخوان ٤٥ الف جوال ، اختير جنود النظام الخاص من بينهم .. انظر د . عبد العظيم رمضان ـ الإخوان المسلمون والتنظيم السرى ـ الناشر مؤسسة روز اليوسف ـ القاهرة ـ صفحة ٣٥ وما بعدها .

(١٧) مما لا شك فيه ان الشيخ عبد الحليم محمود افتتح المعسكر كجزء من حملته « المقدسة » ضد اليسار والشيوعية ، وكانت هذه الحملة انعكاسا لايدلوجية جديدة تحول إليها النظام وقد أصدر الشيخ عبد الحليم محمود كتابا عنوانه « فتاوى عن الشيوعية » قال فيه : « إن الشيوعى حينما يسبح لا يقول « الله اكبر » وإنما يقول « ماركس اكبر » وحينما يدخل المسجد يدخله على غير وضوء (!!) ثم جمع العديد من الفتاوى التى اقرها ، والتى يشير بعضها إلى ان اية امراة ثبت إيمانها بالشيوعية يسقط حقها فى حضانة اطفالها ـ كذلك يعد زواج المراة المسلمة برجل شيوعى « مسلم » غير جائز ، وفى رايه ايضا انه إذا كان الشيوعى متزوجا من مسلمة « وجب ان يفرق بينه وبينها ، وان يحال بينه وبين اولاده » ونشرت الكتاب مؤسسة حكومية هى دار المعارف ، وأعيد نشره اكثر من مرة ، ولقى اهتماماً كبيرا من معظم الصحف الرسمية .

الإسلامى الذى سيقيمون بناءه على أنقاض الجاهلية فى خارجه .

على أن تلك المعسكرات ـ بكل ما حظيت به من دعم وتصفيق ـ كانت تحتاج إلى وقت اطول حتى تحقق هدفها .. وكان لابد من عناصر أخرى ـ مساعدة ومنشطة ـ تختصر الوقت ، وتقرب البعيد ، وتجعل الحلم فى متناول يد النظام .

فكان اللجوء إلى القانون !

إن القانون الذى كانت « سيادته » شعاراً من شعارات النظام ، كان من السهل تغييره باستمرار .. كان من السهل تفصيله حسب الحاجة والظروف والرغبة .. وخلال عهد السادات كانت القوانين تولد وتموت قبل أن يتعرف الناس عليها .. وكان كل قانون يصدر ، يواجه بقانون آخر يبطل مفعوله .. فى ذلك العهد ، عرفت مصر حالـة من « فوضى » القوانين .. وعرفت قوانين غريبة وشاذة عن التراث التشريعى ، تلك التى سميت ـ فيما بعد ـ بالقوانين سيئة السمعة .. وكانت وسيلة السادات فى التخلص من خصومه ، وقد أجرى على بعضها استفتاءات كانت نتيجتها معروفة مقدما .(١٨)

فى ظل هذا الإسراف التشريعى أمر السادات بقلب اللائحة الطلابية ، وتفصيل لائحة جديدة للنظام تبيح للنظام السيطرة ـ من المنبع ـ على الحركة الطلابية .

إن الطلبة نجحوا ـ بعد مظاهرات ١٩٦٨ و ١٩٧٢ ـ فى أن يفرضوا أنفسهم ـ كقوة سياسية من الطراز الأول ـ على النظام ونجحوا فى أن يجعلوا الاتحادات داخل الكليات وعلى مستوى الجمهورية هى المعبرة عنهم ، وصبغوا هذه الاتحادات بصبغة سياسية ، وقبلوا لائحة تمنحهم الاستقلال ، وحق التعبير .. الذى مارسوه بقوة حتى حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

بعد حرب اكتوبر بدا السادات واسع الصدر ، وبدا الطلبة أكثر تقبلا له .. وظهر ذلك واضحا فى المؤتمر العام لاتحاد طلاب الجمهورية (الأسكندرية أبريل ١٩٧٤) ، والذى افتتحه السادات بخطاب أكد فيه أن تاريخ الحركة الطلابية ملك للبلد لا للطلاب فقط ، وطالب الاتحاد أن يدرس هذا التاريخ بعناية خلال السنوات الثلاث الماضية (سنوات حكمه حتى الآن) .. وأن تكون الدراسة وافية ، حتى لا يستأثـر ـ كما أضـاف ـ بالميكروفون أحد كما حدث من قبل ، و« يحاول أن يملى أفكاراً معينة وبعدين يتقال إن ده شباب مصر ، أو رأى الطلبة فى مصر » .

وكان واضحا أن السادات يقصد اليسار بجملة « أفكار معينة » ... لأنه سرعان

---

(١٨) سخر المصريون من اسلوب فرض كل شىء بالاستفتاءات المزيفة ، فاطلقوا « نكتة » تقول : إن الرئيس انور السادات عندما احس بازمة الرئيس الامريكى جيمى كارتر فى انتخابات الرئاسة الأمريكية ، اقترح عليه ان يساعده بإرسال وزير الداخلية المصرى ، إلى امريكا ليشرف على الانتخابات ، واكد له انه سيحصل على ٩٩,٩٪ من اصوات الناخبين هناك .

ما شن هجوماً على ما أسماه « الأيدلوجيات الجوفاء البعيدة عن واقع المجتمع المصرى وقيمه الروحية والدينية » .[19]

لكن .. رغم ذلك ، قال رئيس الاتحاد يحيى إبراهيم، « إن أول ما يهمنا أننا مازلنا على طريق ثورة ٢٣ يوليو ، ولا يجب أن ننسى أن قطعة من أرض الوطن مازالت تحت سيطرة المستعمر الصهيونى » .. وطالب بربط الجامعة بالمجتمع ، ورفع القيود عن الاتحادات وإلغاء نظام رواد الشباب ، وببحث حقيقى لمشاكل الإسكان والكتاب الجامعى .[20]

واستجاب السادات ، وبدأ الإعداد للائحة جديدة ..

وبالقرار الجمهورى رقم ٣٠٢ لسنة ١٩٧٥ صدرت اللائحة .

حولت اللائحة رواد الشباب من الأساتذة إلى مستشارين للاتحادات الطلابية ، بحيث يعطى للطلاب حقهم الكامل فى تقرير وتحديد برامج نشاطهم والتعبير عن آرائهم .

وحسب هذه اللائحة فإن اتحاد الطلاب ، تنظيم شعبى ، جماهيرى ، طلابى ، نقابى ، سياسي ، مهمته ممارسة العمل الطلابى دون انعزال عن قضايا الوطن ومشاكله وإبراز رأى عام طلابى تجاه الأحداث المحلية والقومية ، وتشجيع الطلاب على ممارسة حرية التعبير ، واقتراح الحلول العملية لمشاكلهم ، ومتابعة حلها ، مع دعم القيم الدينية والروحية .

وقد نجح التيار الدينى الذى كان قد أصبح ممثلاً فى الاتحاد ، أن يضيف إلى لجان الأنشطة ، لجنة جديدة ، سميت بلجنة الدين والمجتمع .

كما أضيفت لجنة أخرى خاصة بطلبة الدراسات العليا .

وحسب التقرير النهائى للمؤتمر ، تقرر ألا تتدخل أية جهة فى حذف أسماء مرشحى الاتحاد ممن تنطبق عليهم الشروط ، ورفع تمثيل الطلاب فى الوحدات الأساسية للاتحاد الاشتراكى فى الكليات والمعاهد من ٣٠٪ إلى ٥٠٪ مع تمثيل رؤساء الاتحادات بالمجالس الشعبية بالمحافظات ، واختيار رؤساء الاتحادات بالانتخاب الحر المباشر من مؤتمرات اتحاداتهم بدلاً من انتخابهم عن طريق مجالس الاتحادات .

وتضمن التقرير : تأكيداً لأهمية دور القطاع العام فى خدمة الاقتصاد القومى ، ووجوب استمرار سياسة الانفتاح الاقتصادى حتى يسهم فى عملية التغيير الاجتماعى ، وتحقيق حياة كريمة لقوى الشعب الكادحة ، وضرورة توظيف الاستثمارات الأجنبية على نحو يحقق التكامل بين القطاعين العام والخاص فى إطار خطة قومية متكاملة .

لكن .. كل ما كسبه الطلاب فى لائحة ١٩٧٥ ، سرعان ما تراجع السادات عنه فى لائحة ١٩٧٩ .. بل إن اللائحة الأخيرة (صدرت بالقرار الجمهورى رقم ١٦٥) أعادت الطلاب إلى أوضاع ما قبل ١٩٦٨ .. فقد ألغت اتحاد طلاب الجمهورية ، واكتفت بأن يكون على

---

(١٩) و (٢٠) الاهرام ١٩٧٤/٤/٤ .

راس كل اتحاد جامعة ، نائب رئيس الجامعة لشئون الطلبة ، ليرأس مجلسا سمى بمجلس تنسيق الأنشطة الطلابية للجامعة ، واكتفى أن يكون مجلس اتحاد الطلاب على مستوى الكلية فقط ، وألا يمتد نشاطه إلى العمل السياسي ، وأن يقتصر على لجان النشاط الرياضى ، والثقافى ، والفنى ، والجوالة والرحلات .

يقول د . طاهر مرسى عطية :[21]

إن لائحة ١٩٧٩ ، ضيقت أهداف اتحاد الطلبة ، وخلطت بينها وبين الوظائف والأنشطة ، وقد صدرت اللائحة بقرار جمهورى ، اتخذ فى صورة فجائية ، فى فترة لم يكن مجلس الشعب فيها منعقداً ، ومن السهل الربط بين صدور هذه اللائحة ـ بهذا الشكل المفاجىء ـ وبين الأحداث السياسية الطلابية التى سيطرت على الساحة فى هذا الوقت ، والتى اعتبر صدور هذه اللائحة أداة لمواجهتها ، لذلك فهى تتسم بطبيعة مؤقتة ، ومما لا شك فيه أنه من الخطأ معالجة الأحداث المؤقتة بإصدار قانون دائم .

كذلك فإن هذه اللائحة مخالفة للدستور ، الذى ينص (م ـ ٥٦) على إنشاء النقابات والاتحادات على أساس ديمقراطى ، أى بقانون وليس بقرار جمهورى ، وعلى أساس مشاركة أصحابها ، وهم هنا الطلاب .

والأحداث السياسية الطلابية التى سيطرت على الساحة فى ذلك الوقت ، كان أبطالها الجماعات الإسلامية .. لقد سيطر أعضاؤها على الاتحادات الطلابية فى العام الجامعى ١٩٧٨/٧٧ ، ثم استداروا إلى النظام .. أنهوا التحالف معه وانتقلوا من الوفاق إلى الصدام ، والأسباب يمكن تأجيلها بعض الوقت ..

ولاشك أن اللائحة الأخيرة أصابت الطلاب بالخمول السياسي .. وفرضت على أغلبيتهم العزلة والسلبية .. وكان أن تركت الساحة للأعلى صوتا .. والأكثر تطرفا .. والأشد قدرة على الإيذاء والعنف .. وكان أن وجدت الجماعات السلفية الراديكالية الساحة خالية أمامها .. فراحت تفرض سلطانها .

وفى دراسة تطبيقية عن موقف طلبة جامعة قناة السويس (نموذج) من اتحادات الطلاب [22] كانت النتائج غير مطمئنة .

٨٦٪ من الطلاب أكدوا عدم ارتباطهم بالاتحاد .. و ٧٩٪ من أعضاء مكاتب رعاية الشباب أكدوا عدم جدوى الاتحادات ، ورفع أعضاء هيئة التدريس النسبة إلى ٨٣٪ .

لم يتقدم للعضوية أكثر من ٨٠٪ من لجان الاتحاد فى جامعة قناة السويس (خلال فترة البحث) سوى عضوين فقط عن كل فرقة دراسية ، وبالتالى فازوا بالتزكية .

---

(٢١) دراسة « تنظيم اتحادات الطلاب فى الجامعات المصرية » دراسة تحليلية بالتطبيق على جامعة قناة السويس ـ د . طاهر مرسى عطية ـ المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة ـ كلية التجارة ـ جامعة عين شمس ـ عدد يحمل سنة ١٩٨٤ .

(٢٢) المصدر السابق

٨٤٪ من الطلاب لا يقبلون على الإدلاء بأصواتهم .. و ٨٠٪ لا يهتمون بمتابعة نشاط الاتحاد .

١ ,٩٩٪ قرروا أنهم لم يسبق لهم ترشيح أنفسهم وذلك لعدم الاقتناع بجدوى الاتحاد (٧,٠٪) أو لتفضيل نظام الأسر (٢١٪) أو لعدم الرغبة فى الترشيح (٩٪) .

٧١٪ من الطلاب اعترفوا بأن علاقتهم بالرواد من أعضاء هيئة التدريس علاقة صورية .. و ٩٦٪ منهم أكدوا أن الاتحادات الطلابية تحت الوصاية .

وترى الدراسة أن سلبية الطلاب ترجع إلى :

١ ـ عدم اشتراك القاعدة الطلابية فى تحديد أهداف الاتحاد وتشكيل تنظيمه .

٢ ـ غموض وعمومية أهداف الاتحاد .

٣ ـ طغيان دور الرواد والموظفين على دور الطلاب .

٤ ـ شعور الطلاب بأن الشكل الحالى للاتحاد جاء نتيجة للرغبة فى المحافظة على الشكل ، من حيث وجود اتحاد طلاب مع الرغبة فى استبعاد أية آثار محتملة للوجود فى هذا الاتجاه .

وهكذا ...

بقيت أسباب التوتر فى الجامعات ، حتى بعد أن قتل السادات .

لم يتغير أى شىء .

اللائحة .. طغيان الموظفين .. السلبية الطلابية .. وعنف الجماعات الإسلامية .

| ٧ |

غضبة فى سبيل الله !

□ جامعة الأعداد الكبيرة □ مجانية لا معنى لها □ مناخ مناسب لتجنيد الطلبة فى صفوف الجماعات الدينية □ ماذا قالت صحف الحائط ؟ □ الفقر والانفتاح يفتحان الباب للتطرف □ نماذج حية لشباب اعلن الحرب على المجتمع المصرى □ الفتاة المحجبة □ الفنانة الصغيرة المتمردة □ المناضل المسلم الساخط □ النصر او الشهادة □ متفوقون واذكياء لا يملكون وسيلة واحدة للتفاهم مع من حولهم □

من بين مئات الشعارات الزاعقة التى أطلقت فى عهد السادات ، كان شعار :
« مكان فى الجامعة لكل مواطن حاصل على شهادة الثانوية العامة » !
وهو شعار لم ينتبه إلى مغزاه أحد من الذين تناولوا ذلك العهد .
كما أن أحداً لم يتصور ، أو يتخيل أنه كان سببا ـ غير مباشر ـ لاغتيال السادات .

إن التعليم الجامعى ، كان ـ حتى بداية السبعينيات ـ إحدى وسائل القفز الرشيق بين الطبقات .. وقد اتسع حجم الطبقة البرجوازية وزاد قدر نفوذها وتأثيرها ، باتساع حجم التعليم الجامعى ، وازدياد قدر الاحترام والوجود الاجتماعى والاقتصادى للحاصلين على درجة البكالوريوس والليسانس .. وقد وصل ذلك إلى حد أن أصبح رجل الشارع يقول فى سخرية لا تخلو من المرارة والحسد : « بلد بتاع شهادات » .

ورغم أن الذين انتقدوا جمال عبد الناصر أخذوا عليه مجانية التعليم الجامعى والتوسع فيه ، فإن هذا التوسع كان محكوما ـ إلى حد ما ـ وكان متناسبا ـ إلى حد ما ـ مع خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية الطموحة .. وكانت هناك علاقة بينه وبين نمو التعليم الفنى والصناعى ، بما فى ذلك المعاهد العليا المتخصصة ، ذات المناهج التطبيقية والعملية .

كذلك ، كان جمال عبد الناصر ينظر إلى الجامعة على أنها معمل لتفريخ الكوادر الشابة ، المؤمنة بثقافة العصر ، وبالقومية العربية .

لذلك .. وجد السادات ـ عندما جاء إلى الحكم ـ شبابها قوة سياسية ، مساندة للتقدم ، والعروبة ، ومحاربة للاستعمار والرجعية .. وكان أن قرر التوسع بجنون فى أعداد الطلاب .. وإقامة جامعات جديدة إقليمية فى كل مكان .. كان أن قرر رفع وتنفيذ ذلك الشعار .. لمغازلة طبقات جديدة تحلم بالعبور إلى طبقة أعلى وهى تحمل الشهادة العليا ، وليست أمامها فرصة دخول الجامعة .

ولم يمر وقت طويل على تنفيذ هذه السياسة إلا وكانت الجامعة المصرية تحظى بلقب « جامعة الأعداد الكبيرة » .. وتحولت المدرجات إلى « علب سردين » .. واضطر

عدد كبير من الطلبة للتنافس على الجلوس فى الصفوف الأولى من المدرجات ليتمكنوا من متابعة المحاضر .. بما فى ذلك دروس التشريح فى كليات الطب .

وكان أن عجز معظم الطلاب عن فهم ما يلقى عليهم .. وكان أن انتشرت ظاهرة الدروس الخصوصية .. وتحولت هذه الدروس إلى مزاد ، لم يكن يكسب فيه إلا الطلاب الأغنياء .. أما الطلاب الفقراء فلم يكن أمامهم إلا نفخ صدورهم بالغيظ .. ولأن الدروس الخصوصية فى كلية مثل الطب كانت تكلف الطالب آلاف الجنيهات سنويا ، فإن مجانية التعليم فقدت معناها ، كما أن تكافؤ الفرص لم يعد له وجود (١) والإحساس بعدالة المجتمع انقلب إلى مشاعر كراهية حملها للمجتمع الطلاب غير القادرين .. وقد زاد عددهم كثيراً بسبب إقامة الجامعات الإقليمية .. وكان يكفيهم تحمل عبء الذهاب إلى الجامعة ، وشراء الكتب مرتفعة السعر ، ومواجهة مصاريفهم اليومية .. وقد ازداد الطين بلة بالنسبة للغرباء الذين يدرسون بعيداً عن أسرهم .. فقد كان عليهم تدبير سكن مناسب ، وطعام رخيص ، وثياب أرخص ، وخاصة أن المدن الجامعية لم تكن قادرة على استيعاب نصف الغرباء من الطلاب !

إن من يتأمل ما حول أبنية الجامعات المصرية سيجد حزاما من البيوت الفقيرة ، القديمة ، التى يتكدس فيها الطلاب الذين يعيشون بعيدا عن ذويهم فى مواسم الدراسة .

وهؤلاء هم أول زبائن الاقتراض من بنك الطلبة .

وهؤلاء لم تمكنهم ظروفهم من المشاركة فى الحياة الجامعية ، ولا فى أنشطة اتحادات الطلبة .. إن ذلك كان رفاهية شديدة بالنسبة لهم .. وأمام مشاكلهم المزمنة ، كان عليهم ألا ينظروا إلا تحت أقدامهم ، وأن يحصروا اهتماماتهم فى الدراسة فقط .. فالمهم همومهم هم لا هموم الوطن .. والمهم متاعبهم هم لا متاعب الوطن .

وكانت هذه الظروف الصعبة أفضل ظروف يمكن أن يستثمرها التيار الدينى .

ومع خوف القادمين من الريف من طبيعة المدن ، وجدت الجماعات الإسلامية أعداداً غفيرة من الشبان والفتيات جاهزة للتجنيد .. أو على الأقل .. للتعاطف .

ثم .. إن الحكومة كانت ضد اليسار .. وعدد كبير جداً من الطلاب يفضل السير فى الأمان .. وينفذ تعليمات المرور بصرامة والتى تقضى بعدم الاتجاه لليسار .

إن الهدوء قد ساد الجامعة لمدة عامين بعد حرب أكتوبر .. أضاف الأداء المذهل للجيش المصرى ، الكثير من المساحيق على صورة السادات فى عيون الطلبة ، فأصبحوا

---

(١) لعل من المذهل ان نؤكد ان الدرس الخصوصى فى مادة مثل التشريح وصل إلى ٣ آلاف جنيه . وقد ابتكر استاذ شهير فى طب القاهرة اسلوبا خاصا يسدد به الطلاب ثمن الدروس الخصوصية ، وهو تقديم ثلاجة او غسالة فول - اتوماتيك او حجرة نوم ، فى نهاية كل موسم دراسى .

أكثر تقبلا له .. لكن .. ما إن جاءت سنة ١٩٧٥ حتى كانت اتفاقية الفصل بين القوات (قوات مصر وقوات إسرائيل فى سيناء) التى أطاحت بهذه المساحيق ، وعادت صورة السادات فى عيون الطلبة إلى ما كانت عليه .. واشتعلت من جديد حوائط الكليات بالمجلات والمنشورات التى تتحدث بصوت مرتفع عن الاستسلام والانهزامية (٢) .. وهاجمت القيادة الناصرية واليسارية الاتحادات الطلابية ، واتهمتها بالانضواء تحت جناح السلطة .. واتهمتها بممارسة الإرهاب والفساد داخل الكليات وخارجها فكان أن رد الاتحاد بحل « نادى الفكر الناصرى » وأكمل النظام الإجراء بإيقاف جريدة « صوت الطلبة » .

فى ذلك العام كان نصيب اليسار فى اتحادات الطلبة أقل .

لأن عدد الطلبة الذين أدلوا بأصواتهم كان قليلا بشكل لافت للنظر ، كما لاحظت مجلة روز اليوسف وكان سبب هذه الظاهرة جماعات السكاكين التى تتمسح بالدين وتهدد بذبح الذين يقولون رأيهم وتتهم كل من يعارضهم بالكفر والإلحاد والشيوعية ،

---

(٢) حتى تبدو الصورة مكتملة لابد ان نعيد نشر ما جاء فى مجلات الحائط فى تلك الفترة ، وسنعتمد فى هذا على تحقيق صحفى نشرته فى مجلة روز اليوسف (٢٥ نوفمبر ١٩٧٤) ص ٤٧

فى مجلة على جدران كلية الاقتصاد رد الطالب سيد عوض على اتهام الحركة الطلابية بوجود من يحركها خارج الجامعة ، فقال : « إن الحركة الطلابية من خلال الممارسة الوطنية اليومية تمثل فصيلا متقدما وواعيا من فصائل الحركة الوطنية المصرية يناضل ضد كافة اشكال الفساد والاستغلال والقهر على الجماهير الكادحة .. وعليه فإن الإسهام العميق من الطلاب فى القضايا لا تحدده حدود وفيه يبذل الكثير من الجهد والوقت والمال » .

وفى اداب القاهرة علقت اسرة مصر بيانا ساخرا ، عاجلا من مباحث امن الدولة إلى مندوبيها بالكليات حول معرفة الشيوعيين ، وهم فى راى البيان كل من يتكلم عن فلسطين ، وكل من يتكلم عن الجماهير الكادحة ، وكل من حمل منديلا احمر .

وفى تجارة الأزهر كتب الطالب سليمان عبد الحليم يحذر من الشيوعية والقومية ويصنفها بانها حركات برجوازية !

وفى آداب القاهرة هاجم الطالب سمير حسنى زيارة كيسنجر للقاهرة ، ووصف الرئيس نيكسون بانه افظع دموى فى التاريخ .

وفى آداب القاهرة ايضا نشر محمد فراج ابو النور زجلا يقول : وجع الراس نعالجه بإيه ؟ قال لك إدى الناس القوة . قال لك طب والجهل يابيه ؟ قال لك سيب الكلمة تفوت طب والكلمة تفوت إزاى ؟ ، قال لك لما الضلمة تموت . طب الضلمة تموت إزاى ؟ . قال لك لازم بالنبوت .

وردا على تقديم بعض الطلبة إلى مجلس تاديب ، نشر بيان تحت عنوان « كفاكم استعبادا للجماهير » جاء فيه : « إن تقديم الطلاب الوطنيين اليوم إلى مجلس تاديب هو استكمال لضرب الحركة الوطنية التى بدات تستيقظ وتطالب بحقوقها » ، وتقول كاتبة المقال ـ البيان سميحة احمد : « إن سر مجالس التأديب هو ما نكتبه فى صحف الحائط » .

وتحدثت مجلات الحائط فى ذلك الوقت عن الانفتاح ، وفك الاشتباك ، وافلام السينما المصرية التى تمجد العوالم .

وتجعل سكة السلامة هى الانصراف عن كل شأن عام ، والتزام البيت يوم الانتخابات ، كما قالت روز اليوسف [٣] .

وتضيف روز اليوسف : إن الجماعات الدينية آمنت بعدم جدوى البرامج الانتخابية .. وتلخص نشاطها الانتخابى فى تكفير كل من ليس فيها .. وقد سيطر تيار التكفير بلا برنامج على طب القاهرة .. « وهو تيار يجعل حياة الأساتذة عذابا : لأنه يثور ويهدد بالاعتصام إذا قال الأستاذ فى محاضرته حقيقة علمية تخالف معتقداتهم ، ويمنعون عرض الشرائح العلمية بالفانوس السحرى ، لأنه لا يجوز إطفاء النور فى وجود طالبات إناث » .

ورغم ذلك نجح اليسار فى ضغوطه على المؤتمر العام لاتحاد طلاب الجمهورية ، وصدر عن المؤتمر بيان استنكار للحملة الشرسة فى الصحافة الرسمية ضد ثورة يوليو وجمال عبد الناصر .. وفى العام التالى نجحت ضغوط اليسار من جديد لإعادة « نادى الفكر الناصرى » تحت اسم آخر .. لكن هذا النجاح سرعان ما اصطدم بقوة التيارات السلفية .. ففى خريف ١٩٧٦ ، طالب اليسار بالخروج فى مظاهرة تنادى بمزيد من الحريات السياسية إلا أن ممثلى الاتحادات وأعضاء الجماعات الدينية رفضوا .. فخرج ٣٠٠ طالب فقط ، وصفهم السادات « بالوقاحة والعجرفة » .

قبل هذه المظاهرة بأكثر من عام .. بالضبط فى مارس ١٩٧٥ ، حدث من اليسار الطلابى ما هو أخطر وأصعب على السادات من مجلات الحائط .. أضرب عمال النسيج فى مصانع المحلة الكبرى بسبب مشاكل مع الإدارة ، فسارع الطلاب اليساريون بالتضامن معهم .. وكان هذا كافيا لإلصاق التدبير بالشيوعيين .. وقد كانت هذه ـ بالطبع ـ وجهة نظر السادات نفسه .

ويقول محمد حسنين هيكل : [٤]

إنه رفض إلقاء اللوم على الشيوعيين ، وطلب من السادات « إعادة الحسابات التقليدية عن السلوك الشعبى المصرى ، فهذا السلوك بدأت تدخله نزعة عنف صنعتها ظروف » .. و « خلال ست سنوات ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، دخل إلى القوات المسلحة ما يزيد على مليون شاب ، قيل لهم جميعا ، ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها ، ثم دربوا على السلاح ، ثم تعرضوا لتجارب الحياة فى الصحراء ، وفى الخنادق ، ثم صهرتهم تجربة القتال ، وتجربة القتال ليست بالضبط تجربة وديعة ، وليست سلبية ، وإنما هى قمة ممارسة الإرادة فى أقسي ظروف العنف .. إن مثل هذا كله لابد أن يكون قد

(٣) انظر تقرير روز اليوسف عن الانتخابات الطلابية الذى كتبه عادل حمودة وشفيق احمد على وجمال عنايت ـ عدد ٨ ديسمبر ١٩٧٥ ـ ص ١٠

(٤) هيكل خريف الغضب .

ترك أثراً على مئات الألوف من الشباب تركوا خدمة القوات المسلحة بعد انتهاء الحرب ، وعادوا إلى مدنهم وقراهم يواجهون حياة جديدة ، لا يمكن أن نتصور أن التجربة التى عاشوها من قبل لم تترك عليهم بصماتها » ..

لكن ..

رغم ذلك أصر السادات على اتهام الشيوعيين من باب التخلص منهم .. وظل السادات على عناده !

إن هذه الظروف التى كانت الجامعة طرفا فيها ، والتى أدت إلى فصل عدد من الطلبة اليساريين ، وتحويل عدد آخر منهم إلى مجالس التأديب(٥) جعلت الأغلبية الطلابية الصامتة تركن إلى الهدوء والسلبية . ثم مع ظروفها الاقتصادية الصعبة بدت فى حاجة ماسة إلى من يمد لها يد العون .. وكانت الجماعات الدينية جاهزة ..

كانت الجماعات الإسلامية تبحث عن قاعدة لوا بين الأغلبية الطلابية الصامتة !!

واستثمرت الظروف الضاغطة لتحقق الكثير من النجاح .

أعلنت أن الاختلاط بين الجنسين فى الجامعة ، مؤامرة غربية ، وفرنجة ، وإغراء جنسى لضعاف النفوس . ومع ازدحام المدرجات ، ووسائل النقل العام ، استجابت الطالبات للحجاب .. الذى تحول بعد ذلك إلى النقاب .. ونجحت الجماعات فى أن تنفرد الطالبات بأتوبيسات خاصة بهن .. وخصصت صفوف فى المدرجات لهن ..

ولا يمكن إنكار أن هذه الجماعات نجحت فى تقديم حلول لبعض المشاكل الطلابية .. وكان أن استجابت لها أعداد متزايدة من الطلاب ..

واجهوا مشكلة الدروس الخصوصية بتشكيل مجموعات لمراجعة الدروس فى المساجد .

واجهوا مشكلة ارتفاع سعر الكتاب الجامعى ، بطبع نسخ رخيصة ، وتوزيعها بالمجان أحيانا .

ساهموا فى تدبير المسكن ، والثوب ، والطعام ، للأعضاء .. وكذلك الكتب الدينية ، وجمعوا التبرعات ، وأقاموا الندوات .. وبدأت قوتهم فى التزايد .

ظروف الانفتاح الاقتصادى التى سادت المجتمع المصرى ابتداء من منتصف سنة ١٩٧٤ أعطت فرصة أكبر لهذه الجماعات . لقد جاء الانفتاح بمظاهر استهلاكية تسبب الدوار للفقراء ، ولم يكن أمامهم مفر ، إما الانحراف أو التدين ، وبسبب الانفتاح زادت حدة التناقض الاجتماعى والطبقى بين الطلبة الأغنياء الذى يأتون إلى كلياتهم بسيارات

---

(٥)وصل الضغط على الطلبة اليساريين فى تلك الفترة إلى حد تدخل بعض أعضاء هيئة التدريس فى نتائج المتفوقين منهم ، كما فعلت استاذة فى قسم فلسفة ـ اداب عين شمس ، وقد اثار القضية على صفحات روز اليوسف ، د . فؤاد زكريا .

خاصة وثياب مستوردة دون مراجعة أثمانها، والطلبة الفقراء الذين حفيت أقدامهم كى يقترضوا من بنك الطلبة ما يسددون به مصاريف الدراسة وربع ثمن المذكرات .

وحتى نترجم هذه الأمور إلى واقع حى ملموس ، علينا أن نتأمل تجربة « إلهام » .. إن إلهام اسم خيالى لشخصية حقيقية ، تناولها د . سعد الدين إبراهيم ، كنموذج فى بحث ميدانى له عن حركات العنف الإسلامية (٧٧ ـ ٧٩) تحت رعاية المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية[٦] .

هى الابنة الثانية بين خمسة أبناء ، ينتمون إلى عائلة من الطبقة المتوسطة فى مدينة المنصورة ، الأب يعمل فى مصلحة الضرائب .. الأم ربة بيت .. وهى أول فتاة فى عائلة أبيها وأمها تلتحق بالجامعة .. اجتازت امتحان الثانوية بتفوق باهر ودخلت كلية طب القاهرة .

فى سن الثامنة عشرة انتقلت إلى القاهرة وهى مفعمة بالسعادة التى يخالطها شىء من الوجل والخوف .. كانت المرة الأولى التى تعتمد فيها على نفسها ، بعيدة عن أسرتها .. أصبح لها غرفة فى مدينة الطالبات بجامعة القاهرة .. إلا أن اختلاطها بالناس (فى الكلية والشارع والمدينة الجامعية والأتوبيس) كان يصيبها ببعض الحيرة والارتباك .. « وأكثر ما كان يربكها هو ذلك الوقت الذى كانت تمضيه فى محاولة التواصل مع زميلاتها فى الصف اللاتى ظهرن وكأنهن يملكن أموالاً أكثر ، وملابس أفضل وتجربة أوسع وأعمق .. كانت معرفتهن أوسع بشئون الحياة والجنس والحب والمواعيد الغرامية » .. التبرج .. التدخين . الذهاب مع الشباب فى سيارات .. الخ .

فى أثناء عودتها إلى المنصورة فى أجازة نصف السنة ، قابلت ـ فى الحافلة ـ فتاة محجبة ، جلست إلى جانبها .. وسألتها عن سر تحجبها .. فقالت لها : إنها قد راعها سلوك بنات القاهرة وأنها لا توافق على مهرجان الأزياء باهظة التكاليف التى يلبسنها .. وأوحت إلى إلهام أن بعضا من الفتيات المنحرفات قد يكن عاهرات يعملن فى خدمة السياح الأثرياء !

نزلت إلهام من الحافلة وقد قررت أن تتحجب .. وبكت عندما عارضت أسرتها الفكرة وقالت : إنها لا تريد أن يظن الناس أنها منحرفة .. فاستسلمت الأسرة للقرار .

وعندما سئلت إلهام عن آرائها بخصوص بعض الجماعات الدينية ذات الاتجاهات السياسية العاملة فى الجامعة ، أعلنت بوضوح تأييدها لأهداف تلك الجماعات والمتمثلة فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجالات الحياة كافة ، وذكرت أنها أدلت بصوتها لصالح مرشحى هذه الجماعات فى الانتخابات الطلابية ، وأنها ستتزوج واحداً منهم ، إذا ما أتيح لها ذلك .

---

(٦) د . سعد الدين إبراهيم ـ النظام الاجتماعى العربى الجديد (دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية) دار المستقبل ـ ص ٣٩ ـ ٤٤

ويعلق د . سعد الدين إبراهيم :

« إن هؤلاء الفتيات يؤكدن على واحد أو أكثر من المعانى التالية : هوية أصيلة في مواجهة تقاليد أساليب الحياة الغربية ، اعتراض على ما يبدو أساسين سلوكا منحرفا أو فاسدا في المجتمع ، ثم التخفيف من الآثار الباهظة الناجمة عن ارتفاع معدلات التضخم وذلك بتجنب ارتداء الملابس الغالية ، والحرص على حسن السمعة » .

« إن طالبة الطب المحجبة تمثل استجابة معقدة لعالم معقد من حولها ، عالم لا تستطيع هي السيطرة عليه من قريب أو بعيد ، هذا العالم يشمل سيلا متدفقا من الأجانب ، والثروة النفطية ، والسلع الاستهلاكية الغالية ، والتضخم المرتفع ، فضلا عن أساليب الحياة « الغربية » وعلى الرغم من النجاحات الباهرة التى أحرزتها هذه الفتاة في الامتحانات إلا أنها تجد نفسها مهزومة ، غريبة ، بل تكاد تكون تافهة وسط عالم حضارى لا مجال فيه للفرد ، وللذات ، كذلك فهى تتعلق بـ « تراث » يبدو كأنه يستعيد إحساسها بالجدارة ويحميها من المجهول . ويعيد تأكيد وجودها وشخصيتها » .(٧)

وللإنصاف .. ليست المشاكل المادية ، ولا خشية الاتهام بالانحراف الخلقى ، هى السبب فقط .

إن هناك نماذج توافرت لهن كل وسائل الراحة والمعيشة .. لكن .. لم يجدن الاطمئنان النفسى ، ولا التفسير المناسب لكثير مما يجرى حولهن .

لقد قدر لى أن أتعرف على نموذج من هذه العينة .

جاءت غاضبة إلى مكتبى بمجلة روز اليوسف ، واتهمت كتاباتى بالحرية « الزائدة » .. وبعد الغضب كان الحوار .. ومن الحوار فوجئت أنها ابنة سيدة ثرية ، تعمل في التجارة ، ومثقفة ، لكنها انفصلت عن زوجها ، بعد أن أنجبتها .. وقد تعلمت في إحدى مدارس اللغات الأجنبية ، ودرست في كلية الفنون الجميلة ، وقدمت لها أمها سيارة بعد حصولها على الثانوية العامة ، ولها أخ غير شقيق ، طلق والده أمها ، التى تزوجت للمرة الثالثة .. ويعيش معهما في بيت واحد ..

أحبت ابن الجيران الذى أصبح معيداً في الجامعة ، وسعدت عندما تقدم لخطبتها ، لكن الأم رفضته لأن وظيفته لن تكفى ثمنا للخبز فقط .

وجدت كل شيء حولها يوزن بالنقود .. حتى الحب ، والفن ، والوظيفة .. أحست بصداع مزمن ، فشل الأطباء في علاجه .. اقترحت عليها صديقتها الحميمة .. والمتحجبة الصلاة في المسجد الذى يخطب فيه الشيخ عبد الحميد كشك .. أحست بالراحة .. أمدتها صديقتها بكتب محمد وسيد قطب .. وجدت نفسها ترتدى الحجاب .. ثم النقاب ، وتتحدى أمها وتتهمها بالفرنجة ، والمكسب الحرام ، والتشبه بالرجال ، والبعد عن

---

(٧) المرجع السابق ـ ص ٤٣ ـ ٤٤

الإسلام .. لم تعد ترسم ، ولا تقرأ فى علم النفس الذى كان يستهويها .. تركت بيتها ، وأقامت عند صديقتها ، وجاءت لها صديقتها بشاب تزوجته ، ينتمى إلى إحدى هذه الجماعات .. عاشت معه فى الوادى الجديد !

إن هذا النموذج الذى ولد وفى فمه « ملعقة » ذهب و « سكين » فضة ، بقى عاجزا عن فهم الخلل النفسى والاجتماعى الذى أصاب أسرته .. بتضخيم دور الأم .. وتلاشى دور الأب .. واستحالة الارتباط بمن يحب لأسباب مادية .

وقد حدث ذلك فى منتصف السبعينيات تماما .. مع الانفتاح .

لكن .. من المؤكد أن الذين دفعتهم ظروفهم المادية إلى هذه الجماعات كانوا أكبر من الذين لجأوا إلى الدين باعتباره قرص مهدىء لاضطراباتهم النفسية .

ويقدم د . سعد الدين إبراهيم نموذجا آخر .. للمناضل المسلم الساخط .(٨)

طلال ولد وتربى فى أسرة برجوازية .. الأب موظف حكومى نال تعليمه الجامعى .. الأم ربة بيت تميل إلى التدين .. يوم وقعت هزيمة يونيو كان عمره ١٥ سنة لكنه أحس ـ بسبب وعيه السياسي ـ بصدمة ، جعلته يعتزل غرفته أياما وهو يبكى ويشعر بالاكتئاب المبكر ، واقترحت والدته أن يصلى ويقرأ القرآن ، وفعل .. أحس بالراحة .. وخرج مع أبيه ليحضر اجتماعا سياسيا ، تكلم فيه واحد من كبار مساعدى الرئيس عبد الناصر ، أحس بالحيرة عندما سمع المسئول الكبير يؤكد أن العرب لم يهزموا .

بعد عامين دخل هندسة الاسكندرية ، وفى مصلى الكلية كان من السهل تجنيده فى جماعة صالح سرية ، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفف الحكم لصغر سنه .

إن طلال ومن معه يعرفون أن مواجهة النظام لن تسقطه ، ولكنهم يقولون إن هذه المواجهة « غضبة فى سبيل الله » .. ونوع من « الدعوة من خلال العمل » .. نتيجتها إما النصر أو الشهادة .. « إن فى وجدانهم عداء متأصلا للغرب وللشيوعية ولإسرائيل » ، كما يقول د . سعد الدين إبراهيم ، « وأى حاكم يتعامل مع هذه الجهات أو يصادقها لابد من أن يكون قد خان قضية الإسلام » .. « كذلك فالثروة الفاحشة ، والسفه والإسراف ، فضلا عن الفقر المدقع والاستغلال واغتصاب الحقوق ، كلها لا مكان لها فى إطار مسلم حق » .

وبعض هؤلاء من الطبقات الوسطى بشرائحها العليا والدنيا .. وأغلبهم من الريف أو من المدن الصغيرة ... متفوقون .. أذكياء .. لا يملكون وسيلة واحدة للتفاهم مع من حولهم .. يشعرون بصعوبة المعيشة .. وبقسوة الاستغلال .. ويتعجبون أن يتمتع الأقل منهم موهبة بكل هذا الثراء وكل هذا البذخ .. ومع ازدياد حجم التضخم والفساد تحول

---

(٨) المرجع السابق ـ الصفحات ٤٧ ـ ٥٠

العجب إلى رفض وتحول الرفض إلى تنظيم ، وتحول التنظيم إلى « حركة » وتحولت الحركة إلى صدام .. وتحول الصدام إلى استشهاد ...

| ٨ |

عام اشعال الحرائق !

□ مظاهرات الطعام فى ١٨ و١٩ يناير وإتهام اليسار بتدبيرها □ مباراة بين مرشحى الحكومة ومرشحى الجماعات الإسلامية □ دور الثورة الخومينية □ استضافة السادات للشاه فى مصر □ عملية « تاباز » □ النزول إلى الميادين العامة □ مؤامرة فى المنيا □ الحجاب والجلباب والزواج المبكر مظاهر تقدم الحركة الإسلامية □ الفتنة الطائفية تشتعل فى الصعيد □ شم النسيم ضد الشريعة ! □

لابد ...

أن نتوقف الآن طويلا عند عام ١٩٧٧ ..

فهو عام تفجر بأحداث كبرى ، وتحولات أكبر .

عام انقلابى خطير ، غيرت فيه أغلبية القوى جلودها .. تحالفاتها .. أهدافها .. وأساليبها .. ووصلت فيه عند مفترق الطرق ..

مظاهرات الطعام .. الاتصالات السرية بإسرائيل .. مقتل الشيخ الذهبى .. محاكمة شكرى مصطفى .. رحلة السادات إلى القدس ـ سيطرة الجماعات الدينية سيطرة كاملة على الجامعات .. سقوط التحالف بين الإخوان المسلمين والنظام .. وظهور ملامح الصدام فى أفق التنظيمات الإسلامية الساخطة .

أحداث متتالية .. متدفقة ، جعلت من عام ١٩٧٧ ، عام المخاض المؤلم .. الذى مر على البلاد بلا أقراص مخدرة .. وبلا موسيقى هادئة ..

فى ١٨ و ١٩ يناير انفجرت مظاهرات الطعام .. بدأ عمال المصانع فى حلوان المسيرة ، ولحق بهم طلاب من جامعتى عين شمس والقاهرة .. ثم انضم إليهم باقى العمال والطلاب وعشرات المئات من المواطنين البسطاء الذين مسهم القرار المفاجىء بخفض الدعم ورفع أسعار ٢٥ سلعة أساسية [1] . وهزت المظاهرات القوية أركان نظام السادات ، وشرخت جدران شرعيته ، وفرضت على أنفاسه العد التنازلى .. فكان أن نزل الجيش إلى الشارع لأول مرة منذ يوليو ١٩٥٢ .. وكان أن سقط ما يقرب من ٩٠٠ قتيل وجريح ، واعتقل ١٢٥٠ يساريا ، عدد كبير منهم كانوا طلبة ، وقدرت خسائر المنشآت بنحو ٢٠٠ مليون جنيه .

---

(١) عكست شعارات المظاهرات آراء الشعب فى قرارات السادات .. منها « مش كفاية لبسنا الخيش جايين ياخدوا رغيف العيش » .. « احنا الطلبة مع العمال ضد تحالف راس المال » .. « ياحرامية الانفتاح الشعب جعان مش مرتاح » .. « ياحاكمنا من عابدين فين الحق وفين الدين » .. « ياحاكمنا بالمباحث كل الشعب بظلمك حاسس » .

وقد افرج عن أغلب المعتقلين ، وقدم للمحاكمة ١٧٦ فقط ، حكم على ١٩ منهم بالسجن مدة تتراوح ما بين سنة و ٣ سنوات[٢] وذلك حسب ما جاء فى حيثيات الحكم فى القضية ١٨٢٤ لسنة ١٩٧٧ ورقم ٦٧ لنفس السنة كلى وسط قسم عابدين .

وحسب نفس المصدر اتهمت النيابة اليسار بتدبير المظاهرات ، وقدمت أجهزة الأمن اربعة تنظيمات خلال ساعات ، هى « الحزب الشيوعى المصرى ، والتيار الثورى ، وحزب العمال الشيوعى ، وحزب ٨ يناير . » وقد استغلت إدارة مباحث أمن الدولة هذه الأحداث من اجل تصفية القوى الوطنية المعارضة لسياسة القائمين على الحكم » .. ودافعت المحكمة عن حرية الفكر ، ورفضت الأخذ بصحف الحائط كدليل جنائى . « لأنها حق مباح ممارسته للطلاب فى الجامعات » ، وأضافت ، إن أعمال العنف لم تبدأ إلا عندما تصدى الأمن المركزى للمظاهرات السلمية بالعنف ، بعد ما انتهت مرحلة المظاهرات الشعبية التى أدت دورها وأجبرت حكومة الوسط على أن تعترف بخطئها الدستورى ، وتراجعت عن قراراتها الاقتصادية ، وبدأت أعمال التخريب والنهب والسلب التى قامت بها قلة محدودة من الصبية واللصوص والعناصر المشبوهة من سقط المتاع تحت نظر وسمع بل وتشجيع أجهزة الأمن ليكون ذلك مبرراً لضرب القوى المعارضة والتخلص منها .

وقالت حيثيات الحكم ، إن السبب الرئيسى للأحداث المعاناة الاقتصادية التى تأخذ بخناق الأمة المصرية ، وهى معاناة امتدت لتشمل « مجمل نواحى الحياة والضروريات الأساسية للإنسان المصرى » .. « وفوق ذلك كله استحكمت أزمة الإسكان وتطرق اليأس إلى قلوب الناس والشباب منهم خاصة من الحصول على مسكن وهو مطلب أساسي تقوم عليه حياتهم وتنعقد أمالهم فى بناء أسرة ومستقبل » .

ذلك كله ، فى وقت أغرقت فيه أجهزة الإعلام الشعب فى بحار الأمل ، وتبشره بإقبال الرخاء ، ثم على حين غرة فاجأت الناس بقرارات رفع السلع الأساسية التى تمس حياتهم وأقواتهم اليومية ، فحدث الزلزال .

لم يقتنع السادات بمثل هذا الرأى .

رفض أن يكون ما حدث « انتفاضة شعبية » وأصر على أنها « انتفاضة حرامية » .

رفض أن تكون المظاهرات عفوية ، وأصر على أنها مدبرة بفعل اليسار .

وبهذا الإصرار أجهز السادات على اليسار فى الصحافة ، وبعد إغلاق مجلتى « الكاتب » و « الطليعة » تولت مجلة « روز اليوسف » قيادة صحفية حكومية يمينية .

وبهذا الإصرار أضاف السادات لترسانة القوانين الاستثنائية قوانين مشابهة ، تحكم

---

(٢) لمزيد من التفاصيل نرشح كتاب حسين عبد الرازق ـ مصر فى ١٨ و ١٩ يناير ، الطبعة المصرية ١٩٨٥ ـ دار شهدى . وقد تضمنت هذه الطبعة حيثيات الحكم التى استندنا إليها هنا .

بالأشغال الشاقة المؤبدة على كل من يشترك فى تنظيم تحت الأرض أو يشارك فى أى « عملية إثارة أو تحريض أو تخريب » .

وبهذا الإصرار نزع السياسة من الجامعة ، وأعلن أنها للعلم فقط ، وأمر بإعادة الحرس ، وفرضت رقابة صارمة على مجلات الحائط .. وسيطر أعضاء هيئة التدريس من جديد على الاتحادات الطلابية . وبدا مؤكداً أن شمس اليسار فى الحرم الجامعى على وشك الغروب .

وفى الانتخابات الطلابية التى جرت فى ديسمبر من ذلك العام ازداد صمت الأغلبية ، وكان اليسار فى السجون ، وبدا واضحا أن المباراة بين مرشحى حزب الحكومة « حزب مصر » ومرشحى الجماعات الدينية .. ولم تكن نتيجة المباراة مهمة لأن فوز فريق كان ــ فى نفس الوقت ــ فوزاً للفريق الآخر .

وهكذا .. سيطرت الجماعات الدينية على الاتحادات الطلابية فى جامعات القاهرة ، والأسكندرية ، والمنيا ، وأسيوط .[٣]

وبهذه السيطرة أصبح لهذه الجماعات « شرعية » تمثيل الطلاب . واتخاذ قرارات باسمهم . وبهذه السيطرة أصبح لها دعم مالي مناسب ، هو ميزانية الاتحادات .

وكان أن منعوا الموسيقى ، والتمثيل ، والندوات الأدبية ، والاختلاط ، والرحلات إلا إذا كانت لزيارة المقابر ، ومنعوا المحاضرات فى أوقات الصلاة ، وتدخلوا فى المناهج ، وفى أسلوب الدراسة ، وفى قبول أو رفض المحاضرين .

وكان أن استخدموا العنف لمواجهة كل من لا يستجيب لهم .

وشهروا أيضا سلاح التكفير .

ولم ينته العام ، إلا وكان التحالف ــ بين هذه الجماعات والنظام ــ قد انكسر مثل الزجاج إلى قطع صغيرة مدببة .. وجارحة إن لم تكن قاتلة .

إن الوفاق تحول إلى خلاف .. وتكاثرت السحب السوداء المنخفضة ، التى أنذرت بما هو أكثر من اختلاف وجهات النظر .

ولعل ذلك من طبائع مثل هذا التحالف ، الذى يعقد ــ فى الكواليس ــ بين أطراف لها « تكتيك » واحد ، وأهداف « استراتيجية » مختلفة .

ومثل هذه التحالفات لا تنتهى ــ عادة ــ بفض الشركة بين أطرافها .. وإنما تنتهى بقضاء طرف على آخر .. بحيث لا يذهب طرف إلا بعد سحق الآخر .

وقد بدأ الصدام بين السادات وهذه الجماعات بعد نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية ،

---

(٣) على سبيل المثال فى جامعة الاسكندرية فاز مرشحو الجماعات الإسلامية بكل مقاعد الاتحاد فى كلية الطب ، ولم يخسروا سوى مقعد واحد فى الهندسة ، و ٦ مقاعد فى الصيدلة ، والزراعة ، و ٤ مقاعد فقط فى كلية الحقوق وكانت نسبتهم العامة ٩٢٪ من جملة المقاعد .

وسقوط الشاه ، وفراره ، وانهيار عرش « الطاووس » الذى كان يجلس عليه ،أمام كاميرات التليفزيون التى نقلت ما حدث إلى العالم كله .

أنعشت الثورة « الخومينية » الأمل فى صدور الجيل الجديد من السلفيين الإسلاميين ، وجعلته يتصور أن تكرارها فى بلد آخر مسألة فى متناول اليد .

مجدوا الثورة .. ورفعوا صورة الخوميني .. وترجموا مقالات رجالها !

وأذكر أننى اشتريت بعض الكتيبات المترجمة للدكتور على شريعتى (٤) من معرض للكتب الإسلامية كان فى مبنى كلية الاقتصاد ـ جامعة القاهرة .. فى عام ١٩٧٨ .. وكان بينها كتيب بعنوان « تأملات مسلم بمأزق الشعوب المضطهدة » لاحظت أنه ترجم بعد شهور قليلة من طبعته الإنجليزية الصادرة فى مدينة « هيوستن » الأمريكية ..ولفت نظرى أن د . شريعتى تناول فيه الحضارة الفرعونية ، فشدنى هذا لقراءة مادته .

وكان مما قاله :

« أثناء زيارتى لأفريقيا ، قررت رؤية أهرامات مصر الثلاثة .

« أنصت بكل قلبى لشروحات الدليل حول البناء . علمنا أنه كان على العبيد أن يحضروا ٨٠٠ مليون كتلة حجرية من أسوان إلى القاهرة لإنشاء ستة أهرامات كبيرة وثلاثة أخرى صغيرة ، ثمانمائة مليون كتلة حجرية أحضرت إلى القاهرة من موقع يبعد عنها مسافة ٩٨٠ كيلو مترا لإقامة بناء تحفظ فيه جثث الفراعنة المحنطة .

« من الثلاثين ألف عبد الذين أحضروا الكتل الحجرية الثقيلة ، سحق المئات تحت أحمالهم الثقيلة ..والمكان الذى سألت عنه هو المكان الذى دفنوا فيه ..كان هؤلاء فى نظام العبودية ، من اللاأهمية بحيث دفن المئات منهم فى حفرة جماعية .. أما من بقى على قيد الحياة فكان عليه متابعة نقل الأحمال الثقيلة .

« رأيت فى الحضارة لعنة . أحسست بكراهية مستعرة نحو آلاف السنين من الاضطهاد لأسلافى . عرفت أن مشاعر كل أولئك المدفونين معا فى الحفر كانت ذات يوم مشاعرى . وعدت من زيارتى وكتبت لأحدهم رسالة أشرح فيها ما رسخ عبر السنوات الخمسة آلاف الماضية .

« صديقى ، لقد ضحى بنا من أجل القبور يوم ضحى بنا من أجل القصور .

---

(٤) الدكتور على شريعتى من ابرز المفكرين المناضلين فى الثورة الإيرانية ، يحفظ الإيرانيون كتاباته ، ويعلقون صورته فى بيوتهم ، بدأ حياته العملية كمدرس فى المرحلة الثانوية ، وفى ١٩٥٨ درس فى السوربون العلاقة بين الدين وعلم الاجتماع ، وعند عودته إلى إيران اعتقل ، وبعد الإفراج عنه بدأ التدريس فى الجامعة ، ثم طرد منها ، وفى ١٩٦٨ بدأ إلقاء محاضرات عامة عن تردى التقاليد الشيعية من مستوى الدين الثورى إلى الفساد ..فحقق نجاحا شعبيا مذهلا ، دفع السافاك لاعتقاله سنة ١٩٧٣ ، لكن الضغوط الدولية اجبرت الشاة على الإفراج عنه ، وفى سنة ١٩٧٧ نفى خارج البلاد ، وقبل ان يصل امريكا ، مات فى بريطانيا ، واغلب الظن انه اغتيل ، وقد ضاعف هذا من جنون الإيرانيين به ، وكان ان كرموه كثيراً بعد نجاح الثورة .

وفجأة .. جاء محمد .

« لماذا اختار الله نبيه من بين الرعاة ؟

« هل اختار الله رسوله من طبقتنا ؟

« كان رجل عدل . كان رجلاً قويا ومنظما ، كان رجلا عملت زوجته ، وعانت ابنته الحرمان والجوع فى حياتها مثلنا .

« إننا بحاجة إليه . إننا بحاجة إلى زعامة على شاكلته . فالحضارات والنظم التعليمية والأديان القديمة قبل عهد الأنبياء حولت البشر إلى حيوانات تهتم فقط بالطمأنينة المالية .

« أما هو فرجل يجمع كل الأبعاد فى شخصه .. إنه قائد الطبقة العاملة والمعذبين .. إنه القوة الفعالة المناضلة من أجل سعادة المجتمع . الصدق والإخلاص والصبر والوفاء ومفاهيم الثورة والعدل كانت هى الملامح الرئيسية لرسالته اليومية إلى الجماهير .

« إننا نعمل لحساب الأنظمة والقوى والآلات والقصور القائمة كلها بفضل جهودنا . الثروات تراكمت نتيجة عملنا الشاق ولكن حصتنا منها ضئيلة جداً .

« صديقى ، على ضحى بحياته من أجل هذه الاعتبارات .. الفكر والوحدة والعدل ..

« ورغم أنه لم يستطع تحقيق ذلك ، فقد عمل على أن ينقل إلينا معانى قيادة الجنس البشرى والدين . لقد أقام حياته وحياة عائلته على هذه الشعارات الثلاثة : الفكر والوحدة والعدل . (٥)

انتهى .

ولا بد أن نشير إلى الرؤية الاجتماعية للدين التى يتمتع بها د . على شريعتى .

ولا بد أن نعترف أن هذه الرؤية غائبة عن أعين هذه الجماعات .

لذلك .. فأغلب الظن أنها روجت لها من باب الدعاية والإعجاب بالثورة الإيرانية .. ليس أكثر .

من جانبه .. لم يمانع نظام السادات ـ فى البداية ـ أن يشيد أولئك الشبان بالثورة الإيرانية .. فما دامت الإشادة لا تنطوى على أى انتقاد واضح ، فلا مانع .. ولا اعتراض .

على أن الانتقاد الواضح والصريح والمباشر ، سرعان ما ظهر على السطح ، داخل الحرم الجامعى . وكان السبب قبول السادات باستضافة الشاه ـ بعد أن لفظته حتى الولايات المتحدة الأمريكية ـ فى مصر ، ومعاملته كما لو كان لا يزال امبراطورا فعلاً .

وعلى ما يبدو كان السادات يعتقد أن الأمريكان لن يتخلوا عن الشاه (كما فعلوا من قبل بعد انقلاب مصدق) وأنهم سيعيدونه ـ من جديد ـ إلى العرش .. وأن المسألة مسألة

---

(٥) ما نقلته كان تلخيصا راعيت فيه الدقة قدر استطاعتى ، ولم اشا نقل النص الكامل ، لأن الهدف كان مجرد ذكر مثال على ما روجت له الجماعات الدينية بعد الثورة الإيرانية .

وقت .. فكان إكرامه ـ فى رأيه ـ واجبا ، كما كانت الصداقة القديمة بينهما سببا إضافيا .. ثم كان اعتباره الشاه مثلا أعلى ونموذجا يحتذى به ، سببا ثالثا .. ثم كان تقدير الغرب له بعد استضافة الشاه سببا أخيراً .

لكن ...

ذلك قوبل بالغضب من الجماعات الدينية .

لقد أكرم وفادة عدو الثورة الإسلامية وعدوهم .. فلابد أنه مثله !!

فى يوم ٣ أبريل ١٩٨٠ ، تجمع مئات من أعضاء الجماعات الإسلامية فى أحد مدرجات جامعة أسيوط ، وهاجم أمراؤها السادات ، لأنه منح الشاه رعايته وحمايته وسمح له بأن يدنس أرضنا الطاهرة .

ولفت ما حدث أنظار وأسماع أجهزة الأمن ، التى راحت ـ بعد ذلك ـ تترصد مثل هذه الاجتماعات ، وتحاول فضها .. فكان الأمر ينتهى دائما بالصدام والعنف والدماء .. لكن .. كانت الأوامر تصدر بالإفراج عمن اعتقلوا .. ذلك أن النظام كان يضرب ويحنو فى نفس الوقت .

بعد فترة وجيزة من لقاء ٣ أبريل الشهير ، أراد الرئيس الأمريكى جيمى كارتر إنقاذ سمعته ، وسمعة بلاده ، فقرر القيام بعملية خاطفة لإنقاذ الرهائن الأمريكيين فى إيران وقد فشلت هذه العملية التى عرفت باسم « تاباز » وانحدرت معها شعبية الرئيس كارتر وشعبية الرئيس السادات ، الذى اتضح أنه سمح للطائرات الحربية الأمريكية باستخدام المطارات المصرية فى تنفيذ العملية .. وتضاعف حجم الغضب والسخط عليه فى صدور الجماعات الإسلامية .. فها هو لا يكتفى باستضافة الشاه ، وإنما يسهل القيام بعملية عسكرية ضد الثورة الإسلامية الإيرانية أيضا .

وزاد الطين بلة .. زيارة السادات الشهيرة إلى القدس .. التى انتهت باتفاقية الصلح مع إسرائيل . أو مع « اليهود » .. أشد الناس عداوة للمسلمين . فكان أن تمزقت شعرة « معاوية » بين السادات ، والمسلمين الشبان الساخطين .. ووصل الطرفان إلى مفترق الطرق .

عبرت الجماعات الإسلامية عن غضبها من السادات بكل وسائل الفوران المتاحة وغير المتاحة .. الاجتماعات .. المنشورات .. الشعارات .. الصدامات .. وصلاة « العيدين » فى الميادين الكبرى فى المدن الكبرى ..

إن هذه الصلاة الجماعية فى الميادين والشوارع ، بدأت عام ١٩٧٦ .. فى ميدان عابدين حيث المقر الرسمى للحكم . وفى ستاد الأسكندرية .. وكان العدد يتراوح ما بين ١٠٠ ـ ١٥٠ ألفا .. يرتدون « الجلاليب » البيضاء ، ويرفعون الصوت الموحد بالتكبير .. الله أكبر .. الله أكبر .. لكن النظام لم يعترض على ذلك .. بل شجعه .. وحمى المصلين بقوات

الأمن .. بل وسمح بجمع التبرعات قبل الصلاة وبعدها .. وبلصق المنشورات التى تدعو لها على الجدران .

لكن .. بعد أن أخذت هذه الجماعات موقف المعارضة ، لم يعد النظام يتقبل ذلك .. إلا انه لم يجرؤ على منع الصلاة خارج المساجد ، وإن كان قد أغلق معسكرات الجماعات الصيفية فى صيف ١٩٧٩ بواسطة قوات الأمن المركزى ، وكانت هذه المعسكرات لطلبة جامعات القاهرة والأسكندرية والزقازيق .

وفى الحقيقة .. كانت هذه المواجهة ـ على بطشها ـ متأخرة .. إذ أن هذه الجماعات أصبحت من القوة بحيث تمكنت من مد ذراعها إلى خارج الجامعة .. أصبحت قادرة على فرض الفضيلة كما تراها فى شوارع مدينة أسيوط ولم تتردد فى استخدام العنف فى ذلك .. وعقدت مؤتمرا لها فى جامع صلاح الدين فى حى المنيل بالقاهرة وعقدت مؤتمرا آخر فى جامع « أبى قير » بالأسكندرية .

وفى أبريل ١٩٧٩ ، ألقى السادات خطابا فى مدينة أسيوط هاجم فيه الجماعات الإسلامية ، ووصفها بالسعى وراء أهداف سياسية تحت عباءة الدين .. ولأنه لم ينس عقدته النفسية المزمنة تجاه اليسار ، لم يتردد فى أن يقول : « إن الشيوعيين يحركون هذه الجماعات متسترين بالجلباب الأبيض » .(٦)

ولأن النظام لم يجد أمامه إلا نظرية « المؤامرة » فقد أعلن السادات أن أجهزة الأمن القت القبض على طالب ، عضو بإحدى هذه الجماعات فى المنيا ، ومعه ٨٠٠ جنيه ، ثبت أنها جزء من تمويل أجنبى ، لتحطيم الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط .

ولأن النظام لم يجد أمامه إلا البطش الإدارى ، فقد عطل أحد أعداد مجلة « الدعوة » .. وتلا ذلك حظر نشاط الاتحاد العام للطلاب ، وتجميد أمواله .. وحرمت الجماعات الإسلامية من غطائها القانونى .

ومرة أخرى كانت هذه القرارات ـ على بطشها ـ متأخرة ..

فقد كان شباب الجماعات الإسلامية قد وصل إلى مرحلة لا يتحدث فيها عن الجامعة ، وإنما عن المجتمع ... المجتمع الإسلامى .

أصبحت هذه الجماعات لا تتحدث عن نفسها .. إنما عن الآخرين .

أمام الرئيس السادات ، فى أسيوط ، قال أحد الأمراء للرئيس :(٧)

إنه (أى الرئيس) يبدى اهتماما ملحوظا بحفظ مومياء رمسيس ، مع أن مصر إسلامية وليست فرعونية .. إنها أرض عمرو بن العاص لا رمسيس الثانى .. وإن شباب الجماعات الإسلامية هم المعبرون الحقيقيون عن مصر ، وليس رواد شارع الهرم

---

(٦) الأهرام ١٩٧٩/٤/١٦ .

(٧) جيلس كيبل ـ النبى والفرعون ـ الطبعة الإنجليزية ـ دار الساقى ـ لندن .

والمسارح والأفلام .. إن مصر ليست العرايا ولكن النساء المحجبات اللاتى يأتمرن بأمر السماء .. إن مصر هى الشباب الذى يطلق لحاه .. إنها أرض الأزهر .

وبمناسبة الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجرى ، كتب أحد أقطاب الجماعات الإسلامية ، الطبيب الشاب عصام الدين العريان مقالا فى « الدعوة»، قال فيه : (٨)

« إننا الآن نقف عند فجر الصحوة الإسلامية ، والتى سوف تزداد إذا قامت الحركة الإسلامية بتحمل مسئولياتها »

ثم .. حدد العمال والطلاب كقوتين تقوم عليهما الحركة الإسلامية ، « من الدار البيضاء إلى جاكارتا » على حد تعبيره .

ثم .. أكد أن دليل تقدم الحركة الإسلامية يتمثل فى :

١ ـ ارتداء النساء الحجاب .. « لأنه رمز لمقاومة الحضارة الغربية وبداية الالتزام بالإسلام » .

٢ ـ ارتداء الجلباب وإطلاق اللحية للرجال .

٣ ـ الزواج المبكر .

٤ ـ أداء الصلاة فى العيدين .

إن هذه العلامات ـ فى رأيه ـ دليل على أن الحركة الإسلامية لا تزال قائمة .. « والتى تمثل فيها الجماعات الإسلامية الطليعة » !!

وضاعف خروج الجماعات إلى المجتمع من سطوتها فى الجامعة .

فى مارس ١٩٨٠ ، حاصر مئات من أعضاء الجماعات مكتب عميد كلية « العلوم » جامعة الأسكندرية ، واحتل عشرة منهم المكتب من الداخل ، لمدة ثلاث ساعات ، ثم وجهوا إليه إنذاراً شديد اللهجة بوقف التحقيقات مع أعضاء الجماعة ، والسماح بعقد مؤتمر إسلامى ، ورفع القيود عن ترشيحات الطلبة السلفيين فى انتخابات اتحاد الطلبة (٩) .

فى ذلك الوقت ، وقعت أحداث مشابهة فى عدد من الجامعات الإقليمية فى الوجهين البحرى والقبلى .

وعندما انفجرت أحداث الفتنة الطائفية كان لأعضاء هذه الجماعات نصيب من الصدام .

فى أبريل ١٩٨١ .. فى المنيا .. هاجم فلاحون مسيحيون آخرين مسلمين ، وأطلقوا عليهم النيران ، فى حادث من الحوادث اليومية التى يعرفها ويشتهر بها الصعيد كان النزاع على أرض .. ولكن لأن المسلمين لاحظوا أن المسيحيين مسلحون تسليحا شديداً ، تحول الحادث من نزاع معتاد إلى « دراما وطنية ذات طابع عالمى خفى » كما علق الباحث الفرنسى جيلس كيبل .. الذى أضاف أن الفلاحين الأقباطى ـ فى قمة الصراع ـ هاجموا

---

(٨) و (٩) المرجع السابق .

بغطرسة الإسلام .. رد المسلمون على الرصاص بالرصاص وسقط قتلى ، وجرحى دخلوا مستشفى المنيا العام .

وتدخلت الشرطة وقبضت على المتهمين ، وجمعت السلاح ، لكن ذلك لم يمنع اشتعال نيران الفتنة .. وحسب بيان للجماعة الإسلامية هناك ، طلب وزير الداخلية النبوى اسماعيل ، من أمير الجماعة حلمى الجزار ، تهدئة عائلات المسلمين ، بعد أن أشعلوا النيران فى مبانى الشرطة ، مقابل الإفراج عنهم .. وحدث ذلك فعلا يوم ١١ أبريل يوم رجوع السادات من زيارته الأخيرة لأمريكا .. وفى هذا اليوم ـ يضيف البيان ـ قبض على امراء الجماعات فى المنيا وأسيوط ، وأوقفت الدراسة ، وتساءل البيان : « هل كان هذا نتيجة لضغط من الصليبيين الأمريكيين لضرب الحركة الإسلامية فى مصر ؟ »

لقد قفزت الجماعات الإسلامية من تسلسل الأحداث ، إلى اعتبار ما حدث جزءاً من مؤامرة صليبية أكبر .. وبدت ـ فى هذا التحليل ـ كما لو كانت مع القانون ، وأن الأقباط هم الخارجون عنه . (١٠)

إن الفتنة الطائفية كانت ـ فى الحقيقة ـ محاولة رسمية مدبرة لإشعال حريق ، يكثر فيه الدخان بحيث يغطى عجز النظام عن التعامل مع المشاكل الداخلية المزمنة .. لكن ـ الحريق زاد عن الحجم المتوقع له .. وتخطى حدود قدرة النظام على الإطفاء ، فلم يجد السادات ـ بعد أن أفلت الزمام من يده ـ سوى فقد الطرفين والبطش بهما .. ومواجهة أنصارهما وتصرفاتهما بجيش بوليس ، يقوده اللواء النبوى اسماعيل .

ومن جديد لجأ النظام إلى أسلوب « المؤامرة » .

وفبركت أجهزة الأمن ـ هذه المرة ـ خيوط مؤامرة يقودها مسيحى ، يعيش فى موسكو ، نشرت الصحف فى ٨ سبتمبر ١٩٨١ خطابات يسخر فيها من المسلمين .

كان ذلك رداً على أحداث الفتنة الطائفية فى الزاوية الحمراء (يونيو ١٩٨١) ولم ينس السادات ـ فى الرد ـ أن يشير إلى أصابع الشيوعيين فى المؤامرة .. وإلى الاتحاد السوفيتى بوضوح هذه المرة ، الذى قطع العلاقات معه فى ذلك الوقت أيضا .

وبدلا من أن يطفىء السادات الحريق ، زاده اشتعالا .

كأنه تعمد استخدام البنزين بدلا من الماء !

فالصحف الحكومية ، نشرت ـ رداً على المؤامرة الصليبية الشيوعية ـ بيانا من الجماعة الإسلامية فى الأسكندرية يحذر من الاحتفال بيوم « شم النسيم » لأنه يأتى فى اليوم التالى لعيد القيامة عند المسيحيين ، مع أن شم النسيم عيد فرعونى ، لا قبطى .

واعتبار البيان أجازة نهاية الأسبوع فى يوم غير يوم الجمعة خرقا للشريعة .

---

(١٠) المرجع السابق .

لكن ..ذلك لم يمنع النظام من القبض على عدد كبير من قيادات الجماعات الإسلامية فى حملة سبتمبر الشهيرة ..

ولم يمر إلا شهر وأيام ، حتى جاء الرد .. قتل السادات ..

على أن قتل السادات ، لم يكن الأول من نوعه .. ففى يوليو ١٩٧٧ كانت بداية هذا النوع من الاغتيالات ، حين وجدت جثة وزير الأوقاف الأسبق ، الشيخ الذهبى ، فى أحد أوكار جماعة عرفت واشتهرت باسم جماعة التكفير والهجرة .

كان هذا الحادث إشارة تحذير لم ينتبه لها السادات .

فكان .. ما كان !

| ٩ |

خليفة الله على الأرض !

□ الأزهرى الذى أسس « جماعة المسلمين » □ من هو شكرى مصطفى ؟ □ ظروف البيئة وتكفير المجتمع □ صورة الدولة فى عيون المطاريد □ عبد الناصر يتساءل : أين الخطأ ؟ □ المنظمة والفراغ السياسى □ الهجرة إلى اليونان □ الحياة فى كهوف جبال الصعيد □ بقايا تنظيم صالح سرية ينضمون إلى تنظيم شكرى مصطفى □ خطف البنات □ زوجة الأمير تتحدث □ سجل مدنى لأعضاء التنظيم □ رفض التعليم □ تصفية المنشقين □

قبل أن ينكشف تنظيم صالح سرية ، كان تنظيم شكرى مصطفى معروفا لأجهزة الأمن .

إن شكرى مصطفى دخل السجن ، فى قضية الإخوان المسلمين سنة ١٩٦٥ .. كان لا يزال طالبا بزراعة أسيوط ، وضبط وهو يوزع منشورات ، فقبض عليه ، وانضم إلى مئات من الشباب ، عاشوا تلك المحنة ، وعرفوا وراء جدران الزنازين الرطبة ، الطريق إلى تكفير المسلمين ، ووصفهم بالضلالة ، ووصف المجتمع والسلطة بالجاهلية المشابهة لجاهلية ما قبل الإسلام .. أو أشد .

٦ سنوات كاملة قضاها طالب « الزراعة » شكرى مصطفى فى سجن « طرة » و « أبى زعبل » .. من صيف ١٩٦٥ إلى صيف ١٩٧١ .. وخلال تلك السنوات عرفت أفكار وكتابات « المودودى » و « سيد قطب » طريقها إليه .. وإلى غيره من الشباب الذين اعتقلوا على ذمة الإخوان المسلمين ، مع أن بعضهم لم يكن عضواً فى الجماعة . وعددا ليس بقليل منهم لم يتعرف عليها إلا داخل السجن .

فى السجن انضم شكرى مصطفى إلى « جماعة المسلمين » وهى جماعة أسسها شاب أزهرى اسمه « علي عبده اسماعيل » . لتكون نواة المجتمع الإسلامى الجديد ، الذى سيقوم على أنقاض الكفر والجاهلية .. وهو أول من أقام تنظيما دينيا يبدأ أفراده بالعزلة عن المجتمع ، ومقاطعته ، والهجرة بعيداً عنه ، فإذا تمكنوا من قوتهم ، أعلنوا الجهاد وسعوا إلى إسقاطه ، والسيطرة عليه ، وتطهيره من الدنس وإقامة مجتمع العقيدة بدلاً منه ، وإعادة الحكم ـ فيه ـ إلى الله .

وقد رفض بعض الشباب ، وكل الكبار فى السجن هذه الأفكار .. فكان أن اعتبرهم علي عبده اسماعيل جزءاً من ذلك المجتمع الكافر .. أى كفاراً .. وأصابت العدوى باقى الجماعات .. فراحت كل منها تكفر الأخرى .. وأعلنوا الحرب الباردة على بعضهم البعض . فلا سلام ، ولا كلام ، ولا نقاش .. ثم ـ وهذا متوقع مع فوران الشباب ـ قلبوا الحرب الباردة إلى حرب ساخنة .. وبدأت معارك الأيدى .

وتدخل حكماء الإخوان .

وبدأ المرشد العام « حسن الهضيبى » يجمعهم كل يوم ، ويقنعهم بعدم صحة أفكارهم ، وبعدم جدوى تصرفاتهم .. وكان المرشد العام ، يعتقد فى نهاية كل لقاء أنه أقنعهم .. وأنهم عدلوا عن طريقهم .. لكنه .. سرعان ما كان يكتشف أنهم عادوا سيرتهم الأولى .

فكان أن أملى كتابه الشهير « دعاة لا قضاة » .

وكان أن هداه الله إلى فكرة الانفراد بزعيمهم الشاب . وبعد مناقشات ، ومناقشات ، نجح حسن الهضيبى فى مهمته .

وفى يوم من أيام سنة ١٩٦٩ ، أَمَّ « علي عبده إسماعيل » جماعته .. وبعد أن سلم وانهى الصلاة ، قام وخلع جلبابه ، وقال :

« إننى أخلع فكرة التكفير كما أخلع جلبابى هذا » !

والعبارة شهيرة جداً إلى الآن فى أوساط الشباب السلفى .

وفوجىء الجميع ..

واستجاب له الجميع ..

ما عدا شاب واحد أخذه العناد « الصعيدى » إلى مداه ، وأصر على فكرة التكفير وما بعدها .

وكان هذا الشاب بالطبع شكرى مصطفى .. الذى أصبح فى ذلك الوقت أمير « جماعة المسلمين » .. وهى الجماعة التى اشتهرت ولا تزال باسم « جماعة التكفير والهجرة » .

وهكذا ..

انتقلت فكرة التكفير إلى شاب ، كانت ظروفه البيئية والاجتماعية والعائلية ـ مع ضغوط المجتمع السياسية والأمنية ـ بمثابة العنكبوت الذى يقبض على ما يصل إليه ولا يتركه يفك من شباكه ، إلا بالاختناق .. إلا بالموت ..

بقى شكرى مصطفى « وحيداً » فى السجن .. « مهجوراً » من الآخرين .. « معزولا » عنهم .. عاش حلقة أخرى من حلقات « الانكماش » إلى « الداخل » حتى أفرج عنه فى سنة ١٩٧١ .

□□

ولد شكرى أحمد مصطفى فى أول يونيو سنة ١٩٤٢ ، فى قرية « أبو خرص » مركز « أبو تيج » محافظة أسيوط .. والده كان عمدة القرية ... كان متزوجا قبل أن يتزوج والدته .. وكانت والدته أرملة قاض شرعى ، وقد كان شكرى وحيد والدته من العمدة .

الذين يعرفون طبيعة القرية التى ولد وتربى فيها شكرى مصطفى « وأنا منهم »

يمكنهم أن يفسروا جنوحه للعزلة الذى صاحب حركته فيما بعد .. فهذه القرية قريبة من سلسلة جبال هائلة تمتد من المنيا إلى ما بعد سوهاج ، وتقع على الجانب الآخر من النيل .. وتمتلىء هذه الجبال بالمغارات والكهوف التى يعيش فيها الهاربون من القانون ، والذين يسمون « المطاريد » . ويرتفع معدل الفقر هناك ومعدلات الجريمة أيضا .. خاصة جريمة القتل بسبب الثأر .. ولأسباب أخرى بعضها بسيط للغاية .. والعنف وحمل السلاح وإجادة استخدامه جزء من طبيعة الرجال فى هذه المنطقة .. جزء من هويتهم .. وبحكم كون هذه المنطقة بعيدة عن الاهتمام ، كان نصيبها من الخدمات ضعيفا .. إن لم يكن معدوما .. وبحكم أن الناس تعيش فى شريط أخضر ضيق ، يلتصق بالجبال ، و لايغرى بالتوسع والازدهار ، عاشت هذه المنطقة فى عزلة عن مصر كلها .. ولا تزال .. عاش أهلها فى حالة « هجرة » بعيداً عن المجتمع ، رغم أنهم جزء منه .. ورغم أنهم لا يعتنقون أفكار التكفير والهجرة .

إن الدولة لم تفعل ما يثبت أن تلك المنطقة جزء منها .

فعاش الناس فيها وكبروا وماتوا وهم لا يشعرون بوجودها ، ولا نفوذها ، ولا تأثيرها .. فكونوا لأنفسهم دولة أخرى .. لها قوانينها الخاصة ، وطبيعتها الخاصة ، وعلاقاتها الخاصة !!

وفى الحقيقة كانت الدولة بالنسبة لسكان تلك المنطقة عبارة عن « بعبع » لا يرون منه سوى الجانب الشرس فقط .

صورة الدولة الوحيدة فى عيونهم كانت صورة قوات الأمن التى ترتدى « الكاكى » والخوذة ، وتأتى مسلحة ، للقيام بتمشيط الجبال ، وحملات التأديب ، والقبض على المطاريد .. وقد كانت هذه القوات تتجاوز حدود اللياقة والمعاملة الحسنة .. كانت تتعامل دائما بالخشونة والعنف ، وتعامل الأهالى معاملة المجرمين .

وعندما أرادت الحكومة أن ترصف الطريق الممتد بحذاء سفح الجبل ـ فى السبعينيات ـ كان ذلك لأسباب أمنية .. ترتبط بسرعة تحرك وانزلاق معدات الجيش والشرطة على الأسفلت .

إننا لا نتعجب من أن يستجيب شكرى مصطفى للانعزال والهجرة .. وأن يقنع أعضاء جماعته بسكنى الكهوف والمغارات .. فهذه بيئته الطبيعية التى ولد وعاش فيها .. ولم يشعر بالغربة وهو يتفاعل معها ويستجيب إليها .

ولا نتعجب من أن يتمرد على سلطة الدولة « المركزية » فهو ابن من أبناء منطقة « منسية » ، لا صلة لها بالحكومة ولا بالسلطة المركزية .

ولابد ونحن نتعرض لطبيعة البيئة التى عرفها شكرى مصطفى ، أن نتعرض أيضا لظروفه العائلية .

بعد حوالى عامين من ولادته شب نزاع بين والده ووالدته ، فحملته معها إلى أقاربها فى مدينة أسيوط .. وبعد مطاردات ونزاعات وقع الطلاق !!

ولا نريد أن نحمل الأمور أكثر مما تحتمل ، ولا أن نتورط فى نظريات التحليل النفسى .. لكن لابد أن صورة الأب (الرمز الأول للسلطة) كانت صورة سيئة .. كما أن التصاقه وارتباطه بأمه (الرمز الأول للعطاء) قد ضعف ، عندما تزوجت من رجل آخر .

وقد قدرله أن يكون جزءا من أسرة كبيرة ، دون علاقة قوية ، طبيعية معها ، وأن يكون له عدد لا بأس به من الأخوة ، والأخوات غير الأشقاء ، لم يكن يعرف أغلبهم .

فى مدينة أسيوط ، عاش شكرى مصطفى صباه فى بحبوحة من العيش ، بسبب ثراء عائلة والدته .. وهو ثراء عرضها إلى متاعب بسبب أساطير كانت تتداول عن مطاردة الحكومة للأغنياء .

لكن .. على عكس عادة أغنياء الصعيد (الذين يعلمون أولادهم فى مدارس الراهبات والإرساليات) تعلم شكرى فى إحدى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية .. التى لم يكن يقبل عليها ـ فى تلك الأيام ـ سوى أبناء الفقراء .. فهل ضاعف ذلك من إحساسه بالعزلة ؟!

حصل على الثانوية العامة بمجموع ضعيف .. فلم يجد أمامه سوى كلية الزراعة .. التى لم تحظ ـ فى ذلك الوقت ـ بشهرة محلية مثل كلية الهندسة .

وقبل أن يقطع شوطا مناسبا فى دراسته الجامعية قبض عليه .. ودخل السجن .

إن عدداً قليلاً من الذين قبض عليهم كانوا من الإخوان المعروفين لدى جهات الأمن .. لكن .. الغالبية العظمى كانوا من الشباب الذى لم يكن معروفا من قبل .. كانوا صغاراً يوم جرت اعتقالات شتاء ١٩٥٤ .. (على سبيل المثال كان عمر شكرى مصطفى حوالى ١١ سنة)

وقد لفتت هذه الملاحظة انتباه عدد من المثقفين التقدميين . فسارعوا بإضاءة الضوء الأحمر ، وطالبوا بالبحث عن تفسير واقعى لما حدث للشباب فى سنة ١٩٦٥ .

وكان السؤال : كيف نجح الإخوان وهم فى السجن فى إقناع الشباب بأفكارهم ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك فى وقت اندفع فيه المجتمع المصرى لتحقيق أحلامه القديمة ، فى وقت كان فيه الإنجاز الوطنى والقومى أكبر ؟ .. ما الذى دفع الشباب ـ الذى تفتح وعيه على مجتمع جديد ـ أن يتجاوز ما يحدث ، ولا يتفاعل معه ؟

فى مناقشات التنظيم السياسي فرضت علامات الاستفهام نفسها على القيادة وعلى التجربة .. وتابع جمال عبد الناصر كل الحوار وشارك فى بعضه ، وأضاف إلى الأسئلة ـ التى راحت تتدفق ـ سؤالين حسما الكثير من الجدل النظرى :

١ ـ أين الخطأ ؟



عبد الناصر : تساءل عن الخطأ فى انتماء الشباب إلى الإخوان

٢ ـ ما العمل ؟

كان السؤال الأول يحمل اعترافا بالتقصير !!

وكان السؤال الثانى يحمل رغبة فى الإصلاح !

اعترف النظام الناصرى بأنه ترك الشباب مهملا .. ينهشه الفراغ ، ويجعله عرضة للانحراف أوللتطرف .. واعترف أن الإنجاز المادى لا يكفى .. لابد من تقوية البناء النفسى أيضا .. لابد أن يعرف الشباب ما حدث . وما الذى يحدث ؟ .. لابد أن يشارك فيما سيحدث لا أن يكتفى بالفرجة ثم يكون التمرد .. وبعد أقل من عام كانت شبكة من المعسكرات السياسية تنشأ فى أطراف المدن الكبرى (مثل الهرم ومصر الجديدة وأبى قير) وتستعد لاستقبال دفعات أكبر من شباب أصغر ، أصبحوا (بعد دورات ثلاث) أعضاء فى منظمة الشباب الاشتراكى ، التى كان أول أمين لها طبيب الأطفال د . حسين كامل بهاء الدين .

ولو تجاوزنا عن بعض الأخطاء البسيطة ، لكان من حقنا أن نقول إن المنظمة كانت نواة لثورة ثقافية ، كان من الممكن ـ لولا الطعنات القاتلة ـ أن تفعل الكثير .. إذ نزل شبابها المثقف ينظف الشوارع ، ويراقب الأسعار ، ويشارك فى محو الأمية .. ويسعى للتدريب على السلاح ليكون احتياطياً شعبياً للدفاع عن الوطن والموت فى سبيله .. لكن .. ذلك بالتأكيد أفزع الكبار .. فراحوا يحاربونها .. وسعوا للقضاء عليها .. وقد كان .

لقد انتبه النظام الناصرى إلى أن الشباب يعيش نوعا ما من الفراغ السياسي ، وأن هذا الفراغ كان فرصة للتيار السلفى لكى يدخل .. ويملأه . لكن هذا الانتباه ـ على ما يبدو ـ جاء متأخراً بعض الوقت .

ومما لاشك فيه أن قيام المنظمة بملء ذلك الفراغ قد أعطى الفرصة لأجيال عديدة من الشباب لكى تفهم وتستوعب وتتجاوز ما وقع فيه غيرها .. إلا أن الأحداث لم تمهل التجربة الوقت لكى تجنى ثمارها .. وقعت الهزيمة ، وتحولت المنظمة إلى مجرد شكل .. وخرجت من الجامعة ، ثم من الوجود ، وعاد الشباب من جديد للفراغ المدمر .

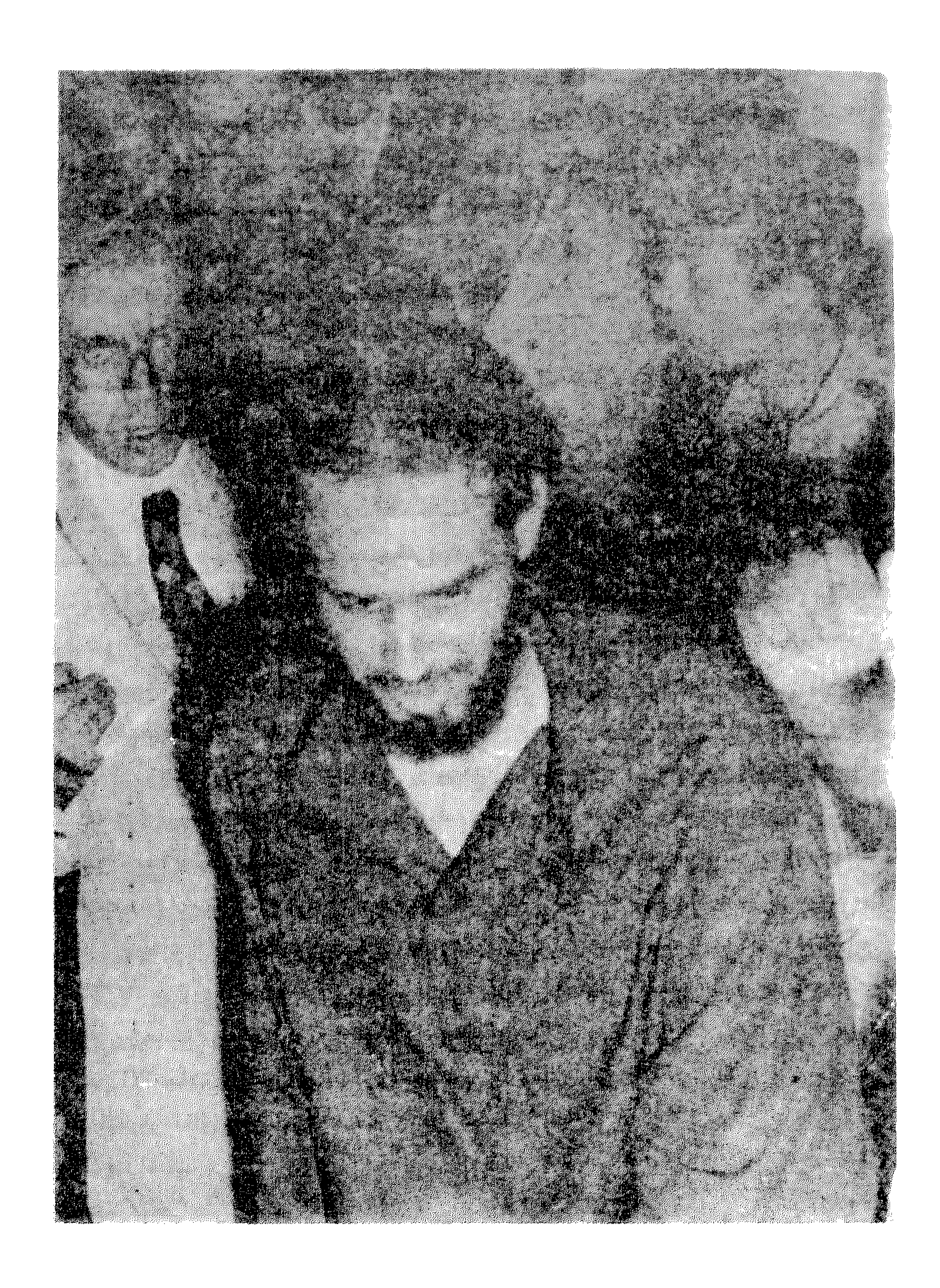
□□

خرج شكرى مصطفى من السجن .. إلى أسيوط .

لكن ...

قبل أن نتابع خطواته ، لابد أن نقول إنه وهو فى سجن « طرة » كان يبحث فى مجال لم يطرقه من قبل علماء المسلمين .. مجال يعرف بأحاديث آخر الزمان .

كما أنه وهو فى السجن اختلف مع أنصار التكفير حول المقصود بالهجرة .. البعض كان يرى الهجرة ، هجرة إلى الذات .. وهذا يعنى مقاطعة المجتمع رغم وجودهم فيه (لا يدخلون الجيش ولا يخدمون فى الشرطة ولا يوظفون ولا يتعاملون أبداً مع الآخرين ،



شكري مصطفى : البداية اكتوبر ١٩٧١ .

والمهنة الوحيدة التي يمارسونها فلاحة الأرض ومنها يأكلون) .. أما البعض الآخر .. الأكثر تشدداً فكان يرى أن الهجرة هجرة كاملة .. بعيداً .. بعيداً عن أية شبهة اتصال بالمجتمع .. وقد كان أنصار الاتجاه الأول يخشون بأس الدولة ويرفضون تحديها .. لذلك فأغلبهم لم يكشف أمره حتى الآن .. أما أنصار الاتجاه الثانى فكانوا ـ على ما يبدو ـ قادرين على المواجهة .

وكان أبرز هؤلاء ـ بالقطع ـ شكرى مصطفى .

وحيداً ..

بدأ شكرى مصطفى تنظيمه .. تنظيم « جماعة المسلمين » .

عاد إلى مسقط رأسه يبحث عن أعضاء يمكن تجنيدهم .

ولابد .. الآن أن تكون أسباب القهر ـ التى نسب لها تكوين العنف الدينى فى طور ما بعد الإخوان ـ قد أصبحت أسبابا ضعيفة .. أو على الأقل لابد أن تكون قد أضيفت لها أسباب أخرى . فها هو شكرى مصطفى يخرج من السجن إلى الحرية بقرار من السلطة الجديدة .. وجمال عبد الناصر مات .. والعهد الجديد لم يكن قد ارتد عن أحلامه وشعاراته البراقة بعد .. لكن .. رغم ذلك لم يلتفت شكرى مصطفى إلى ما حوله ، وخرج من السجن إلى هدفه كالمنوم بالسحر .. مصراً ـ بعد إعداد العدة ـ على المواجهة .

فى أسيوط ، كان أول من جنده شكرى مصطفى ، ابن شقيقته ماهر عبد العزيز بكرى ... الذى انقطع عن الدراسة ، وانضم إلى التنظيم ، ووصل فيه إلى حد اعتباره خليفة شكرى مصطفى الذى يرأس التنظيم بعده ، إذا مامات أو قبض عليه .

ثم .. بدأ التنظيم يتسع .. ويتسع حتى وصل عدد أفراده فى خمس سنوات إلى خمسة آلاف عضو .. بينهم من لا يزيد عمره على ١٤ سنة (مثل طه حسن الزينى) وبينهم من يصل عمره إلى ٧٠ سنة (مثل عثمان رفاعى عثمان) .. وفيهم نساء وفتيات .. وفيهم أسر كاملة .. رجل وزوجته وأولاده .. أو شاب وشقيقاته .. أو آخر وأشقائه .. وعدد كبير منهم طلبة .. بجانب موظفين ، وتجار صغار ، وعاطلين .

من الإنصاف أن نقول إن شكرى مصطفى كان قادرا على التأثير فى الآخرين ، ويدعم ذلك الحوار التالى مع أحد الأعضاء الذين انضموا إليه :(١)

س : اسمك ؟

جـ : قطب سيد حسن .

س : سنك ؟

جـ : ٢٩ سنة .

س : عملك السابق والحالى ؟

---

(١) جريدة الأهرام ـ يوليو ١٩٧٧ ـ بعد حذف عبارات السب منه .

جـ : السابق كنت من دعاة جماعة التكفير والهجرة ، والعمل الحالى طالب بطب الأزهر ، السنة النهائية .

س : اسمك الحركى ؟

جـ : أبو سلمة .

س : ما ظروف انضمامك للجماعة ؟

جـ : أنا أصلا حاصل على الثانوية الأزهرية وعندى ميول دينية فبدأت أذهب إلى شكرى مصطفى بعد أن عرفت أنه يتحدث فى الدين .. ذهبت إليه فى أسيوط ، استمعت إليه ، فلقيته يرفع شعار الكتاب والسنة ، ولقيت بعض المظاهر الدينية الأخرى مثل اللحية والملابس السوداء وحلاقة الشعر ، فأخذتنى هذه المظاهر ، وانضممت إليه ، وابتدى هو يمنعنا من دراسة كتب التاريخ الإسلامى .. كتب السلف الصالح .. كثير من الأحاديث منعها عنا .. وكانت دراستنا أصلا ماكتب هو فقط .. وكان يقول ، إن السلف السابق كلامهم فارغ .. فكرهناهم .

بعد مدة أنا سافرت لليونان هجرة .. وكنت أول من هاجر إلى هناك تطبيقا لمبدأ الهجرة !

س : لماذا اليونان ! أليس المفروض أن تسافر إلى بلد إسلامى ؟

جـ : كان التفكير الأول الهجرة إلى بلاد أوروبا لأن فيها أماناً أكثر من الدول العربية قعدت فيها حوالى شهرين ونصف ، وعملت فيها نجار مسلح !

بعد مارجعت عرضت عليه تقرير عن الهجرة هناك ، واقتنع وابتدى يسفر واحد واتنين وبعد كده اتعدلت الفكرة عنده ومنع السفر إلى أوروبا وبدأ يتجه إلى الدول العربية .

كان قطب سيد حسن من أوائل من انضموا للجماعة .. كان السابع أو الثامن على حد قوله .. لكن .. بعد أكثر من سنتين بدأ يكتشف أن ما يقال بعيد عن الإسلام ، فكان أن قرر الانشقاق عنها ، وبعد القبض على شكرى مصطفى ، عاد إلى دراسة الطب فى الأزهر .

من الذين انشقوا عن الجماعة أيضا مسئول التدريب العسكرى فيها رفعت أحمد أبو دلال ، وشهرته أبورجاء .. ولا يهمنا الآن أن نعرف لماذا انشق ، ولكن يهمنا أن نعرف كيف ، ولماذا انضم ؟ !

يقول : (٢)

فى أواخر عام ١٩٧٢ وجدنا ناسا يتحدثون عن الإسلام ، فتصورنا أن هذا هو الإسلام الحقيقى فاندفعنا إلى شكرى مصطفى .

كان دورى فى التنظيم تلقى رسائل أمراء الجماعات ورفعها إلى شكرى مصطفى .

بعد ذلك تبنيت تدريب الأفراد على الدفاع عن النفس ، لأن بعض الأهالى كانوا قد

---

(٢) المصدر السابق .

اعتدوا على شكرى من قبل فى المعصرة وطرة الأسمنت ، فكان يقول : لابد أن ندافع عن أنفسنا .. فأقمنا معسكراً وبدأ التدريب البدنى والعسكرى .

وكان الاستخدام الأول له تصفية المنشقين .. وكنت منهم .

قبل أقل من سنتين على بدء التنظيم ، بدأ شكرى مصطفى هجرته ، وصعد الجبل .

فى كهوف ومغارات الجبل الشرقى عند قرية « الشيبة » بعيداً عن العمران .. مركز « أبو قرقاص » .. محافظة المنيا عاش مع جماعته منذ الشهور الأولى لسنة ١٩٧٣ .. وفى سبتمبر فى تلك السنة اكتشفت أجهزة الأمن الجماعة .. أى أن تنظيم شكرى مصطفى عرف قبل تنظيم صالح سرية .

أثناء تأدية صلاة جمعة فى سبتمبر ١٩٧٣ ، لاحظ شيخ خفراء القرية عبد المحسن عبد الرحمن أن أربعة أفراد غرباء يقفون على باب الجامع .. استغرب لامتناعهم عن دخول الجامع للصلاة ، رغم أنهم يطلقون لحاهم .. أحس بالريبة .. سألهم : من أنتم ؟ وماذا تريدون ؟ .. قالوا : « نحن نعبد الله ونطلب بعض المؤن » .. أخذهم إلى دار العمدة « كامل عفيفى » .. وأخذوا ما يحتاجون .. لكن .. حدث أن قام أحدهم يصلى دون أن يخلع حذاءه .. فأيقن العمدة وشيخ الخفراء أنهما أمام جواسيس إسرائيل ، لم يتقنوا دورهم وهم يمثلون دور المسلمين الورعين .. وضاعف من يقينهما وجود تعليمات أمنية مشددة بمراقبة الجبل ، لأن البلاد كانت فى حالة حرب .

أحضر العمدة لهم المؤن والطعام وسلمهما إلى اثنين منهما ، وتحفظ شيخ الخفراء على الاثنين الآخرين .. وأمر الخفراء بمرافقة من حملا المؤن والطعام إلى الجبل لمعرفة ما يجرى هناك ! !

لم يمر وقت طويل حتى جاء من يساوم العمدة أن يفرج عن زميليه المحجوزين ، وإلا سيبقى الخفراء رهائن عندهم ، ولم يستجب العمدة ، بل أمر شيخ الخفراء بأخذ قوة معه ، ويصعد بنفسه إلى الجبل .. ونفذ شيخ الخفراء الأمر .. وقبل أن يصلوا إلى الجبل فوجئوا بالرصاص ينهال عليهم من كل جانب .. فعادوا إلى القرية .. وأبلغوا جهات الأمن .. التى سارعت بحصار الجبل ، وإجبار من لم يقبض عليه من أعضاء الجماعة على الفرار .

قبض على عشرة أعضاء كان من بينهم رفعت أبو دلال ، وأحد مساعدى شكرى مصطفى ، وهو صفوت الشيخ حسن الزينى ، وأحيلوا إلى النيابة للتحقيق معهم فى القضية ٦١٨٠ لسنة ١٩٧٣ ـ أمن دولة عليا .. ولكن أفرج عنهم بعد ٦ شهور من الحبس المطلق على ذمة القضية .

وأغلب الظن أن رجال الأمن اخترقوا التنظيم منذ ذلك الوقت !

ومن المؤكد أن شكرى مصطفى غير أسلوبه فى الحركة بعد هذا الحادث .. فكان أن قرر

أن تكون فى كل محافظة جماعة ..وكان أن قرر ألا تعيش جماعاته فى الكهوف والجبال وإنما فى الشقق المفروشة .. فى أطراف وضواحى المدن الكبرى .

□□

بعد حادث الكلية الفنية العسكرية وإعدام صالح سرية ، أعلن عدد من أعضاء حزب « التحرير الإسلامى » توبتهم وتفرق الآخرون بين تنظيمى « الجهاد » و « جماعة المسلمين » .

وتنظيم « الجهاد » الذى نقصده الآن ليس تنظيم « الجهاد » الذى كان وراء اغتيال السادات ولكنه تنظيم تأسس فى مدينة الأسكندرية فى نهاية ١٩٧٤ وبداية ١٩٧٥ ، ولم يكشف إلا فى أواخر ١٩٧٩ ، حيث اعتقلت أجهزة الأمن ٧٠ من أعضائه ، على رأسهم كان د . مصطفى يسرى الذي نسبت له رئاسة التنظيم ، وكانت التهمة الموجهة لهم القيام بتخريب كنائس أقباط الأسكندرية ، وإثارة النعرة والفتنة الطائفية ..وفيما بعد ..سيتاح لنا أن نعرف أن أحد أعضاء هذا التنظيم ـ من الذين لم يقبض عليهم ـ سيكون تنظيما جديداً يحمل نفس الاسم « الجهاد » .. وهذا العضو هو المهندس محمد عبد السلام فرج ، الذى أقنع الملازم أول خالد الاسلامبولى بضرورة تنفيذ فكرة اغتيال السادات .(٣)

انضم بعض أعضاء تنظيم سرية إلى تنظيم يسرى ..

وانضم البعض الآخر إلى تنظيم شكرى .

من هؤلاء كان حسن الهلاوى الذى حصل على البراءة ، ومنهم محمد السيد جاد الكريم الذى كان يلقب بأبى الدحداح وهو طالب بطب الأسكندرية ومصطفى عبد المنعم الشهير بالصبروتى ، وهو طالب بطب الأسكندرية أيضا .. وكان أبو الدحداح والصبروتى قد أسسا جماعة سميت باسم جماعة « المعتزلة شعوريا » بعد أن اختلفا مع شكرى مصطفى ، وانشقا على جماعته ، وقد كان أمير جماعة « المعتزلة شعوريا » أكثر تطرفا من شكرى مصطفى فى تكفير المجتمع .. شكرى كان يكفر من بلغته دعوته ولم ينضم إليه .. وأبو الدحداح كان يكفر المجتمع حكاما ومحكومين سواء بلغتهم الدعوة أم لا ..كما قال هو بنفسه ..

---

(٣) فى العام الذى اعدم فيه سرية اعلن فيه ايضاً عن اكتشاف تنظيم متطرف جديد ، سُمى بجماعة الشيخ « طه السماوى » على اسم زعيمه ، وقد قبض على اعضائه بتهمة إشعال النيران فى مسجد « السيد البدوى » فى طنطا ، الذى يعتبر من اولياء الله الصالحين الذى يتبرك به المصريون ، وكان هذا بالتحديد سبب إشعال النيران فى مسجده ، لأن التنظيم يعتبر التبرك بالاولياء كفراً وشركاً ووثنية .. وفيما بعد ، اتضح ان خالد الاسلامبولى على علاقة بطه السماوى ، وهذا يعنى ان خيوط معظم التنظيمات السلفية الراديكالية تتشابك وتتقاطع ، فخالد الاسلامبولى على علاقة بالسماوى وبعبد السلام فرج ، وتنظيم الجهاد الثانى امتداد لتنظيم الجهاد الأول ، وشباب صالح سرية انضموا لتنظيم الجهاد الاول ولتنظيم شكرى مصطفى ، وصالح سرية نفسه كان على علاقة ما بالإخوان .. علاقة اكبر من علاقة النسب .. وتقترب مما يمكن ان يوصف بعلاقة الدم .. شجرة واحدة ، أصلها ثابت ، وفروعها ممتدة ، ونامية ، وتواجه الرياح والعواصف .

وحسب الرواية الرسمية فإن أفكار جماعة « المعتزلة شعوريا » تؤكد « إن تحرير الأرض ومحاربة إسرائيل قبل الوصول للمجتمع الإسلامى المنشود حرام ، والدعوة يجب أن تكون عاجلة لاستباحة دم الحاكم والمحكومين لأن المجتمع كله كافر ، وأن الديمقراطية وتحية العلم والسلام الجمهورى وزيارة قبر الجندى المجهول حرام » نفس أفكار صالح سرية .

ومن قيادات جماعة صالح سرية الذين انضموا إلى جماعة المسلمين ، كان طلال الأنصارى ، الذى كان محكوما عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .. وقد أبلغ شكرى مصطفى بانضمامه إليه وهو فى السجن ، لذلك كان من مطالب شكرى مصطفى للإفراج عن الشيخ الذهبى ـ فيما بعد ـ الإفراج عنه .. عن طلال الأنصارى .

□□

فى سنة ١٩٧٥ عاش المجتمع المصرى فى ذعر اسمه خطف البنات .

تخرج البنت من البيت إلى المدرسة ، ولا تعود .. تخرج الزوجة من بيتها إلى السوق ، ولا تعود .. تخرج الموظفة من البيت إلى المصلحة ولا تعود .. كأن الأرض انشقت وابتلعتهن .. وتعددت البلاغات .. وتعددت التفسيرات .. ولم يتردد رسامو الكاريكاتير فى السخرية من هذه الظاهرة الفجائية والشاذة . (٤)

وامتدت الظاهرة من القاهرة إلى الأسكندرية . ثم .. وصلت إلى الصعيد .

لم يحل اللغز ، إلا بالصدفة .. فى المنيا .. حيث قابلت أم ابنتها المفقودة فى أطراف المدينة .. وعندما نجحت فى الإمساك بها ، ظهرت أصابع شكرى مصطفى وراء ما يحدث .

إن تنظيم جماعة المسلمين كان التنظيم الوحيد الذى ضم النساء والفتيات إليه .. وزوجهن للأعضاء الرجال .. حتى المتزوجة منهن ، كان يحق لها الزواج من آخر ، لأنها بمجرد الانضمام للجماعة تصبح حرة ، ومحرمة على زوجها الأول لأنه كافر .

ولاشك أن شكرى مصطفى كان يريد إقامة مجتمع ، خاص ، مثالى ، ينمو ، ويكبر ، ويقوى ، ليصبح قادراً على مواجهة مجتمع الكفر والجاهلية .. لذلك .. كانت المرأة عنصراً هاماً فى تنظيمه . أليست هى الرحم الذى ينجب ؟!

لكن .. الظروف والصحافة ، صورته على أنه « راسبوتين » الذى جمع بين الجنس والدين ... فقد تزوج خمس مرات كانت ثلاث منهن على ذمته يوم القبض عليه .. وقيل إنه

---

(٤) تابعت كصحفى هذه الظاهرة فى اوانها ، ولفت نظرى ان كثيراً من العائلات ـ التى اختفت بناتها ـ لم يتطرق الشك إليها فى وجود دافع عاطفى ، لأن الفتيات اللاتى هربن ، لم يترددن فى مواجهة عائلاتهن بالكفر والشرك ، وتحدينها برفض الطاعة لأوامرها والانصياع لتقاليدها ، بل ووصل التهور ببعض الفتيات إلى الرد بالعنف على امهاتهن .. وقد تعددت البلاغات بلا طائل ، وبينما العائلات تشق ثيابها حزنا او عاراً على بناتها ، كانت البنات فى طريقهن إلى عش غير تقليدى للزوجية .

كان من حقه أن يطلق أية زوجة فى الجماعة ويتزوجها وساعد على رسم هذه الصورة ، أن شكرى مصطفى بشعره الكثيف ، ولحيته الكبيرة ، وعينيه القويتين ، المملوءتين بالتحدى ، وثيابه السوداء التى اشتهر بها ، بدا بالفعل كما لو كان مثل « راسبوتين » ، أو مثل أحد زعماء حركة الهيبيز التى ذاع صيتها فى تلك الأيام . (٥)

وبسبب ضيق الأماكن ، كان كل ٤ أزواج يعيشون وينامون فى حجرة واحدة ، لا يفصل بين كل زوجين سوى ملاءة .. وعندما نشرت الصحف ذلك على لسان أحد المنشقين عن الجماعة ، بدا واضحا .. أن المقصود هو أن يطلق الناس العنان لخيالاتهم الجنسية .

وعندما سئلت الزوجة الثانية لشكرى مصطفى عن ذلك ، قالت : « المؤمنون آمنون على أنفسهم وزوجاتهم » وأضافت : « لكن .. لا أظن أن هذا حدث » ..

الزوجة الثانية لشكرى مصطفى (فوقية جبر) كانت متزوجة قبله ، ولها من زوجها الأول ولد ، وهبته ـ على حد قولها ـ إلى الرسالة التى يدعو إليها زوجها ، ولها طفلان من شكرى ، هما حبيبة وسهل .. وهى من مواليد ١٩٤٩ حاصلة على دبلوم تجارة .. وقد قالت لصحيفة الأهرام : « لقد نلت شرفا لم تنله فتيات كثيرات ، لقد طلب منى الأمير الزواج فكيف أرفض وهو الرسول المنتظر » !

وعندما سئلت عن رأيها فى شكرى مصطفى قالت :

« الأمير زوج عادل ، يعدل بين زوجاته ، فيعطى كلا منهن حقها ويرى أطفاله ويهديهم إلى الطريق المستقيم طريق هداية الدعوة إلى الله مستنيراً بتعاليم الجماعة » .

ولأن الأميركان يرى « زواج البنات سترة وتهذيباً » فإنه لم يلتزم بسن معينة للزواج ، وزوج ابنة شقيقته وعمرها ١٥ سنة بعد أن تركت المدرسة الإعدادية ، وانضمت إلى الجماعة .. وبعد شهور قليلة من الزواج كانت أحشاؤها تتمدد ببذرة جنين .

وقالت الأم الصغيرة : إن زوجها لا يقضى معها سوى أسبوع واحد كل شهر ، وأحيانا كل شهرين ، لأنه يقوم بالهداية إلى تعاليم الجماعة .

وعندما سئلت عما تفعله فى غيابه قالت : « لاشىء سوى الانتظار .. حتى يعود ، فالزوجة الصالحة تنتظر عودة زوجها مهما طال غيابه » .

وحتى ينظم شكرى مصطفى الأحوال الشخصية فى جماعته ، أعد نوعين من البطاقات

---

(٥) بعد حادث الفنية العسكرية ، كشفت الصحافة ـ التى ترك لها أمر معالجة التطرف الدينى ـ أن الدولة كانت على علم كامل بجماعة شكرى مصطفى وراح الصحافيون ـ من باب التهوين من محاولة سرية الانقلابية ـ يهاجمون تصرفات الجماعة ، وأطلقوا عليها اسم التكفير والهجرة وإن لم يذكروا اسم أميرها ، وتعاملوا معها كما لو كانت جماعة هيبز متمردة على الحياة العصرية .. شبان يطلقون شعورهم ويهيمون على وجوههم ويرفضون كل ما حولهم ويميلون إلى الحياة البدائية .. وقد كانت هذه الصورة ، الصورة المفضلة للأمن .. لأنها كانت مثل قنبلة الدخان التى فجرتها الدولة لإخفاء حركة الفنية العسكرية ، ولم يكن من المهم وضع الجماعتين فى سلة واحدة .

للزواج .. الأول بطاقات للرجال ، تسجل فيها بيانات المتزوج .. اللقب . الاسم إذا أمكن . ما يحفظه من القرآن والحديث الشريف .. مدى فهمه للفقه .. ثقافته العلمية .. حالته العلمية .. قدرته المالية والقانونية على الهجرة .. ثم خانة لتقييم أمير الجماعة له .. مندفع متردد . قدرته على الثبات والثقة والولاء والفهم للمنهج .

النوع الثانى بطاقات للنساء .. تسجل فيها بيانات عن الشكل .. اللون .. الحجم .. الصفات البارزة إن وجدت وموقفها العائلى .

وقد تولى شكرى مصطفى كل الأمور ومنها اختيار الزوج المناسب للفتاة المناسبة .. عقد القران .. اختيار عش الزوجية .. وتحديد عمل للزوجة أحيانا .. وكان العمل ـ بجانب الواجبات المنزلية المعتادة ـ ينحصر فى الصناعات الغذائية ، والحرف البسيطة مثل صناعة « الجبن » وغزل « السجاد » .

واشترطت الجماعة على الفتاة التى تنضم لها أن تطيعها طاعة عمياء .. وقد كان وراء هذا الشرط قائمة كبيرة من الممنوعات والمحرمات ..

الموسيقى ، الإذاعة ، التليفزيون ، الخيار الأخضر . المسلى الهولندى . الأطعمة المستوردة . عدم استخدام حنفية الحوض فى غسل الأوانى والملابس .. كل هذه ممنوعات .. ومحرمات ..

وقد رفضت احدى الزوجات منعها من استخدام مياه الصنابير ، بحجة أنها لا تجد أى مبرر شرعى لذلك ، فكان أن طلقها زوجها لأنها عصت أمراً من أوامره .

وعندما سئلت ـ فيما بعد ـ إحدى زوجات شكرى مصطفى عن سبب هذا المنع ، قالت : « لكل منا مذهب » !!

أما الممنوعات والمحرمات بالنسبة للرجال .. فكانت باختصار ، كل ما يأتى من المجتمع الجاهلى الكافر ممنوع وحرام .. وكل ما يفرض عليهم التعامل معه أيضا .. والكافر فى عرفهم هو كل من ليس منهم .

خدمة الشرطة والجيش . المدارس . المساجد . الطعام . الصحف . الثياب .. وغيرها .. كل ما تتصوره ممنوع .. وكل ما نتعامل معه حرام .

□□

لم تختف الفتيات فقط .

بل اختفى الرجال أيضا .

إن انضمام البعض إلى الجماعة كان فراقا بينهم وبين أسرهم .. حتى الذين لهم زوجات وأولاد تركوهم ودخلوا الكهوف .

فى إحدى قرى المنوفية ، اختفى سنة ١٩٧٤ ، طالب بهندسة شبين الكوم ، لمدة ٣ شهور ، وعندما عاد رفض الذهاب إلى الكلية ، وبدأ يعمل فى الزراعة ، وطلب عدم مناداته

باسمه ، ومزق بطاقته الشخصية ، ثم اعتزل البيت واستخدم مصباح الكيروسين بدلاً من المصباح الكهربائى ، وحطم جهاز الراديو ، ولاحظ أهل بيته أنه يؤذن لصلاة الفجر قبل ساعتين ، وللصلوات الأخرى قبل موعدها بساعة .. ولم يعرف الناس ما جرى له إلا بعد أن وجدوا صورته فى الصحف وعرفوا أنه عضو فى الجماعة .

فى سنة ١٩٦٣ ، تزوجت فتحية وأنجبت ٥ أطفال .. لاحظت سنة ١٩٧٤ أن زوجها يعقد اجتماعات مع آخرين فى البيت .. بعد فترة أطلق لحيته ، وترك عمله ، وقرر بيع الشقة بما فيها ، وأخذها وأولاده إلى منطقة العصافرة بالأسكندرية وهناك طلب منها العزلة عن الأهل والأصدقاء وعدم تحيتهم .. لكنها عادت بأولادها إلى القاهرة .. جاء وراءها وأخذ مصوغاتها الذهبية وأخذ أولاده واختفى .

فى صيف ١٩٧٥ ، كان طالب الطب أحمد محمد اسماعيل يصلى فى أحد مساجد الأسكندرية ، فالتقى على الباب بأحد أعضاء الجماعة الذى أقنعه بأن الصلاة فى المسجد حرام ، وطلب منه – على حد قوله – الانضمام إلى « الدين الجديد » .. وعندما قبض عليه قال لرجال المباحث : « كنت كافراً مثلكم واهتديت وأنا سعيد بدخولى هذا الدين الجديد » .

فى نفس الوقت تقريبا ، إستسلم للجماعة طالب أزهرى كان يدرس فى المعهد الدينى (السنة الثالثة) وكان متفوقا فى دراسته . وقد ترك الدراسة ليعمل بائع كتب ، مؤكداً « أن التعليم الأزهرى فى هذا المعهد .. ضلال » .

عموما ترك الطلاب والتلاميذ الذين انضموا إلى الجماعة كلياتهم ومدارسهم ، بمن فيهم أصغر الأعضاء سنا ، مثل طه الزينى ، وإسلام عاطف ، اللذين كانا في المدرسة الأولية .

وفيما بعد ..

قال شكرى مصطفى أمام المحكمة العسكرية التى حاكمته :

– كان طه الزينى وباقى الأحداث يتلقون من التعليم الدينى مايتناسب مع سنهم ، وربما تحملوا من العلم الدينى ما هو أكثر من ذلك . إنهم يعرفون الكثير فى علم الحديث ، ويحفظون عشرات من أحاديث النبى ﷺ ، ويحسنون تلاوة القرآن .. ويمكننا أن نجرى تجربة عملية لذلك ، بل يمكن أن نجلس طه أمام رجل من رجال الأزهر ليناقشه فى الإسلام .. فى عموميات الإسلام .. وأطلب ذلك رسميا .[٦]

سألته المحكمة :

– كيف يمكن أن يتصدى طه الزينى إلى مناقشة رجال الأزهر ، وقد اعترف أنه لا يحفظ

---

(٦) محضر جلسة ١٩٧٧/١١/٧ القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧ ، أمن دولة عليا .

من القرآن سوى جزء ونصف جزء .. كيف يمكنه التصدى وهو على هذا العلم الضئيل بكتاب الله ؟

كان رده :

ـــ ليس الحفظ هو دليل العلم .

وراح يثبت صدق إجابته باجتهادات تاريخية ..

ثم .. قال :

ـــ ومما يجدر ذكره بخصوص طه الزينى أن والده شيخ وخريج أزهر واسمه العالم طه الشيخ الزينى (٧) وكان طه كثيرا ما يناقش أباه فى الإسلام ، وحسب روايته أنه يغلبه !

وسرت ابتسامة خافتة على وجوه من كان فى القاعة .

س : وهل تحفظ أنت القرآن ؟

جـ : سبق أن حفظت القرآن ، ولكن لانشغالى بأمر الجماعة فى الآونة الأخيرة فقد أنسيت بعضه ويحتاج إلى شىء من الاستعادة ، وإن كنت فى حالة استدلال النصوص الشرعية أجدها حاضرة ، متضافرة فى صدرى وعلى لسانى والحمد لله .

ولم ينكر شكرى مصطفى أنه قرأ بعض الكتب فى أصول الفقه (٨) .. إلا أنه على حد قوله ، قبل بعضها ، ورفض البعض الآخر .

وعلى حد قوله أيضا : « إن أصول الفقه موجودة فى صدور الرجال » .. أى « الفطرة » .. « وما فيها من قواعد الحق » .

وبوضوح حدد شكرى مصطفى هدفه :

« مهمتى الأولى والأعظم والتى لا يحل لى أن أغادرها إلى مادونها هى تأسيس الانطلاق الإسلامى ، وإيجاد نواة الجماعة المسلمة والدولة المسلمة » .(٩)

« إن موضوعى الأصيل هو السعى لإقامة الإسلام » .(١٠)

وبوضوح أكثر أقر أن هذا الموضوع « مما لا يمكن العثور عليه فى كتابات الأولين ، ولا يوجد كتاب من كتب الأولين يصلح أن يكون مرشداً إلى هذا الأمر .. ولا كتاب .. إلا كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ » .

هذا الوضع كان يعكس فى داخل شكرى مصطفى يقينا بأنه المهدى المنتظر .

---

(٧) فى ذلك الوقت كان الشيخ الزينى وكيلا لمدرسة ثانوية فى أبو قرقاص ، وقد أعلن انه يتمنى إعدام ابنه الأكبر صفوت الذى ترك كلية الزراعة وانضم إلى الجماعة ، ثم نجح فى سنة ١٩٧٥ فى ضم اخيه الأصغر طه إليه ، وفى العام التالى ضم اخته الطالبة فى الثانوى إلى الجماعة وزوجها لأحد الأعضاء .

(٨) من كتب الفقه التى اقر شكرى مصطفى انه قرأها : كتاب : « الموافقات » للشاطبى ، وكتاب « الأحكام » للآمدى ، وكتاب « الاحكام » لابن حزم .. وفى التفسير كتاب « ابن كثير » .. وفى السيرة كتاب « ابن هشام ». وفيما يتصل ببداية الحركة الإسلامية ، قال : إنه قرأ كتاب الشيخ سيد قطب ، ولم يحدد عنوان الكتاب .

(٩) و (١٠) محضر جلسة ١٩٧٧/١١/٧

لذلك كان يُسمى بالمصطفى طه .

وكان يصف نفسه بأنه « خليفة الله على الأرض » .

وعندما قبض عليه قال :

« إن جميع أعضاء الجماعة يأتمرون بأمره ، وإن أوامره نافذة ، وأنه مسئول عن بعث الإسلام من جديد ، بحد السيف ، الذى لابد من العودة إليه » .(١١)

وأمام المحكمة قال :

— إن جماعته ستقاتل معه ، وعليها أن تبدأ ـ كما بدأ رسول الله ﷺ ـ من الصفر .

ويضيف :

ـ « وفى بداية أمر هذه الجماعة لم يكن لنا شغل أصيل إلا تعليم وتفقيه الداخلين فيها ، ولما اتسعت الجماعة أنشأنا لجانا فى شتى الجوانب ، من أهمها الجوانب التعليمية كلجنة الحديث ، ولجنة اللغة العربية ، ولجنة الدعوة ، وكنت أنا أنتخب الصالحين لتعليم غيرهم فى تدريس ما أدرسه لهم لمجموعات من الجماعة وعلى سبيل المثال فقد درست كتاب « الخلافة » (١٢) لمائة وعشرين فرداً تقريباً على ست مجموعات ، وكانت كل مجموعة تمكث معى ستة أو سبعة أيام كاملة أدرس لها هذا الفقه » .

إننا أمام شخص لم يؤمن بفكرة ما فقط ، وإنما حول هذه الفكرة إلى أمر واقع .. إلى مجتمع آخر .. بكل مؤسسات ونظم المجتمع .. الزواج .. التربية .. التعليم .. قواعد التعامل .. المقبول والمرفوض .. ثم .. وقبل ذلك كله كان له هدف .. فى وقت كان المجتمع من حوله بلا هدف .. وكان قادراً على جذب الكثيرين وحل مشاكلهم ، فى وقت كان المجتمع من حولهم ، يلفظهم ويعجز عن التفاهم معهم .

وهذا ـ فى رأيى ـ سر خطورة شكرى مصطفى .

□□

كان مثيراً للدهشة أن يقبل شكرى مصطفى بعض أعضاء تنظيم صالح سرية فى جماعته .

فهدف الجماعتين وإن كان واحداً ، إلا أن أسلوبهما كان مختلفاً .. وفى مثل هذه التنظيمات ، يصعب الفصل بين الهدف والأسلوب .

إن صالح سرية كان يرى الاستيلاء على السلطة أولاً ثم فرض المجتمع الإسلامى المنشود بعد ذلك ، لذلك فتنظيمه يمكن أن يوصف بأنه تنظيم عسكرى ، له صبغة دينية .

---

(١١) قالت إحدى العضوات وتدعى « ام موسى » : إنهم دعوا إلى الهجرة إلى الصحراء والجبال فراراً من الفتنة ، حتى تقوم الحرب الذرية بين امريكا وروسيا ، ويعودون لحكم العالم كله بالسيف ، واضافت : ونحن نحتمل التضحية فى سبيل أن نكون من اهل الجنة .

(١٢) كتاب من تاليف شكرى مصطفى .

أما شكرى مصطفى فكان يرى ضرورة خلق نواة للمجتمع الإسلامى المنشود ، أولاً ، ثم إسقاط السلطة القائمة عند التمكن بعد ذلك ، لذلك فتنظيمه يمكن أن يوصف بأنه تنظيم اجتماعى ، له صبغة دينية ، عسكرية .

فكيف يمكن أن يتم تحالف بينهما ؟

كيف يمكن أن يتم تحالف بين جماعة ترى أنها فى حالة استضعاف ، وأخرى ترى أنها فى حالة استنفار ؟ .. بين جماعة ترى أنها فى حالة اعداد ، وأخرى ترى أنها قادرة على المواجهة ؟

تحالف غير مفهوم فعلاً .

ولأنه تحالف غير طبيعى أيضا ، فكان لابد أن ينكسر .

اختلف شكرى مصطفى مع « أبو الدحداح » ومجموعته ، فخرج من الجماعة ، ومعه أعضاء منها ، بخلاف أعضاء حزب التحرير الإسلامى الذين دخلوا معه .

ثم .. انشق حسن الهلاوى ، ومعه آخرون .

ثم .. انشق أبو دلال ومعه آخرون أيضاً .

وتوالت الانشقاقات ، التى جعلت رجال الأمن على علم أدق وأكبر بخبايا التنظيم ، إذ راح بعض المنشقين يعلنون توبتهم على أيديهم .. فكان أن أفرغوا الكثير مما فى جوفهم .

ومع هجوم الصحافة الساخر عليه ، وتزايد عدد المنشقين ، أحس شكرى مصطفى بأن هيبته فى الجماعة يمكن أن تنتهى . وأنه إذا لم يتحرك بسرعة ، فإن الأعضاء سينفضون من حوله ، فأفتى بتأديب المنشقين ، وقتلهم إذا لزم الأمر ، ووصفهم بأنهم مرتدون ، ولابد من تطبيق حد الردة عليهم .

وكان هذا بداية النهاية !

إن شكرى مصطفى الذى غلبته طبيعته الصعيدية ، وضخمت ذاته الطاعة العمياء للأعضاء ، كان مثل باقى زعماء الجماعات السلفية المشابهة ، يرى أنه الوحيد الذى على حق .. ويرى غيره على باطل .. كان يرى أنه الوحيد الذى يجب أن يتبعه كل من أسلم وجهه لله .. وما عداه ، جزء من مجتمع الجاهلية والكفر والشرك بالمولى عز وجل .

وهذا التصور الممتلىء غروراً هو الذى جعله يعادى الإخوان المسلمين بضراوة ، وبلا حدود ، فأفتى بتكفير كل من ينضم إليهم ، أو يتعامل معهم ، أو يقرأ مطبوعاتهم .. واتهمهم ـ مع باقى زعماء الحركة الإسلامية ـ بأنهم « قادوا رجالهم إلى حتفهم » و« سلموا رجالهم إلى الذين وضعوهم فى السجون وعلقوهم فى المشانق » ... « لقد فرطوا فى حياة رجالهم وتلاعبوا بمصائرهم دون إحساس بالمسئولية » الأمر الذى جعلهم ـ فى رأيه ـ « يستحقون عقاب الخيانة العظمى » .. « لأنهم خرجوا عن الحركة الإسلامية الأولى » ، التى يؤكد أن جماعته تعبر عنها .

وقد أضاف :

« إن الله لم يؤيد الإخوان بنصر من عنده ، وهذا دليل لاشك فيه على أن حركتهم ليست حركة إسلامية صحيحة .. ودليل على أن رسالتهم زائفة » .

وإذا كان هذا رأيه فى الإخوان المسلمين ، فمن الطبيعى أن يكون رأيه أسوأ فيمن انشقوا عليه .

وقد ترجم هذا الرأى فى قرار وأمر .

وتحركت فرق الموت لتصفيتهم جسديا !

□□

حسب البيانات الرسمية ، كانت جماعة المسلمين مطلوبة فى ١٦ قضية متنوعة الاتهامات ، فى السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٥ .

وفى نوفمبر ١٩٧٦ ، أضيفت قضايا أخرى ، باتهامات إضافية ، كان أبرزها الشروع فى القتل .

يوم ٢٠ نوفمبر من ذلك العام ، حاول أعضاء من الجماعة ارتكاب أول جريمة تصفية جسدية للمنشقين عنهم ، عندما هاجم عشرة منهم عند منتصف الليل مسكن حسن الهلاوى المقيم فى الجيزة ، وشقيقه خالد الهلاوى الطالب بالثانوى ، وانهالوا عليهما بالمطاوى والعصى الغليظة .

فجر اليوم التالى ، هاجم عدد آخر من أعضاء الجماعة مسكن أحمد أبو دلال ، وأحمد محمود عرفة ، وشقيقه عبد السلام ووالدهما عرفة الجمل ، فى حلوان ، وانهالوا عليهم طعنا بالمطاوى والسيوف ، ولم يجد الضحايا مفراً ـ للفرار بأرواحهم ـ سوى إلقاء أنفسهم من النوافذ ، ثم نقلوا إلى المستشفى .

وتبين أن فرق الموت ، كان أفرادها يرتدون ملابس تشبه ملابس جنود القوات المسلحة ، واستخدموا سيارات لورى تشبه سيارات الجيش .

المعلومات التى أدلى بها المنشقون لرجال الأمن ، جعلتهم يهاجمون بعض « أوكار » الجماعة ، وفى أحدها وجدوا فتاتين عمرهما ١٣ و ١٨ سنة كان والدهما قد أبلغ عن غيابهما ، وعثر على مجموعة من الكتب والنشرات محظور تداولها خارج ثكنات القوات المسلحة ، مثل « دليل الجندى » و « دليل التائهين » وهما صادران عن وزارة الحربية .

وقبض على ٣٩ عضواً من أعضاء التنظيم .

وحسب الروايات الرسمية ، تأكد لرجال الأمن ساعتها ـ وساعتها فقط ـ أن الأمر تجاوز اعتناق مبدأ دينى متطرف إلى القيام بتدبير جرائم اغتيال .

ولابد أن صدمة شكرى مصطفى أصبحت أشد الآن .

لابد أن إحساسه بسقوط هيبته قد تضاعف الآن .

وكان أن قرر الرهان بكل ما يملك ، وسارع بتدبير عملية اختطاف وقتل وزير الأوقاف الأسبق الشيخ حسين الذهبى .

وكان القرار .. قرار انتحار .

وساعة أن اتخذه .. بدأ العد التنازلى له .. ولجماعته .. ولطموحه .

٥ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ واحد .. صفر !

| ١٠ |

من قتل الشيخ ؟

□ الوزير ينام مبكراً □ اختطاف بملابس النوم □ مطالب الإفراج عن الشيخ الذهبى □ محامى الجماعة يتدخل □ اكتشاف الجثمان فى الهرم □ قصة القبض على شكرى مصطفى □ مصادر تمويل الجماعة □ القضية أمام القضاء العسكرى □ لماذا الشيخ الذهبى ؟ □ آراء القتيل فى الشباب الذى اتهم بقتله □ لغز الضابط الهارب □ هل علمت المباحث بالجريمة قبل وقوعها بيومين ؟ □ سر بقع الدماء فى المدخل □

يقع منزل الدكتور الذهبى فى منطقة منعزلة بحدائق حلوان .

المنزل قديم الطراز ، له حديقة صغيرة ، وسور حديد مدبب ، والشارع الذى يوصل إليه غير مفروش بالأسفلت ، بعد أن أصر العالم الجليل على عدم رصفه عندما كان وزيراً للأوقاف ، على عكس تصرفات معظم الوزراء ، فى معظم العهود .

يعيش الوزير السابق مع بعض أبنائه فى الدور الأرضى ، وقد تعود أن ينام مبكراً ـ بعد ساعات يقضيها مع كتبه ـ ويستيقظ مبكراً .. وهو تقليد قديم ، لرجل معروف بالهدوء ، والجرأة ، والصلاح ، والزهد ، والثقة الكاملة فى الله ، والابتعاد عن الأضواء وضجيج المجتمعات .

كل شىء كان هادئا ، فجر يوم الأحد ٣ يوليو ١٩٧٧ ، عندما طرق باب البيت شاب من جماعة المسلمين ، يرتدى ملابس ضباط الشرطة .. ثم .. لم تمر دقائق قليلة ، حتى انقلب الهدوء إلى صخب . والصمت إلى توتر .. والليل إلى نهار ، من شدة الأضواء التى سلطت على المكان .

لاحظ الدكتور مصطفى ابن الشيخ الذهبى ، الذى فتح الباب ، أن الضابط « المزيف » برتبة رائد ، لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أيام ، وعمره حوالى ٢١ سنة ، وحوله خمسة شبان (٢٠ ـ ٢٥ سنة) ، يحمل أحدهم مدفعا رشاشاً ، وحمل الآخرون مسدسات ، بدت تحت ملابسهم .

ـــ نحن مباحث أمن الدولة نريد الدكتور الذهبى .

تقدمت ابنة الدكتور الذهبى (أسماء ـ ٢٣ سنة ـ كيماوية فى المعمل الجنائى بمديرية أمن القاهرة) وسألتهم :

ـــ معكم أمر ؟!

لم يردوا !

خرج الدكتور الذهبى بملابس النوم .

قالوا له :

ــ تعال معنا فى كلمتين !
قال :
ــ لماذا فى منتصف الليل ، اتركوا لى العنوان ، وأنا أذهب إليكم فى الصباح .

أسرعوا بجذب الدكتور الذهبى بالقوة ، وهم يوجهون المدفع الرشاش إلى كل من يقف فى الصالة ، وظلوا يجذبونه حتى أخرجوه من الشقة ، ثم من الباب الخارجى ، وأدخلوه سيارة بالقوة ، وركب معه عدد منهم ، انطلقت بهم السيارة .

كانت هناك سيارة أخرى ، لم يستجب محركها ، فكان أن قبض على أحد أفراد العملية .. وتحفظوا على السيارة التى كانت تحمل رقم ٢٨٧٩٢ ملاكى القاهرة ، ووجدوا داخلها مدفعاً رشاشاً وطبنجتين ، وراحوا يمطرون الشاب (إبراهيم محمد حجازى) المقبوض عليه بالأسئلة وخلافه .

قبل الظهر كانت الجماعة تتصل بوكالات الأنباء والصحف وتعلن مسئوليتها عن الحادث .

وحددت عدة مطالب للإفراج عن الوزير الأسبق .
منها :
١ ــ الإفراج فوراً عن أعضاء الجماعة المقبوض عليهم .
٢ ــ العفو عن أعضاء الجماعة المحكوم عليهم فى قضايا سابقة .
٣ ــ دفع ٢٠٠ ألف جنيه فدية ، أوراق نقد سبق تداولها ، وليس بها أية علامة مميزة ، وأرقامها غير مسلسلة .
٤ ــ تعتذر الصحافة المصرية عما نشرته عن الجماعة ، بالبنط الأحمر العريض ، فى الصفحات الأولى .
٥ ــ الموافقة على نشر كتاب شكرى مصطفى « الخلافة » على حلقات فى الصحف اليومية ، ثم كتاب بعد ذلك .
٦ ــ تكوين لجنة تقصى حقائق ، لفحص نشاط مباحث أمن الدولة ، ومحكمة أمن الدولة ، ومكتب المدعى العام الاشتراكى .
٧ ــ إذاعة هذا البيان فى نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف فى الإذاعة ، وفى نشرة الساعة التاسعة فى التليفزيون ، يوم ٤ يوليو ، بعد نشره فى الصحف اليومية الثلاث ، بخلاف جرائد أخرى فى دمشق وبيروت والخرطوم وأنقره وطهران وباريس ونيويورك .
ولم ينس البيان أن يشير إلى أن هذه المطالب وضعت طبقا لأصول وقواعد الشريعة !
ولم ينس البيان أن يهدد بقتل الشيخ الذهبى إذا ما حاولت أجهزة الأمن أن تفتش عن أعضاء الجماعة ، أو تسعى للقبض عليهم .

وأحست الحكومة بالحرج ، وخاصة أن رئيسها كان وزير داخلية سابق هو اللواء ممدوح سالم [1]

ولم يكن أمام وزارة الداخلية سوى أن تطالب الجماعة بالتزام الحكمة ، وأن تطلق سراح الدكتور الذهبى على الفور ، لأنها إذا فعلت ذلك ، فسوف تهيىء المناخ المناسب للبت فى مطالبها .

ووجه محامى الجماعة ، المحامى شوكت التونى نداء إلى أفراد الجماعة قال فيه : « من قلبى أبعث إليكم رجاء أن تحكموا أوامر المولى عز وجل وأن تحتكموا إلى العقل الذى أعهده فيكم ولا ترتكبوا أية مخالفة للقانون . إننى أطمئنكم على أن أمر إخوانكم المسجونين سيحل بالطريق القانونى المشروع ، وولاة الأمور مهتمون به كل الاهتمام ، إننى أرجوكم أن تتصرفوا تصرف الذين يرعون حق الله ، وإننى على استعداد للتدخل »

العلاقة بين الجماعة وشوكت التونى ، علاقة محام بموكله .. وقد بدأت فى ديسمبر ١٩٧٦ ، عقب القبض على ٣٠ عضواً من الجماعة ، وإحالتهم إلى محكمة أمن الدولة العليا .. وعلى حد قوله : أحس منهم باليأس من فائدة المثول أمام المحكمة ، لتكرار حبسهم بقرار من قاضى المعارضات .. وكانوا يقولون له : إن جهات عليا تضغط للبقاء فى السجن ، وكان يرد : إن القضاء عادل ، لا يقبل الضغوط .

وحسب ما قاله شوكت التونى ، فإنه أقام دعوى جنحة مباشرة ضد بعض الصحف ، والدكتور الذهبى ، لما نشرته هذه الصحف من هجوم على الجماعة ومعتقداتها فى يونيو ١٩٧٧ .. ثم طلبوا التنازل عنها .. مقابل أن يعطيهم عنوان الدكتور الذهبى ، لكنه رفض .

بعد اتصالات ومفاوضات بين وزارة الداخلية وشوكت التونى ، أفرج عن أحد أفراد الجماعة ، المقبوض عليهم ، ليتولى الوساطة بين الحكومة والجماعة .. مقابل مد المهلة .

لكن ..

كل هذا كان فى الحقيقة لعبا فى الوقت الضائع !

لقد تعثرت المحاولات السلمية ، واستأذن شوكت التونى فى السفر إلى أمريكا ، وبدا مؤكدا أن الشيخ الذهبى قد قتل .. وأن البحث الآن أصبح عن جثمانه .. لا عن إنقاذه .

بدا مؤكداً .. أن أول حادث اختطاف واغتيال من نوعه ـ منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ ـ لشخصية لها مكانتها ، قد وصل إلى مداه .

□□

الصدفة وحدها هى التى كشفت مكان الجثمان .

---

(١) تابع الحادث أربعة ضباط كبار تولوا منصب وزير الداخلية ، ممدوح سالم ، والنبوى إسماعيل الذى كان الوزير وقتها ، وحسن أبو باشا ، وأحمد رشدى ، اللذان توليا المنصب بالترتيب بعد النبوى إسماعيل ، لكن فى عهد آخر ، غير عهد السادات .

فحسب الرواية الرسمية ، كان اثنان من ضباط الشرطة يسألان عمن يقيم بالشقة المفروشة رقم واحد شارع محمد حسين بالهرم ، فرفض مستأجروها الإدلاء بأية بيانات ، مما أثار الشكوك ، وبمهاجمة الشقة عثر بداخلها على شخصين من الجماعة (هما أحمد نصر الله حجاج ، وصبرى محمد القط) وعثر على مدفع رشاش وألف طلقة ذخيرة ، ورسم كروكى لبيت الشيخ الذهبى ، وخطابات متبادلة بين أعضاء الجماعة ، وأوراق أخرى كان من بينها عقد إيجار فيلا مفروشة فى شارع متفرع من شارع فاطمة رشدى بالهرم . [٢]

أثناء التفتيش حضر شخص ثالث ، ما إن شاهد رجال الأمن حتى حاول ابتلاع ورقة كان يحملها ، فمنعوه ، وأخرجوها من فمه ، وتبين أنها رسالة بنقل جثمان الدكتور الذهبى من الفيلا المفروشة على عربة كارو ـ بعد اجراء عمليات التمويه ـ لتلقى ـ مع النوشادر ـ فى مصرف قريب .

هوجمت الفيلا المفروشة وعثر على جثة الدكتور الذهبى .

كان راقداً على ظهره وسط بركة من الدماء المجمدة ، على سرير بحجرة نوم على يمين المدخل .. وعثر على ٣ بقع من الدم فى الصالة .

حسب تقرير المعمل الجنائى ، وتقرير الطب الشرعى ، قتل الدكتور الذهبى برصاصتين أطلقتا على رأسه ، وخرجت إحداهما من عينه اليسرى ، بينما كان معصوب العينين بشال أبيض .

واتهمت الشرطة عضو الجماعة مصطفى عبد المقصود غازى بالقتل .. بالتنفيذ .

واتهمت أمير الجماعة شكرى مصطفى بالتدبير .

واتهمت ضابط شرطة سابق ، انضم إلى الجماعة ، هو أحمد طارق عبد العليم بالاختطاف .

وبعد القبض على القاتل ، بدأ البحث عن المدبر ، والمختطف .

□□

صباح السبت ٩ يوليو كان العنوان الرئيسى لصحيفة الأهرام :

« القبض على زعيم جماعة التكفير والهجرة و ١٥ من قياداتها » .

« زعيم الجماعة يعترف بعد ضبطه فى وكر بعزبة النخل بتدبير عملية اختطاف وقتل الدكتور الذهبى » .

إلى جانب العنوان الكبير كانت صورة شكرى مصطفى التى اشتهر بها فيما بعد حتى الآن !

وحسب الرواية التى نشرتها « الأهرام » فإن أجهزة الأمن حاصرت وحصرت الشقق المفروشة بعد أن تأكدت أن الجماعة تستخدمها .. وبقتل الشيخ الذهبى راحت « أوكار »

---

(٢)الاهرام ١٩٧٧/٧/٧ ـ ص ٣ .

الجماعة « المفروشة » تتساقط « واحدا وراء الآخر وبها أسلحة ومتفجرات وأوراق » تحمل الكثير من المعلومات الهامة .. ساهمت فى نصب عدة كمائن لأمير الجماعة .. منها كمين فى مدينة الزهور بعزبة النخل ، إحدى ضواحى القاهرة التى تجمع بين الريف والحضر .

فى الفجر هُوجم الوكر ـ الذى اتضح أنه يتكون من ثلاثة منازل متجاورة تقيم فى أحدها شقيقة زوجة زعيم الجماعة وأولادها ـ وألقى القبض على اثنين من القيادات ، وثلاث طالبات جامعيات ، وعثر على وثائق أهم .

استمر الكمين حتى الصباح ، حيث حضر رجل وزوجته ، حاما حول المنازل ، فألقى القبض عليهما ، وعرف منهما أن شكرى مصطفى فى طريقه إلى الوكر .

فى الساعة الثانية عشرة والنصف بالضبط ، كان شكرى مصطفى قد حضر فى سيارة ومعه زوجته وابنه الصغير ، ونزل منها بعيداً وسار على قدميه وهو يحمل حقيبة صغيرة فى يده ، وبرفقته زوجته وابنه .. كان يرتدى جلبابا أسود اللون وعارى الرأس .. تقدم إلى المنزل فى حذر .. تركوه حتى دخل إلى مسكن شقيقة زوجته « أم ليلى » واستقر فى الغرفة الداخلية بالشقة واطمأن إلى أن أحداً لم يتبعه .

ثم .. كانت المفاجأة عندما هاجمه أفراد الكمين .. فقال :

ـ « أنتم وصلتم » ؟

وحاول أن ينكر نفسه ، وادعى أن اسمه « زين » لكنه اعترف فى النهاية أنه شكرى مصطفى ، خليفة الله على الأرض .

وعثر فى جيبه على ٣٤,٥ جنيه وتذكرتى قطار من بنها إلى القاهرة .

وبدأت خلايا الجماعة ، والمعلومات المجهولة عنها ، تتساقط .

□□

من أهم المعلومات التى كشفت ، معلومات عن مصادر تمويل الجماعة .

إن الجماعة كانت تستأجر عدداً كبيراً من الشقق المفروشة ، كما أنها كانت تشترى السلاح والمتفجرات بكميات ليست بسيطة ، كذلك كان عليها أن تنفق على بعض أعضائها .. فمن أين لها بالأموال اللازمة لكل ذلك ؟

كان هناك ـ فى الحقيقة ـ أكثر من مصدر للتمويل :

١ ـ أموال حصل عليها الذين انضموا بصورة كاملة للجماعة ، من بيع كل ما يملكون .

٢ ـ نسبة إجبارية من دخل بعض الأعضاء ، ممن صرحت لهم الجماعة بالعمل فى التجارة فقط .

٣ ـ إقامة بعض المشاريع التجارية مثل إقامة « كشك » لبيع منتجات تصنعها أو تزرعها الجماعة . كما حدث فى منطقة العصافرة بالأسكندرية .

٤ ـ إطلاق بعض الصبية الصغار إلى الشوارع لبيع بعض منتجات البلاستيك .

٥ ـ عمل برنامج دورى ، يسافر بمقتضاه بعض الأعضاء للعمل فى بلاد النفط الثرية ، وإرسال الأموال اللازمة من هناك .

وكالعادة .. حاولت السلطات البحث عن شركاء فى الخارج ، وأكدت أن المخابرات الليبية عرضت على شكرى مصطفى إمداده بالمال والسلاح والأفراد المدربين بهدف القيام بانقلاب فى مصر . (أهرام الخميس ٢١/٧/٧٧ الصفحة الأولى)

وحسب نفس المصدر فإن أربعا من قيادات الجماعة اعترفوا باتصالهم بالمخابرات الليبية والتخابر معها لتنفيذ الانقلاب !

لكن .. سرعان ما قال شكرى مصطفى الكثير الذى جعل السلطات لا تتمسك بتطبيق نظرية « المؤامرة » التى تلجأ إليها بمناسبة ، وبدون مناسبة .

□□

كان الرئيس أنور السادات فى الجابون يحضر مؤتمراً للقمة الأفريقية ، عندما تلقى نبأ اغتيال الشيخ الذهبى !!

بعد أن غادر السادات الجابون ، لم يعد إلى القاهرة مباشرة ، وإنما زار رومانيا والمغرب ، فى رحلة شهيرة ، لأنها ـ كما كشف فيما بعد ـ كانت لتدبير زيارته إلى القدس ، والتى جاءت بالكثير بعد ذلك .

وفور عودته إلى القاهرة ، أصدر قراراً بتشكيل محكمة عسكرية عليا لإجراء محاكمة فورية لمرتكبى جريمة اختطاف وقتل الشيخ الذهبى .

وتحولت القضية رقم ٢٠٥ حصر ـ أمن دولة عليا لسنة ١٩٧٧ إلى القضاء العسكرى .

وتولى التحقيق رجلان قدر لهما الكثير فيما بعد .. الأول العميد عماد السبكى ، الذى أصبح محاميا عن المتهمين فى قضية اغتيال السادات ، والثانى العميد سمير فاضل ، الذى تولى رئاسة المحكمة التى حاكمت قتلة السادات .

□□

لماذا الشيخ الذهبى بالذات ؟

هل كان اختياره عشوائيا .. بالصدفة .. نوعاً من القضاء والقدر ؟

الإجابة قطعا .. بالنفى !

الشيخ الذهبى من مواليد سنة ١٩١٤ .. ولد فى قرية « مطوبس » التابعة لكفر الشيخ .. حصل على الدكتوراة فى التفسير والحديث سنة ١٩٤٤ وعين مدرساً بكلية الشريعة ثم أستاذاً لها .. أعير فى سنة ١٩٦٨ لجامعة الكويت ، وفى سنة ١٩٧١ عين أستاذا بكلية أصول الدين ، وقبل أقل من سنة أصبح أميناً عاماً مساعداً لمجمع البحوث ،

وفى العام التالى عميداً لكلية أصول الدين . ثم أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية .. وفى ١٥ أبريل ١٩٧٥ أصبح وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر ، حتى نوفمبر ١٩٧٦ .(٣)

ولاشك أن الدكتور الذهبى عندما أصبح وزيراً لم يفكر فى أن يكسب شيئا من وراء منصبه .. فلم يغير بيته .. ولا أثاثه .. ولم يقبل أن يوضع على بوابته حارس !!

ولاشك أنه كان مصدر صداع دائم للحكومة .. فقد راح يطالبها بجدية الدعوة إلى العقيدة ، لا مجرد استغلالها استغلالا سياسيا .. وتشهد مضابط مجلس الشعب الكثير من مواقفه المشرفة .

أى أنه كان وزيراً فى حكومة حاول إصلاحها .. ففضحها .

فلماذا يقتل رجل بهذا الموقف من جماعة تسعى للخلاص من النظام القائم .. الجاهلى .. والكافر ؟

الصحف اليومية ، الحكومية التى غطت حادث مصرعه ، أكدت أن السبب هو أنه هاجم الجماعة وسفه أفكارها ، وسخر من أساليبها فى الدعوة .

وإذا كان هذا صحيحاً .. فلماذا اختاروه هو بالذات ، وهناك العديد من مشاهير العلماء ورجال الدين والشخصيات العامة هاجموا الجماعة أشد منه ، وسخروا منها أكثر منه ؟!(٤)

أكثر من ذلك ، أصدرت الإدارة العامة للدعوة كتيبا صغيراً قال الدكتور الذهبى فى مقدمته ـ وقت أن كان وزيراً للأوقاف ـ « أغلب الظن أن هذه الجماعة ليست إلا فئة من الشباب ينشد التدين فى أسمى صوره وأبعدها عن مظاهر فساد الخلق وانحراف السلوك » .(٥)

وحتى بعد أن خرج الدكتور الذهبى من الوزارة لم ينقطع عن الاتصال بأفراد هذه الجماعة ، وكان يناقشهم ، ولم يحدث أبداً أن تحامل عليهم ، وكان يقول عنهم دائما :

---

(٣) للدكتور الذهبى ٧ ابناء ، والعديد من المؤلفات الدينية .. فى الأحوال الشخصية عند المذاهب الإسلامية المختلفة ، وتفسير سور « الاحزاب » و « النور » و « الطلاق » و « النساء » ، وكان يتمنى ان يكمل تفسير باقى سور القرآن الكريم ، لكن حدث له ما حدث .

وقبل اسبوع من اختطافه ارسل إلى المطبعة كتابا بعنوان « علم التفسير » حدد فيه قواعد واصول تفسير القرآن الكريم ، وقبل ساعات من اختطافه كان يراجع كتابا عن « الإسرائيليات » بحث فيه عن جذور الخرافة التى دخلت بعض كتب التفسير والحديث .

(٤) وقت الهجوم على الجماعة ، طلعت جريدة « الاخبار » بتحذير واضح على لسان د . سيد الطويل المدرس بكلية الدراسات الإسلامية ورئيس جماعة « دعوة الحق » الإسلامية يقول فيه « فليحذر علماؤنا الاجلاء من إصدار الأحكام على هذه الجماعة باسم الإسلام وان ينظروا إلى اعضائها نظرة موضوعية » مؤكداً انهم لم يطلقوا على انفسهم اسم التكفير والهجرة وإنما الأمن اطلقه ـ انظر روز اليوسف ١٩٧٧/٧/١١ ـ ص ـ ٦

(٥) شفيق احمد على ـ روز اليوسف ـ ١٩٧٧/٧/١١

إنهم شبان يريدون طريق الله ، وواجبنا أن نفهم دوافعهم ونساعدهم على اكتشاف الحقيقة .(٦)

ويمكن أن نلخص آراءه فيما يلى :

١ ـ إن هناك مجموعات من الشباب يملؤها الحماس والغيرة وتنساق وراء العاطفة وتتصور أن عيوب المجتمع يمكن علاجها بالقوة أو بالخروج على المجتمع ولهذا يحتاج الشباب إلى تفهم حقيقة المجتمع الإسلامى الذى يرفض طريق الخادعين وغلو الجاهلين .

٢ ـ إن الإسلام يمكن أن ينشر بالدعوة الهادئة والإقناع .

٣ ـ إن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الحل للمشاكل الاجتماعية بكل أبعادها الخلقية والسياسية والاقتصادية ولابد من إعداد جيل من القضاة على أساس القانون الإسلامى وتهيئة الواقع الاجتماعى لتقبل هذا التغير .

٤ ـ لابد من تنقية الفكر الإسلامى من البدع والخرافات والضلالات ، والمؤسف أن صوت الخرافة أقوى من صوت الحقيقة .

٥ ـ لابد أن يكون للمسجد فى مجتمعنا دور آخر غير مجرد كونه مكاناً لأداء الصلاة ، لابد أن يؤدى رسالة اجتماعية وتربوية ، والإمام لابد أن يكون على مستوى القيام بهذه الرسالة .

٦ ـ إن شبابنا بخير وهو متدين بطبعه ولكنه لا يجد الغذاء الروحى الكافى ، وهناك عوامل وتيارات فى الخفاء تستغل بعض عناصر من الشباب وتدفعه إلى الانحراف باسم الدين وتدعوه إلى العزلة عن المجتمع وهذا لا يتفق مع جوهر الإسلام ، والحل هو أن تعمل كل الأجهزة معا فى تنسيق كامل لتجذب الشباب إلى المساجد ، ولابد أن ينتقل رجال الدعوة إلى الشباب ولا ينتظرون أن يأتى الشباب إليهم .

٧ ـ ليس المطلوب أن نقضى على هؤلاء ولكن المطلوب أن نطهر عقولهم بجهود مخلصة ولابد من تنقية تراثنا من شوائب التخريف ، والتضليل وتعرية كل حملات التزييف والدس والتأويلات المغرضة التى تعرض لها على مدى التاريخ .

هل فى هذه الآراء ما يستوجب قتل صاحبها ؟

إن الذهبى يرى الذين اتهموا بقتله مجموعة من الشباب ، يملؤها الحماس والغيرة ، وتنشد التدين فى أسمى صوره ، وأبعدها عن مظاهر فساد الخلق ، وانحراف السلوك ، فهل هذا مبرر لإطلاق الرصاص على رأسه بهذه الصورة البشعة التى وجدوا جثته عليها ؟!

إن هناك من يرى أن تبرير قتل الشيخ الذهبى لأنه هاجم الجماعة ، غير مقنع .. بالمرة !

بل .. ويرى هؤلاء أن الجانى ، جهة « ما » كان من مصلحتها قتل الذهبى ، وإلصاق التهمة بالجماعة ، وضرب عصفورين بحجر واحد ؟!

---

(٦) الأهرام ١٩٧٧/٧/٥

ولا نستطيع الجزم بصحة هذا الادعاء وإن كان ليس هناك مانع من التعامل معه . وخاصة أن أحد أبناء الشيخ الذهبى يعتقد ذلك ، وقد قال لى : إن والده لم يكن مريحا لحكومة رئيسها (ممدوح سالم) ضابط شرطة سابقاً ، كما أنه استغل علاقته بالجماعة فى حبك الجريمة .. للتخلص منه ومنها فى آن واحد .

وتشير أدلة أصحاب هذا الاعتقاد إلى دور الضابط طارق عبد العليم ، الذى اخترق الجماعة ليرصد تحركاتها من الداخل كعضو من أعضائها ، ثم خروجه من الخدمة وانضمامه نهائيا لها ، وتنفيذه لعملية الاختطاف ، ثم هروبه والتضحية به .

إن هناك نموذجاً تاريخياً يتمثل فى التضحية بضابط البوليس الذى قتل حسن البنا سنة ١٩٤٦ ، بعد أن زين له الترقى والمكافأة .. قُتل بعد أن قتل .. تخلصوا منه بعد أن خلصهم من خصمهم .. حتى يزيلوا كل الشبهات .. فهل كان الضابط طارق عبد العليم تكراراً للنموذج العتيق والشهير والمبتكر من أيام البوليس السياسى !!

هل قام طارق عبد العليم بتنفيذ الدور المرسوم له ، ثم تخلصوا منه ؟

أم أنه بدأ ضد الجماعة ثم انقلب على الأمن وأصبح جزءاً منها ؟

لابد أن هذا اللغز يثير الكثير من القلق !

وأمام المحكمة أنكر شكرى مصطفى أن لجماعته صلة بخطف وقتل الشيخ الذهبى ، وقال وهو يناقش الفرق بين الدليل القطعى ، والدليل الظنى ! .

ـــ إن الدليل القطعى يكون غير قابل لدخول الشك فيه .. هذا ، والقاعدة أنه لا يزول اليقين إلا بيقين .. وهذا دليل قاطع على أن الظن لا يصلح .. أن يحرك اليقين ذرة لأنه لا يغنى من الحق شيئا ، ونحن نطالب المحكمة بأن تستخدم هذه القاعدة البديهية فى كل ما وجه إلينا من اتهامات فكرية وجنائية فإذا ما دخل الشك فى دليل من الأدلة ضدنا فيسقط الدليل بأكمله .

ومثال ذلك أننا اتهمنا بخطف الشيخ الذهبى ولكن أخبر أحد شهود الإثبات من وكالة اليونايتد برس أنه كان يعلم من قبل المباحث أن أحدا سيأتيه يحمل بياناً وعليه أن يقبض عليه ، وبالتالى فقد ظهرت شبهة تدل على أن المباحث يعلمون مسبقا على الأقل قبلها بيومين بهذا الحادث ، وبالتالى فهو يدخل الشك فى أن تكون المباحث هى المدبرة لحادث الخطف فيسقط الدليل الأول ، لو كان هناك دليل على أن الجماعة هى المختطفة .

ومثال آخر وجه الاتهام فى حادثة القتل على أن الجماعة قد قتلته فى شقة الهرم المعروفة .. بداخل الشقة . وبنيت الأدلة على ذلك ، ثم أثبت المستشار إبراهيم القليوبى أن هناك بقعتين من الدماء فى مدخل الشقة يحتمل أن تكونا دليلاً على أن القتل لم يتم فى الشقة ، وأن القتيل قتل بالخارج وأدخل ، هذا مع أن البقعتين لم تحللا فى حينهما ولم يقيد بخصوصهما محضر حقق فيهما ، رغم أن ضباط المباحث قد تبينوهما فى حينهما ، فأية

شبهة أعظم من هذه يمكن أن تقدم فى دليل ، لو كان هناك دليل على أن الجماعة قد قتلته فى داخل هذه الشقة !

انتهى .

هناك رأى آخر يرى أن الجماعة قتلت الشيخ الذهبى لأنه دافع عنها ، ثم هاجمها .. فيكون مثل المنشقين .. ويعامل كالمرتدين .

هذا لأن الجماعة لم تكن تقتل من يهاجمها ، إنما من يهاجمها بعد أن يكون قد عرفها ، وعرف أهدافها .

أى أن قاعدة العقاب عند الجماعة كانت عقاب من دخلوا فى زمرتها ، ثم ارتدوا عنها .. وهى قاعدة مناسبة لتصوراتها .. فالمجتمع جاهلى ليس الآن أوان قتاله .. أو قتال أفراده .. لكن كل من أسلم منه ، وآمن لا يجوز له أن يعود إلى الجاهلية أو يهاجم الجماعة وإلا وجب تطبيق حد الردة عليه !

وأصحاب هذا الرأى يرون أن الجماعة طبقت قاعدة العقاب على الشيخ الذهبى .. وقتلته .. والدليل على ذلك أنهم رفعوا قضية سب ضده ، ثم يئسوا ، فطلبوا من شوكت التونى المحامى ، عنوانه .. للتخلص منه .

ثم .. إن الجماعة بعد الاختطاف أعلنت مسئوليتها عن الحادث وساومت على الرهينة ، ووزعت بيانها على كل الوكالات الأجنبية العاملة فى مجال الأخبار بالقاهرة .

ولا نريد أن نتورط فى كثير من هذا الجدل الجنائى .

فالأهم بالنسبة لنا أن نعرف كيف يفكر شكرى مصطفى وجماعته ؟ وما علاقة أفكاره بمن سبقه من رجال مثله ، مهدوا له الطريق ؟!

إن الدماء التى حاصرت جماعة المسلمين ، أثارت الفزع ، والخوف ، وجمدت الرغبة فى الفهم .. والبحث .. واستمر ذلك طويلاً .

فهل آن الأوان لذلك ؟!

| ١١ |

صراع الكاسيت والفيديو كاسيت !

□ ذعر فى صفوف علماء الدين □ حملة الهجوم على اعضاء الجماعة □ « نحن لا شىء » □ النظام يتهم المشايخ بالتقصير □ صورة الإسلام كما يراها السادات □ المؤسسة الدينية تفقد استقلالها وتاثيرها □ الشيخ الشعراوى وعصر التليفزيون □ مصطفى محمود والحملة ضد اليسار □ مساجد بلا وعاظ □ المعارضة الدينية تستخدم الكاسيت □ ظاهرة الشيخ كشك □ شيخ الازهر يرفض نقد المؤسسة العسكرية □

لم يصدق علماء الدين الذين عرفوا أن الشيخ الذهبى اختطف ، أنه يمكن أن يقتل !

لم يصدقوا أن يتجرأ أحد على رجل منهم .. ويقتله .

كان أقصى ما وصل إليه الخيال .. الخطف .. لأنه بالفعل حدث .. أما القتل فكان مثل الكابوس .. مهما كان مزعجا ، لابد أن ينتهى مع الاستيقاظ .

لذلك .. سارع علماء الأزهر بإصدار بيان بعد ٤٨ ساعة من الاختطاف ، ليعجلوا من انتهاء الكابوس على خير .. ودون أن تهدر دماء واحد منهم .. وتسجل سابقة ما كان أحد يتصور حدوثها .

إن بيان علماء الأزهر يصف حادث الاختطاف بأنه « حادث أليم مفزع » ويؤكد أن علماء الأزهر عرفوا بعده « ما يهدد الإسلام والمسلمين من انحراف فى الفهم وتمزق فى العقيدة وخطر يحدق بمبادىء الإسلام » .. ثم .. تحول البيان إلى نداء .. « إلى هؤلاء الشبان المغرر بهم من أبنائنا » .. استحلفهم « باسم الإسلام وقرآنه وباسم الرسول ﷺ وسنته وباسم المبادىء الإنسانية والمثل الأخلاقية والقيم الدينية » .. ألا يقتلوا الشيخ الذهبى .. « أن يتجنبوا مخالفة أمر الله عز وجل بارتكاب ما حرم الله من اعتداء على النفس بغير حق » !!

لكن ..

البيان .. لم يغير قضاء الله وقدره .

وقتل الشيخ الذهبى بطريقة بشعة لا يرضاها أحد .

وكان .. أن سادت حالة من الذعر والفزع فى صفوف كبار العلماء .. إنهم يمثلون المؤسسة الدينية التى يعتبرها النظام جزءاً منه ، ويفرض عليها الكثير من قيوده وتوجيهاته وتصرفاته .. لكن .. هاهو النظام غير قادر على حماية أرواحهم .. فماذا يملكون الآن سوى الذعر ، والخوف ، وإغلاق أبواب منازلهم « بالترابيس » قبل غروب الشمس ؟!

قال المفتى السابق الشيخ حسين مخلوف لرجال الأمن :

« إنه دائما يقول كلمة الحق أمام ربه وضميره .. وأنه يدعو الله ألا تضطره الظروف للهجرة إلى المملكة العربية السعودية » . (١)

كان الذعر مستتراً بين سطور وكلمات المفتى السابق .

أما المفتى الحالى (فى ذلك الوقت) الشيخ محمد خاطر ، فكان ذعره واضحا ، وصل إلى حد أنه « خيل إليه عندما أوى إلى فراشه أنه سمع جرس باب منزله يدق ، فهب يدعو أهل بيته إلى عدم فتح الباب » .(٢)

ورفض أن يعلق على ما حدث قائلاً :

« ماذا أقول واسمى وارد فى قائمة المطلوبين لدى الجماعة » !

إن هؤلاء العلماء كانوا قبل العثور على جثة الشيخ الذهبى يعلنون آراءهم فى جماعة شكرى مصطفى ، وقد نشرت جريدة « الأهرام » بعضا من هذه الآراء التى قيلت فى بيت الشيخ الذهبى ، قبل ساعات من إعلان الخبر المفجع .(٣)

قالوا :

١ ـ إن هؤلاء الشبان يتصورون أنهم وحدهم الدعاة إلى دين الله الحق وحماة الدين وخلفاء الله على الأرض وغايتهم هى رد الأرض ـ كل الأرض ـ إلى ربها الحق ، والحكم بما أنزل .

٢ ـ أنهم يتصورون أن بقاءهم فى مصر مؤقت ويعدون العدة ليوم الخروج الكبير ، وبقاؤهم المؤقت هنا له هدف هو أن يجمعوا الأنصار ويتجمعوا ويعدوا العدة والمؤنة .

٣ ـ أنهم يطالبون أن تنشر وسائل الإعلام أفكارهم وأهمها أن هذا المجتمع ، مجتمع كافر ولهذا لا يصلون مع الناس ولا يلقون عليهم السلام .

٤ ـ أنهم يطالبون بأن تساعدهم الدولة فى الهجرة إلى أرض بعيدة ، خالية ، وتسوى لهم معاشاتهم ومدخراتهم وتعفيهم من الخدمة العسكرية .

٥ ـ وإلى أن يأتى وقت الرحيل والهجرة الجماعية فإنهم يطالبون بأن يكونوا نقطة ضائعة فى بحر هذا المجتمع « الذى يرفضنا ونرفضه » ولهذا يطالبون أيضا أن يسمح لهم بالتجمع والاستيطان فى أية بقعة نائية فى الصحراء ليقيموا فيها مجتمعا خاصا بهم .

هذا ما قاله بعض كبار العلماء قبل ساعات من التوصل إلى جثة الشيخ الذهبى .

وكان هذا أشهر ما قيل .. ثم .. كان الصمت .. أو الهجوم الإعلامى . (٤)

قال المفتى الأسبق : « إن الدكتور الذهبى مات شهيداً » .. ووصف د . محمد سلام مدكور (رئيس قسم الشريعة بحقوق القاهرة) مقتل الشيخ الذهبى بأنه « عمل منكر » ..

---

(١) و (٢) جمال حمدى ـ روز اليوسف ـ ١٩٧٧/٧/١١ .

(٣) الأهرام ١٩٧٧/٧/٦ .

(٤) الآراء الواردة هنا ملخصة عن الأهرام ٧ و ١٩٧٧/٧/١١ .

وقال المفكر الشهير خالد محمد خالد : « إن المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ كان فيها الخير والشر والصلاح والفساد وقد عاش فيها كبار أئمة الإسلام وعلماؤه ولم يدفعوا هذه المجتمعات بالكفر ولا هربوا منها ولا انقلبوا عليها » .. وأضاف د . عيسى عبده : « إن العنف من الفتنة والفتنة أكبر من القتل ، والإسلام برىء من فوضى الفتن لأنه رسم طريق الدعوة بوضوح » . الحكمة والموعظة الحسنة .

واعلن د . عبد المنعم النمر (وكيل الأزهر لشئون المعاهد) أن أفكار دعاة التكفير والهجرة « دخيلة على الإسلام » وأضاف : « إن إقامة الخلافة مستحيلة » ، ولم يستبعد ان يكون لهذه الأفكار صلة بجهة استعمارية ما .

ووصف الكاتب الإسلامى عبد الله السمان أفكار الجماعة بأنها « أخلاط من أفكار الفرق المنحرفة المنسوبة إلى الإسلام زورا » .. ووصف دراستها للإسلام بأنها « سطحية » .

ونزلت الجمعيات الإسلامية الساحة .

قال رائد جماعة العشيرة المحمدية الشيخ محمد زكى ابراهيم : إنه بالبحث والتجربة ثبت أن الأكثرية الغالبة من أصحاب هذه الدعوة والمنضمين إليها مصابون بعقد نفسية وأزمات عصبية ، وأنهم يجدون فى التشدد ومخالفة المجتمع والحقد على غيرهم ما تطمئن إليه عقدهم وأزماتهم .

وقال رئيس الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : إن دعاة التكفير والهجرة لا يمكن أن نطلق عليهم جماعة إسلامية ، بل هم عصابة للتدمير والتكفير . وقد التقيت بكثير منهم فى إدارة الوعظ بالأزهر ، فكنت أجد فيهم الفراغ والخواء المذهل .

وقال رئيس جمعية شباب سيدنا محمد ، محمد عطية خميس : إن أفكار هذه الجماعة منافية للإسلام ومأخوذة عن الخوارج .

واكتفى رئيس جمعية المحافظة على القرآن محمد عبد المقصود مصطفى بالقول إنها جماعة إرهابية والإسلام برىء من الهمجية والإرهاب وتهديد أمن المجتمع !

وطالب الشيخ عبد الله المشد (عضو لجنة الفتوى بالأزهر) بتطبيق حد « الحرابة » على أعضاء الجماعة !

ولو شئنا رصد كل ما قيل لكنا فى حاجة إلى كتاب كامل مستقل .

إنهم خوارج . لا يعرفون الإسلام الصحيح . مصابون بالعقد النفسية . عصابة للقتل والتدمير يتسمون بالهمجية . وجنون العظمة .. هكذا وصف العلماء والمفكرون هؤلاء الشباب .. لكنهم نسوا فى غمرة السيول التى انهمرت أن يقولوا لنا : من السبب فيما وصل إليه هؤلاء الشبان ؟!

من المسئول ؟!

إن أحداً من العلماء والمفكرين لم يعترف بالتقصير .

اللهم .. إلا أحد وكلاء وزارة الأوقاف ، رفض ذكر اسمه ، وكان بينه وبين « المعاش » شهور قليلة .

قال الرجل بعد أن أنهى صلاة الظهر ، وبصوت مرتفع كالصراخ : (٥) .

« إننى أقول هذا الكلام أمام الله وضميرى .. نحن المسئولون ، أين نحن من هذا الشباب الضائع ؟ » .. « ماذا تفعل وزارة الأوقاف وإدارة الدعوة ، لا شيء ، لا شيء ، نحن لا شيء ! ».. « أقول هذا الكلام وقد بقيت لى شهور قليلة أنهى بعدها حياتى الوظيفية ، فليس لى مأرب .. أقول بأعلى صوتى .. إن هذه الوزارة لا تفعل شيئا البتة سوى استقبال وتوديع الضيوف ، هذه الوزارة عبارة عن « مندرة » ..

ولابد .. أن هذا الكلام صحيح ، ليس لأنه خارج من رجل يعرف الحقيقة ويعيشها ، وإنما لأن الناس فى مصر تعرف ذلك .. تعرف أن الدولة حولت دور العبادة وعلماء الدين ، إلى مؤسسة رسمية ، روتينية ، لها دور فى التبرير ، والترويج ، وتساند النظام فى كل الأحوال والظروف ، فكان أن فقد الثقة فيها كل من فقد الثقة فى النظام .. وكان أن عارضها كل من عارضه .

ومن الإنصاف أن نذكر أن مصر تمتلىء بعلماء أفاضل ، يعرفون الإسلام الصحيح ، ويملكون قدرات هائلة على التوجيه والدعوة ، والتربية السليمة ، لكنهم لا يملكون ـ بسبب تدخل أجهزة الأمن ـ إلا تجنب المشاكل وإيثار السلامة ، أو السفر إلى الخارج .

إن أجهزة الأمن دست أنفها ، ومدت آذانها ، فى أوساط العلماء ، وكأن الخطر منهم ، وكأنهم لا يستحقون الثقة . وأضافت التعليمات البيروقراطية الكثير من القيود والأغلال .. فالكلام على المنابر بحساب .. وخطب المساجد تخضع للرقابة .. والحوار بغير إذن مسبق ممنوع .. والحديث فى أحوال المجتمع جريمة .. ثم .. على العلماء والمشايخ ـ بعد ذلك تحمل خطأ عدم تقويم الشباب ..

لقد تعامل النظام ـ ولا يزال ـ معهم على طريقة اقطع أيديهم واطلب منهم الكتابة ، واقطع أرجلهم واطلب منهم الجرى ، وأمسك بألسنتهم واطلب منهم الدعوة .

وكان ..

أن شن النظام حملة قاسية على العلماء ، واتهمهم بالتقاعس ، وإتاحة الفرصة للجماعات المتطرفة للازدهار ، والنمو والانتشار .. وفى خطابه أمام رجال الدين (١٩ أكتوبر ١٩٧٧) طالبهم الرئيس السادات بالنزول « من أبراجهم العاجية » لشرح صورة الإسلام كما يراها النظام .. وكان ذلك بداية هجوم عنيف من أجهزة الأمن والدولة على

---

(٥) جمال حمدى ـ روز اليوسف ـ المصدر السابق .

العلماء .. وكان هذا الهجوم بمثابة مرحلة حرجة من عمر المؤسسة الدينية وتاريخها .

لقد بحث النظام ـ كعادته ـ عن شماعة يعلق عليها أخطاءه .

وبحث ـ كعادته أيضاً ـ عمن يحمل عنه أوزاره ..

إن النظام فتح أبواب المجتمع للاستهلاك ، والفساد ، وجد الشبان أنفسهم عاجزين عن التفاهم معه ، وفى نفس الوقت وجدوا من ييسر لهم كل شىء ، ويحل لهم كل مشاكلهم ومتاعبهم ، فاندفعوا إليه .. وجدوا من يجعلهم يشعرون بالتعالى على المجتمع ، ويفصل بينه وبينهم ، ويوفر لهم العمل والإقامة والزوجة دون مجهود ، وفى نفس الوقت يؤكد لهم أن طريقهم هو طريق الله .. فلماذا لا يتبعونه ؟ لماذا لا يمشون خلفه ؟!!

لم يسأل النظام نفسه مثل هذه الأسئلة ، وفضل أن يلقى بذنوبه على غيره !

ثم .. إنه لم يسأل نفسه عما حدده من دور ، وما منحه من صلاحيات للمؤسسة الدينية ، وفضل أن يحاسبها على نسيج لم يوفر لها خيوط غزله !

إن هذه المؤسسة ـ وعلى رأسها الأزهر الشريف ـ كانت دائما قوة روحية هائلة ، ومؤثرة ، ونافذة فى كافة خلايا الحياة المصرية .. كان للأزهر دوره الوطنى ، والحضارى ، والاجتماعى ، وكان هذا الدور بارزاً فى تاريخنا المعاصر لا يجرؤ أحد على تجاوزه أو إنكاره .. ولا يزال المشايخ الذين قادوا الأزهر ـ وهو يحفر دوره فى صخور التخلف ويشق مجارى أنهار التجديد وسط صحراء الجمود ـ لا يزالون نجوماً فى حياتنا حتى الآن .. عمر مكرم . محمد عبده . رفاعة الطهطاوى . على يوسف . عبد العزيز جاويش . وحتى الآن لا يذكر هذا الدور ، إلا ويذكر هؤلاء .

إن تاريخ مصر ـ الثورى ، المعاصر ، الذى يبدأ بمقاومة حملة بونابرت ، كان ينحنى دائما لدور « العمائم » .. لكن .. هذا الدور خفت تأثيره بعد أن أصبحت المؤسسة الدينية مؤسسة رسمية .. بعد أن أصبحت المؤسسة الدينية جزءاً من الهيكل الوظيفى للحكومة ، تخضع لقرارات التعيين والترقى والإحالة إلى المعاش ، وتفسر الدين حسب اتجاه النظام العام .

ففى العهد الناصرى كان بعض علماء الدين يفسرون الإسلام بما يخدم التوجهات الاشتراكية للنظام ، كما كان دورهم أيضا تعبئة المشاعر الدينية لمواجهة العدو الإسرائيلى كجزء من توجهات النظام أيضا .. وعندما تولى السادات الحكم ، وانقلبت توجهات النظام إلى الضد (من الاشتراكية إلى الانفتاح ـ ومن الروس إلى الأمريكان ـ ومن محاربة إسرائيل إلى الصلح معها) وجد بعض علماء الدين فيما عرفوا من آيات وأحاديث ما يخدم النظام .

وأمام هذا الاستخدام ، بدأت المؤسسة الدينية تفقد كيانها المستقل ، وتأثيرها الكبير ،

ولم تعد تجذب الشباب إليها .. كما أن نظام السادات نفسه لم يمنحها الاهتمام اللازم .. وبدأت الكثير من الخيوط تتشابك وتتقاطع .

لقد عرف السادات خطورة جهاز « التليفزيون » فى مجتمع ترتفع فيه نسبة الأمية إلى أكثر من ٨٠٪ وعرف سحر الصورة الملونة التى تدخل بيوت الملايين ـ ممزوجة بالصوت ـ دون استئذان ، فلم يتردد فى استخدام هذا الاختراع الساحر ، ونجح فى توظيفه لتحقيق « أهدافه » (٦)

وقد فتحت ستوديوهات التليفزيون فى ماسبيرو لعدد من الشخصيات الدينية والأدبية ، لتتحدث ـ عبر موجات الأثير ـ إلى السواد الأعظم من المصريين ، فسحبت الكثير من البساط من تحت أقدام الوعاظ والأئمة فى المساجد .. وجعلت المساجد مكاناً ـ فقط ـ لأداء الصلوات بثواب مضاعف .(٧)

الشيخ محمد متولى الشعراوى كان أبرز الدعاة الذين شدت إليهم الملايين بعد أن ظهر على شاشة التليفزيون .. قُدم لأول مرة ـ فى التليفزيون ـ كضيف فى البرنامج الدينى « نور على نور » (٨) ثم أصبحت له مساحة ثابتة ومستقلة .

والشيخ الشعراوى لا يقرأ من ورقة ، وله طريقة معبرة وهو يتحدث ، وأسلوبه بسيط ، سهل .. وجذاب .. ويستخدم الكثير من طرق المنطق ، فى ربط الإسلام ، بقضايا العصر ، ويربط مريديه بأسئلة ، تكون إجاباتها تكراراً لكلمة سبق أن قالها .

ولاشك أنه نجح فى جذب أعداد هائلة من الناس حوله ، وسجلت أحاديثه على شرائط الكاسيت والفيديو ، ووجدت من يشتريها فى وقت قصير ، كما أن هذه الأحاديث ، سرعان ما انتقلت إلى حروف المطبعة ، وطبعت فى كتب ، كانت فى مقدمة أفضل المبيعات .

وخلال فترة قصيرة من الزمن أصبح الشيخ الشعراوى نجما متألقا فى سماء المجتمع ، لا يتردد الناس فى وصف من يناقش أفكاره بأوصاف غير دقيقة ومتسرعة .. ومع أن الإسلام يدعو إلى حرية الفكر والنقاش وتشغيل العقل ، فإن الذين تجرأوا وناقشوا الشيخ الجليل (مثل د . يوسف إدريس ود . زكى نجيب محمود ود . فؤاد زكريا) قد نالهم الكثير من الأذى والأوصاف غير الإسلامية .

---

(٦) تشير بعض إحصائيات منظمة اليونسكو إلى ان الرئيس السادات كان يحتل ٢٥ ساعة من إرسال التليفزيون شهريا ، بينما الرئيس الأمريكى كان لا يحتل سوى ٧ ساعات ، من جملة إرسال محطات التليفزيون الامريكية شهرياً وذلك فى الفترة من يناير ١٩٧٧ إلى ديسمبر ١٩٧٨ .

(٧) فى إحصاء للإذاعة والتليفزيون لعام ١٩٧٧ ، وصل إرسال البرامج الدينية إلى ٢٣ ساعة فى اليوم الواحد . ويشير إحصاء آخر إلى ان عدد الصفحات الدينية فى مصر بلغ ١٢ صفحة اسبوعيا .. ويشير إحصاء ثالث إلى انه قد صدر ١٠٣٥ كتابا دينيا (غير المصحف) خلال العام ذاته .

(٨) برنامج كان اسبوعيا ، يقدم كل يوم جمعة ، وقد توقف منذ سنوات ، وفى المساحة المخصصة له ، راح الشيخ الشعراوى يقدم احاديثه .

وقد حاول السادات استثمار شعبية الشيخ الشعراوى ، فعينه وزيراً للأوقاف ، ليصبح جزءاً من النظام ، وفيما بعد وصف الشيخ الشعراوى هذه المرحلة - التى كان فيها وزيراً - بأنها أصعب مرحلة فى حياته ، وكانت سيرة تلك المرحلة تسبب له الكثير من الغضب والتوتر .

وقد جعل منصب وزير الأوقاف هدفا لحملات النقد القاسية من قبل جماعات المتطرفين ، فرغم أن دروسه وأحاديثه فى التليفزيون شدت (وتشد) إعجاب الملايين ، إلا انها لم تؤثر على الشبان الأصوليين ، أعضاء تلك الجماعات .. ومن جانبه لم يقترب الشيخ الشعراوى (تليفزيونيا) من الموضوعات التى يطرحونها .. فكان هذا تحجيما لدوره على اتساع انتشاره .

فى مواجهة مع « الأهرام » بعد قتل الشيخ الذهبى ، قال الشيخ الشعراوى :

١ - إن خصوم الإسلام عز عليهم أن يدخلوا الإسلام من باب التعصب عليه .. فانتهوا إلى فكرة اقتحام الإسلام من جهة التعصب له .. وغالب الظن أن خصوم الإسلام ، أحسوا جيداً رغبة مصر فى أن تعود إلى حضن الإسلام ، فأفزعتهم هذه الظاهرة ، ففكروا فى أن يخططوا لهدم هذه الوثبة بالعمل على إيجاد طائفة تستغل هذه الموجة لتركبها بشعارات قد تروق عند جمهور المسلمين ولكن بطريقة تتنافى مع الإسلام فهى كما قيل قديما كلمة حق يراد بها باطل ، وإلا لماذا وجهوا أول هوسهم إلى عالم فاضل من علماء الإسلام . كان الأولى بهم أن يصفوا أولاً الجو من الانحراف عن الإسلام . وأن يكونوا نموذجاً مستميلا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتقدير الظروف التى تحيط بأمة ظلت مدة طويلة بعيدة عن حكم الإسلام . فتقدير هذا الظرف يجعلنا نؤكد أن مالا يدرك كله لا يترك كله .

٢ - إن الذين قادوا هذا التطرف ، صادفوا عقولاً بدون خميرة إيمانية ، وعندهم جوع إلى أى لون من ألوان الفكر تناسب طيش المراهقة ولاشك أنه ليكفى ذلك حتى يمنى هؤلاء بأنهم سيصعدون القمة .. والدليل على ذلك أن كثيراً من أتباع هؤلاء ممن لا تؤهلهم عقلياتهم لتفهم قضايا الدين ، فهم من عشاق حلقات العنف والمغامرة .

٣ - من يفهم الدين يعرف أن أفكار جماعة التكفير والهجرة غريبة ومضللة ، وليست المسألة هى الإشباع الدينى فقط ولكن هناك أيضا الطموحات الأخرى . والمبطل دائما يترك ما يهدم بطلانه . فالمبادىء التى تسير عليها الجماعة تناقض دعواها ، فليس فى الإسلام أن تتزوج الفتاة بدون ولى ، وليس فى الإسلام أن يجتمع أزواج متعددون بزوجات متعددات فى مكان واحد . وليس فى الإسلام عصيان الأهل فضلا عن هجرهم . ولكن برغم وضوح الضلال فى هذه الدعوات كلها فإنهم وجدوا قابلين لها فى ذواتهم ، ومتعصبين لإكراه غيرهم عليها .

٤ - لو أننا عددنا مسئولاً واحداً لهانت المشكلة ولكن المسئول فى هذا الأمر مسئوليات

متنوعة ، تكاد تستوعب البيئة كلها .. من إهمال أسرة ، وتقصير منهج دراسي ، وضعف وسائل الإعلام الديني ، مع قصور أجهزة الدعوة وعدم ملاءمتها لمنهج العصر الذي نعيش فيه .. عصر العقل الرياضي وعصر المعادلات .

٥ ـ هي ظاهرة فعلاً وجود السيدات والفتيات في عضوية الجماعة .. ولكن في الواقع لو تطلعت إليهن لوجدت أنهن لسن على درجة من الجمال الملفت .. إن هناك عوامل نفسية وبيئية عديدة وراء هذه الظاهرة جعلت صدور فتيان هذه الجماعة حنانا افتقدته الفتيات عضوات الجماعة .

وقد لوحظ أن ما قاله الشيخ الشعراوي لم يختلف عن التفسير الرسمي لما حدث ، بما في ذلك اتهام أجهزة الدعوة بالتقصير .

ولوحظ أيضا أنه اكتفى بالعوامل الأخلاقية والنفسية ولم يقترب من العناصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .. رغم أهميتها .. ورغم أنه يضعها في حسبانه وهو يفسر القرآن الكريم .. فهل كان التعرض لهذه العناصر سيؤدي إلى اختلاف ما مع التفسير الرسمي لما حدث ؟! (٩)

وحدث أن كان الشيخ الشعراوي في ندوة خارج القاهرة ، عندما فوجيء بأعضاء إحدى هذه الجماعات يقولون :

ـ نحن لا نفعل شيئا لم يفعله النبي ﷺ .

فقال لهم :

ـ إن النبي ﷺ لم يستخدم الأسلحة الأتوماتيكية لتحقيق أهدافه !

قالوا له :

ـ إننا نرفض إجراء أي اتصال بالدولة لأن صفقاتها تقوم على الربا ، وهو أمر غير شرعي .

فقال لهم :

ـ إنهم بناء على هذا المبدأ لا يمكنهم حتى شراء الخبز لأن الدولة تدعمه .

واستمر الحوار على هذا المنوال .

وانتهى دون أن يقنع أي فريق ، الفريق الآخر .

ومن الشخصيات الأدبية التي دخلت البيوت ، عبر الإرسال التليفزيوني ، الدكتور (طبيب) مصطفى محمود !

---

(٩) لاشك أن الشيخ الشعراوي كان يتحاشى أن ينقد النظام ، وأذكر أنني ـ بعد اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ـ ذهبت إلى أحد المطاعم الذي تربطه بصاحبه علاقة ـ لإجراء حوار صحفي معه ، وعندما سألته عن رأيه في فصل الدين عن الدولة كما أعلن السادات ، اكتفى بالقول : إن الإسلام ينظم كل شيء . ورفض الدخول في التفاصيل ، ولاشك أنه قال ما قاله بغضب من لا يريد الكلام في الموضوع ، وسجل انفعالاته جهاز تسجيل أحضرته ليسجل حواري ـ الذي لم يتم ـ معه .

بدأ مصطفى محمود حياته الأدبية والصحفية كقاص وكاتب تقدمي فى مجلة « صباح الخير » .. بعد اعتزال الطب الذى لم يمارسه سوى سنوات قليلة .. وكان موقفه العقائدى انعكاساً لقراءات قديمة فى مكتبة « البلدية » بمدينة طنطا ، تعرف من خلالها على شبلى شميل ، وسلامة موسى ، وفرويد وداروين وكارل ماركس.كان وقتها من دعاة رفض الغيبيات والمطالبين بالكف عن إطلاق البخور ، وكان يكرر : « من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات » وكان أول كتاب له « الله والإنسان » .. وقد صودر الكتاب فى العهد الناصرى لما اشتم منه من أحاسيس مادية ، وصفت بالإلحاد .. واشتهر بعد ذلك ككاتب يرد على مشاكل القراء والعشاق العاطفية ، وقد جمع بعض الحالات ونشرها فى كتاب « ٥٥ مشكلة حب » .

فى السبعينيات ، انقلب مصطفى محمود تماماً ، وبدأ انقلابه بما أسماه ، « التفسير العصرى للقرآن » وهى محاولة أثارت الكثير من الجدل والخلاف بين رجال الدين وعلماء التفسير .. ولعل موقفه القديم من الدين ، كان وراء الشك فى محاولته .. لكنه سرعان مانشر مجموعة من الكتب المتلاحقة التى هاجم فيها الماركسيين ، والماديين .. واليساريين ، منها « حوار مع صديقى الملحد » و « رحلتى من الشك إلى اليقين » ، و « الماركسية والإسلام » . و « لماذا رفضت الماركسية » .. الخ .

وفى الحقيقة يعد نصف الكتب الفكرية لمصطفى محمود دفاعاً عن المادية ، ويعد النصف الآخر هجوماً عليها .. لكن رغم ذلك فإنه لم ينل الشهرة العريضة ، إلا بعد أن قدم فى التليفزيون برنامج « العلم والإيمان » ، وهو برنامج كان أبرز عناصر نجاحه الأفلام العلمية ، والوثائقية ، المثيرة ، والمستوردة من الغرب ، وقد كان مصطفى محمود يعلق عليها ببساطة لا تزيد كثيراً على الوصف ، مع إضافة تعليقات من عنده ـ فى الوقت المناسب ـ تشير إلى عظمة الخالق .. وقدرته سبحانه وتعالى .

أى أنه تعامل فى الحقيقة ـ مع جمهور التليفزيون الذى تشده أفلام عوالم البحار والغابات والحيوانات والتى تروج لها برامج تليفزيونية أخرى لا تحمل اسم « العلم والإيمان » ، وتخلو من تعليقات يمكن أن يتوصل إليها المشاهد العادى بنفسه .

وقد ساهم مصطفى محمود فى الحملة المتصاعدة التى شنها السادات تدريجياً على اليسار ، ونُشر كتابه « الماركسية والإسلام » فى الصحف اليومية واسعة الانتشار ، ثم كان أن وجد من يترجمه إلى اللغة الإنجليزية .. ونشر كتبا أخرى فى هذا الاتجاه ، أبرزها : « أكذوبة اليسار الإسلامى » .

وتركز كل كتابات مصطفى محمود الدينية على الهجوم على فكر كان يعتنقه ، ولعل هذا نوع من تكفير الذنب ، وعقاب للذات بأثر رجعى ، أولعله نوع من المبالغة المقصودة للتأكيد على أنه تغير ، ولم يقترب فى هذه الكتابات من علاقة الإسلام بالمجتمع ونظام الحكم .

ورفض المنصب الكبير الذى عرضه عليه السادات مكتفيا ببريق التليفزيون ، ومبتعداً عن التورط فى مواجهة أية حركات دينية معادية للنظام ، أو حتى مختلفة معه .

لقد ركز السادات على استخدام التليفزيون .. وأهمل جهاز الدعوة . فكان ان أحس الوعاظ بالظلم المادى ، والمعنوى ، وبدأ عددهم فى التناقص .. وفى نفس الوقت زادت « المساجد الأهلية » غير الخاضعة لإشراف وزارة الأوقاف إلى حد أصبح من الصعب (لا نقول من المستحيل) عنده السيطرة عليها ، أو على الأقل السيطرة على ما يقال على منابرها ، أو ما يحدث فيها .

إن عدد المساجد الحكومية كان عام ١٩٦٢ حوالى ٣ آلاف مسجد ، وكان عدد المساجد الأهلية حوالى ١٤ ألف مسجد .. وبعد ٢٠ سنة تقريباً تضاعف عدد المساجد التى تشرف عليها الحكومة (أصبح ٦ آلاف مسجد) وقفز عدد المساجد الأهلية إلى أكثر من ٤٠ ألف مسجد (حوالى ٣ أضعاف)

قبل ٤٨ ساعة من حادث اختطاف الشيخ الذهبى ، قال الشيخ صلاح أبو إسماعيل رئيس لجنة الشئون الدينية والأوقاف فى مجلس الشعب : « إن واقع المساجد وصل إلى حالة تقتضى من المسئولين أن يتحركوا ، وفوراً لمواجهتها إذا كنا جادين بالنهوض بالدعوة ».

وأضاف إن فى مصر إماما لكل ١٢ مسجداً !

فى نفس الوقت قال الشيخ عبد الرحمن البيصار وكيل الأزهر : إن السبب هو انصراف خريجى الأزهر عن العمل فى الإمامة ، فهم ـ بسبب الحوافز والمرتبات ـ يفضلون العمل فى التدريس ، ويسافرون إلى الخارج .. كذلك بسبب تعرض الكثير منهم للعنف والاضطهاد فى أوقات سياسية مختلفة .

وأضاف : إن النوعية المؤهلة لهذا العمل غير موجودة أصلاً !

وفيما بعد ...

قال د . زكريا البرى آخر وزير أوقاف فى عهد السادات : (١٠)

لقد تم الإسراع فى بناء المساجد الأهلية بمعدل لم تعرف مصر مثيلاً له مطلقاً وذلك خلال السنوات الأخيرة ، نظراً لأن أشخاصاً معينين كان فى حوزتهم أموال طائلة ، ولم تكن إمكانيات الوزارة للإشراف على هذا الكم الضخم من المساجد كافية لإمدادها بالأئمة والوعاظ المعتمدين . وقد بدأنا خلال السنة الماضية (يقصد سنة ١٩٧٩) فى معالجة هذه الظاهرة برصد مبلغ مليونى جنيه لاستيعاب جزء من هذه المساجد فى الوزارة ، وبهذا الأسلوب استطاعت الوزارة استيعاب نحو ٩٠٠ مسجد .. فقط ٩٠٠ مسجد .

أكثر من ذلك ، خلت المساجد الحكومية أحياناً من الأئمة والوعاظ بسبب تحول خريجى

---

(١٠) قال ذلك بعد اغتيال السادات فى نوفمبر ١٩٨١ .

كلية أصول الدين ـ مع التضخم والانفتاح الاقتصادى ـ إلى أعمال أخرى مربحة ، كما اتضح أن ٢٠٪ من الأئمة المعتمدين فى مصر كانوا معارين خارج البلاد فى عام ١٩٨١ .

وبهذا النقص الواضح فى أئمة المساجد ، وبسبب عجز الدولة عن الإشراف على المساجد الأهلية ، بدأ الشبان المنتمون للجماعات الإسلامية فى السيطرة على المنابر .. وأصبحت إعادتها منهم مسألة حربية تحتاج لتدخل قوات الأمن المركزى .. وعلى ذلك اصبح بجانب المؤسسة الدينية الرسمية ، مؤسسة دينية خاصة ، تلتقى معها أحياناً وتواجهها وتعارضها وتهاجمها غالبا .

وكالعادة فى أية مؤسسة بيروقراطية حكومية ، راحت المؤسسة الدينية الرسمية تفتش عن مبرر مناسب ينقذها من اللوم والنقد .. فقالت إدارة الأزهر : إن وزارة الأوقاف لا تقوم بواجبها فى الإشراف على المساجد كما يجب .. وردت وزارة الأوقاف : إن أعداد الأئمة الذين يؤهلهم الأزهر لا تكفى .. وعندما أصبح الطرفان فى زورق واحد أجمعا : أن الميزانية لا تسمح !

ومع ازدهار المؤسسة الدينية الخاصة وتعاظم قوتها ، راح عدد من كبار رجال المؤسسة الدينية الرسمية يراهنون عليها ، ويؤيدون الأفكار التى تلقى على منابرها .. وكان أن وجد التطرف أعداداً متزايدة تناصره .

وقد لاحظ السادات ذلك .. فسعى لمنح هؤلاء المزيد من المناصب والمكاسب .. فرفع أحدهم من خطيب مسجد بالقاهرة إلى عميد لإحدى الكليات الأزهرية .. وكانت هذه السياسة « بمثابة منح جائزة للناقدين » .. وشجع هذا الجميع على المزيد من النقد .. وتوالت محاولات التمرد على الأوضاع .

فى نفس الوقت انتبه بعض الأئمة إلى أن النظام تجاوز الكثير من حدوده السياسية والاقتصادية والأخلاقية ، وأنهم لا يمكن أن يسكتوا على ما يفعله ، حفاظا على ثقة الناس فيهم ، فخرجوا عن القواعد واللوائح وتعليمات الرقابة ، وانطلقوا ـ من فوق منابرهم ـ يعارضون النظام ، ويتجاوزون الحدود المرسومة لهم .. فحدث ما يوصف بالتمرد على المؤسسة الدينية الرسمية ، أو ما يوصف باستعادة الدور الحقيقى لهذه المؤسسة .

وكان أبرز هؤلاء وأشهرهم الشيخ عبد الحميد كشك .

إن الذى يتجول فى شوارع القاهرة سيجد صوته مسجلا على شرائط كاسيت يسمعها الناس فى أماكن مختلفة: فى سيارات التاكسى .. فى محلات العصير .. فى مداخل العمارات .. وعلى الرصيف أحياناً .

لقد أبرزت أجهزة الإذاعة والتليفزيون الحكومية أصوات وتعليقات رجال الدين المعبرين عن سياسة النظام ، المدافعين عن سياسته ، المبررين لتصرفاته ، أما المعارضون ، فكان من حسن حظهم وجود اختراع جهاز التسجيل وانتشاره فى كل بيت .

ولأن للشيخ كشك صوتا مميزاً ، وطريقة خاصة فى السخرية والنقد ، انتشرت الشرائط المسجل عليها مواعظه ، وأخذت أرقاما مسلسلة ، وحققت مبيعات أكبر من مبيعات شرائط أم كلثوم .. وانتشرت هذه الشرائط فى كل البلاد العربية ، ثم جاوزت الحدود إلى المسلمين المقيمين فى دول العالم المختلفة !

وبظهور شرائط الشيخ كشك وتداولها وانتشارها السريع ، عادت للأذهان ، تجربة النظام الإيرانى مع شرائط الخومينى ، إن تعليمات الخومينى وهو فى المنفى ، كانت تتسرب إلى إيران فى شريط كاسيت لا يزيد على حجم الكف ، وكانت تطبع منه ملايين النسخ ، وفى النهاية سقط نظام حكم الشاه .

والشيخ كشك ولد فى مارس ١٩٣٣ فى شبراخيت .. إحدى قرى البحيرة .. كان ثالث ستة من الأخوة تضمهم أسرة ليست « ذات بسطة من المال » فى السادسة من عمره أصيب فى عينيه برمد صديدى ، أضاع علاج حلاق القرية العين اليسرى ، وأضعف العين اليمنى .. بدأ فى حفظ القرآن فى جمعية خاصة ، وساعد على ذلك أن والده كان يعمل تاجراً فى محل صغير ، يحصل على لقمة العيش بشق الأنفس .. التحق بعد ذلك بمعهد الأسكندرية الدينى .. ولم تمر أيام كثيرة حتى فقد العين اليمنى ، وفقد الأب ، وكان لا يحمل فقط إلا الابتدائية الأزهرية .. لكنه أصر على مواصلة الدراسة فى القاهرة ، وشجعته على ذلك أمه التى أصرت على تعليم أولادها إلى أقصى مدى يصلون إليه .. فكان أن حصل على شهادته الجامعية العالية من كلية أصول الدين ، وعين واعظا فى أحد مساجد الحكومة سنة ١٩٦٤ ، وقبض عليه فى سنة ١٩٦٥ ، مع من قبض عليهم من الإخوان المسلمين ، ولم يفرج عنه إلا بعد ٣ سنوات تقريبا .(١١)

حقق الشيخ كشك نجاحاً كبيراً كإمام مسجد ، وفرض على وزارة الأوقاف توسيع المسجد أكثر من مرة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من المصلين ، الذين وصل عددهم فى عام ١٩٨١ إلى حوالى عشرة آلاف شخص ، كان عدد لا بأس به منهم يضع جهاز التسجيل إلى جانبه ليسجل ما يقوله الشيخ .

ومنذ سنة ١٩٦٩ وحتى سنة ١٩٨٥ ألف الشيخ كشك ٤٥ كتاباً فى موضوعات إسلامية مختلفة ، لاقت رواجا كبيراً وإن كان أقل من شرائطه .

وفى سبتمبر ١٩٨١ كان الشيخ كشك من أبرز المعتقلين !

وقد ضاعف الاعتقال من شهرته ومن إقبال الناس على أعماله التى كانت تتناول الكثير من الأمور المعاصرة مثل : الفساد الاقتصادى . السلام مع إسرائيل . الشذوذ الجنسى .... الخ .

ومن بين الذين ضاعف الاعتقال من شهرتهم أيضا ، كان الشيخ أحمد المحلاوى ،

---

(١١) لمزيد من التفاصيل اقرا مذكرات الشيخ كشك ـ المختار الإسلامى ـ القاهرة ١٩٨٦ .

الذى خسر السادات كثيراً عندما وصفه فى خطاب عام بعد ٣ سبتمبر ١٩٨١ بأنه « مرمى زى الكلب فى السجن » .

إن الشيخ المحلاوى نموذج آخر لتمرد أئمة المساجد على المؤسسة الدينية الرسمية .. ولد فى إحدى قرى كفر الشيخ .. نشأ يتيما .. حفظ القرآن مبكراً .. تخرج فى كلية اللغة العربية بالأزهر .. عين إماماً فى إحدى قرى كفر الشيخ ، ثم نقل إلى مسجد « القائد إبراهيم » بالأسكندرية ... جذب بنقده الحاد للنظام الكثير من شباب الجامعات .. دخل انتخابات مجلس الشعب فى ١٩٧٩ لكنه لم ينجح .. هاجم الانفتاح ، والاستبداد ، وكامب ديفيد ، وندد باستقبال شاه إيران فى مصر .(١٢)

فى يوليو ١٩٨١ ، أوقف عن العمل ، فخرجت جموع المصلين تندد بالقرار وتهتف بحياته .. لكن هذا لم يمنع إحالته إلى المدعى العام الاشتراكى بتهمة التهجم على نظام الحكم ، والمساس بالوحدة الوطنية ، ومعاهدة السلام وإثارة الجماهير .

وفى ٣ سبتمبر من نفس العام قبض عليه .. وانضم إلى آخرين يمثلون مختلف رموز المجتمع المصرى .

إن الشيخين كشك والمحلاوى كانا يمثلان حالة تمرد من علماء الدين والأئمة على المؤسسة الدينية الرسمية ، وهى حالة عكست إحساساً عاماً بضعف هذه المؤسسة ، وجعلتها ـ بعد حادث الشيخ الذهبى ـ فى مأزق حرج .. فهى متهمة من الناس بالانضواء تحت جناح النظام ، ومتهمة من النظام بالتقصير فى دورها إلى حد ترك الشباب فى خواء دينى نهبا لتيارات العنف والتطرف .

وكان لابد من البحث عن حل للخروج من هذا المأزق !

فى ذلك الوقت ، كان على رأس المؤسسة الدينية الرسمية ، شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود .. وقد تصادف أن وصل لندن فى اليوم الذى اختطف فيه الشيخ الذهبى (لحضور مؤتمر للاقتصاد الإسلامى) .. ويبدو أنه لم يشعر بخطورة الحادث فلم يجد مبرراً لقطع رحلته والعودة سريعا إلى القاهرة .. وهكذا .. لم يعرف الناس وجهة نظره فيما حدث إلا يوم ١٦ يوليو فى جريدة « الأهرام » وكان الحادث قد بدأ يفقد سخونته .

وكما توقع الناس ، استنكر الشيخ عبد الحليم محمود أفكار شكرى مصطفى ، وجماعته ، ووصف القسوة التى قتل بها الشيخ الذهبى بأنها « دليل كاف على أنه لا إيمان فى قلوب هؤلاء القوم » .

وعندما سئل عن السبب .. أرجعه إلى فترة من الزمن كان التوجه الروحى الصحيح

---

(١٢) لمزيد من التفاصيل ـ انظر كتاب « قصتى مع السادات » ـ المختار الإسلامى ـ ١٩٨٥ .

عزيزاً أو مفقوداً ، وكان فيها كثير من أبناء الأمة واقعا تحت تأثير فلسفات واتجاهات لا تمت بصلة إلى جذور ثقافتنا وتاريخنا ومقومات حياتنا الدينية .

وأضاف · فى هذا الجو من التصورات وفى غيبة التوجه الدينى الصحيح وتعطش القلوب إلى رى روحى نابع من القيم الدينية الإسلامية الكريمة وفهم عميق لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، قامت فئات ممن لم يحصلوا الثقافة الدينية التى يوجبها الدور القيادى الواعى باغتصاب حق توجيه الشباب ، فأفرغوا فى عقولهم وقلوبهم أفكاراً خارجة واتجاهات منحرفة وفلسفة لا تعرف الحب والرحمة فى قليل أو كثير . أفهموهم أن المجتمعات التى يحيون فيها جاهلية .. وأن الحكم الذى يحكمهم حكم جاهلى وأن الفكر السياسي كله انحراف وخروج ، إلى جانب ذلك نسوا قول الله عز وجل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ونسوا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا رحمة مهداة » فامتلأت قلوبهم بالقسوة على أهليهم وأخوتهم وإخوانهم ، وأظلمت عقولهم بالفهم القائم على الشهوة والهوى ، فتصوروا القتل إنقاذا والتخريب تعميراً والاعتداء على الآمنين نصراً مبينا .. إن السبب فى ظهور هذه الجماعات وغيرها الفراغ الدينى الذى ساد مجتمعنا الإسلامى ..

كان مثيراً للدهشة أن يتحدث شيخ الأزهر عن الفراغ الدينى ، إذ أن ذلك يعنى اعترافاً منه بالتقصير .. لكن ذلك لم يكن مقصده ، وإنما كان مقصده ، هو نقد الاتجاهات والفلسفات الاجتماعية واتهامها بإزاحة الاهتمام بالدين ، وإزاحة التوجه الروحى الصحيح .

بالتحديد - كان الإمام الأكبر يقصد التيارات اليسارية التى نذر نفسه للهجوم عليها منذ بداية السبعينيات .. بعد أن نسب إليها كل ما يتصور ومالا يتصور من مفاسد، وعيوب .

وقد كان الشيخ عبد الحليم محمود من المؤيدين البارزين لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وفى عهده ، دُعمت جماعة الإخوان المسلمين ، والجماعات الإسلامية الأخرى ، كما أن علماء الدين المتشددين لم يخفوا - بوجوده على رأس الأزهر - خلافهم مع النظام وهجومهم عليه بسبب التباطؤ فى تطبيق الحدود الشرعية ، وراحوا يطالبون بإلغاء الكليات العلمية بجامعة الأزهر (مثل الطب والتجارة) وشنوا معركة من أجل إلغاء القانون الخاص بتطوير الأزهر . القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، الذى قدمه جمال عبد الناصر إلى مجلس الأمة تحت « قانون إعادة تنظيم الأزهر » والذى أعطى الحق لرئيس الجمهورية فى تعيين شيخ الأزهر ، وقصر دوره « على الشئون الدينية » .. كما أدخل هذا القانون التعليم العصرى لكى يأخذ رجال الدين نصيبهم من الدنيا والدين معا .

والشيخ عبد الحليم محمود من « أعيان الريف » كما يعترف هو بنفسه [١٣] .. ولد فى إحدى قرى محافظة الشرقية ، تبعد حوالى ٤٥ كيلو متراً عن القاهرة .. تزوج فى سن مبكرة (١٣ سنة) .. درس فى الأزهر .. بعد حصوله على شهادة « العالمية » سافر إلى فرنسا لاستكمال دراساته العليا .. وبعد أن حصل على الليسانس ، فكر أن تكون رسالته عن « فن الجمال » إلا أن أستاذه « مسينيون » رفض ، وطلب منه أن يكتب عن التصوف الإسلامى .. وقد كان .

فى العام الذى أجهز فيه السادات على من أسماهم « مراكز القوى » عين وزيراً لشئون الأزهر ، وفى سنة ١٩٧٣ أصبح شيخ الأزهر ، وظل فى منصبه حتى توفاه الله سنة ١٩٧٨ .

أى أنه عاصر ـ كشيخ للأزهر وكوزير لشئونه ـ حكم السادات من بدايته الفعلية (١٩٧١) إلى ما بعد إصابته بأزمة قلبية (إلى ما بعد ١٩٧٧) .

وقد وجد الإمام الأكبر فى تحولات السادات عن سلفه فرصة مناسبة ، فراح يشن حملة كبرى ضد اليسار والشيوعية ، وكان ـ كما عرفناه ـ محاضراً فى معسكرات الجماعات الإسلامية .

وفى منتصف السبعينيات اشتبكت مجلة روز اليوسف معه ، فى صدام فكرى ، قاده الكاتب الروائى « عبد الرحمن الشرقاوى » المسئول عنها فى ذلك الوقت [١٤] وسرعان

---

(١٣) عبد الحليم محمود ـ قصة حياتى ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ .

(١٤) فى ٣٠ يوليو ١٩٧٥ نشرت مجلة « آخر ساعة » حديثا للشيخ عبد الحليم محمود ، وقد وجد عبد الرحمن الشرقاوى فيه ما يستحق الرد ، فرد فى ١١ اغسطس ١٩٧٥ ، تحت عنوان « لا ياصاحب الفضيلة » .. مؤكداً أن الرد من حقه لأن الإمام الأكبر ليس معصوماً من الخطأ ، فالعصمة لله وحده .. سبحانه .

فى حواره قال الإمام الأكبر إن حق الله فى اموال البترول الخمس ، وقال الشرقاوى ، إنه كان يتمنى أن يصدر صاحب الفضيلة بيانا يطالب فيه دول البترول الإسلامية بتحمل نصيبها الشرعى فى نفقات الجهاد ، وأن تؤدى إلى الخزانة المصرية هذا الحق .. بدلاً من تكديسها فى بنوك سويسرا ، وإنفاقها على الفواحش فى اوروبا .

وقال الإمام : ان كل وزراء التربية فى جميع الدول الإسلامية تعلموا فى اوروبا وامريكا ، حيث تفصل الدولة بين الدين والتعليم ، ورد الشرقاوى : إن هذه دعوى بغير بينة واتهام بدون حق ، وتعميم يجرح مشاعر الجميع ، وتجريح ليس مما يامرنا به الإسلام .. وإذا كان هناك قصور فى التعليم الإسلامى فالتبعة تقع على الذين يكتبون المواد الدينية ولا يعرفون كيف يخاطبون عقول النشء ولا يدركون روح العصر .

وقال الإمام : « إن المسلم الصادق يكتفى بإسلامه عن اى مذهب آخر » ، ورد الشرقاوى : إن الإسلام دين فيه العقيدة والشريعة جميعا ، أما المذاهب فهى فلسفة واقتصاد وعلم اجتماع .. فمن الذى وضع المذهب فى مواجهة الدين أو بديلا عنه ؟ ولست أدرى من اين جاء صاحب الفضيلة بهذا القول المنسوب لكارل ماركس « إن البديل للعقيدة فى الله تعالى هو المسرح » .. اهى حملة جديدة ستشن على المسرح أيضا ؟ ولكن بعض علماء الدين يكتبون للمسرح والسينما وصاحب الفضيلة من بين هؤلاء العلماء . =

ما انقلب الصدام إلى حملة متبادلة ، تدخل السادات وأمر بإيقافها . إلا أن ذلك على ما يبدو ـ لم يكن كافيا لإرضاء الإمام الأكبر ، وهذا غالبا ما جعله يعتقد أن الدولة مسئولة عن الخواء والفراغ الدينى ، لأنها تترك أصحاب المذاهب والتيارات غير الإسلامية ، ولا تتخلص منهم .. وهذا يعنى أن الدولة مسئولة عن قتل الشيخ الذهبى والتطرف الدينى لأنها لا تزال تتبع فلسفة سياسية لا تعطى للدين الأهمية المطلقة .

وأغلب الظن أن الإمام الأكبر كان يحمس الدولة لتشن من جديد حملة ضد اليسار .. وكان من الصعب أن تستجيب الدولة هذه المرة ، فالضحية رجل دين ، والمتهمون يعرفهم رجال الأمن جيداً ، واليسار لا يمكن أن يدفع الثمن مهما كانت المحاولة .

والذى حدث كان العكس تماماً !

اعتبر السادات أن ما حدث كان بسبب تقصير الأزهر ، ورجال الدين ، والأئمة .

ولم يقبل الشيخ عبد الحليم محمود الاتهام على هذا النحو ، وهاجم الدولة كما هاجمته ، بل وهاجم المؤسسة العسكرية عندما أصبحت القضية فى حوزتها .

وبهذا الهجوم المتبادل ، وغير المتوقع ، وقع أول خلاف من نوعه بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية .. بين الأزهر والجيش !

إن قصة هذا الخلاف تحتاج إلى قليل من الصبر حتى نصل إلى ذروتها الدرامية .

بعد أن قبض على شكرى مصطفى وجماعته أمر السادات بتقديمهم فوراً إلى محكمة عسكرية لمحاكمتهم .. ورفض الاستماع إلى أية وجهة نظر أخرى وأصر على قراره .

وكان .. أن وجدت المؤسسة العسكرية نفسها للمرة الثانية ـ خلال ستة شهور ـ تتدخل بأمر الرئيس (والقائد الأعلى للقوات المسلحة) فى حل أزمة مدنية . (كانت المرة الأولى عندما نزل الجيش إلى الشارع يوم ١٩ يناير ١٩٧٧)

= وقال الإمام : ان الخطر على الإسلام ياتى من الدول الاشتراكية ، ورد الشرقاوى : انه لا خطر على الإسلام من الحكومات الاشتراكية وإنما الخطر الحقيقى على الإسلام ياتى من الذين يهدرون القيم الإسلامية من الذين يسمحون بأن تعانى الامة الإسلامية وطاة الفقر وهم يكنزون وينفقون الملايين على الملذات .. الخطر على الإسلام يكمن فى سوء التفسير وفساد التدليل والتاويل وتحجر الافكار .

وقال الإمام : « وللشيوعيين منهج معين فى الهجوم على الدين » من خلال الصور الكاريكاتورية والمسرحيات والأفلام ورد الشرقاوى : لا اعرف عالما واحداً سخر منه احد . كل الناس يهاجمون من يتاجر بالدين ومن يفسدون ويكذبون باسم الدين .. ومن لم تستطع علوم الدين ان تزكيهم وتطهر قلوبهم وعقولهم .. إن علماء الدين الجديرين بهذا الاسم لا يمكن أن ينال منهم احد .

وقال الإمام : « إن الاصل فى الإسلام هو حرية الفرد فى المال فى إطار المبادىء العامة للإسلام ، وان الشيوعية قد استولت على الثروات والملكيات ولم تسمح للفرد بالحرية فى المال والثراء » ورد الشرقاوى : ليس للفرد فى الإسلام حرية مطلقة فى ماله ، والناس شركاء فى الماء والكلأ والنار ، والاشتراكية لم تستول على الثروات فى جبروت وقهر ولكنها اممت لمصلحة الشعب بعض ادوات الإنتاج . وهى تسمح بالملكية الفردية وبالحرية فى المال والثراء .

وفى الحقيقة لم يكن قرار السادات غريبا ولا مفاجأة ..

فالمؤسسة العسكرية كانت دائما هى المسئولة عن مواجهة الجماعات والتنظيمات السلفية المؤمنة بالعنف كانت ترد على العنف بالعنف .. وعلى القسوة بالقسوة .. حدث ذلك فى محاكمة الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ ، و١٩٦٥ وحدث ذلك مع خالد الإسلامبولى فيما بعد . (١٥)

°

تولى القضية المدعى العام العسكرى اللواء محمد عبد العليم مخلوف ، الذى برر تولى القضاء العسكرى لها ، برغبة الرأى العام فى القصاص العاجل ، وهذا لن يتوافر بسبب فترة العطلة الصيفية للمحاكم العادية التى تنتهى مع نهاية شهر أغسطس ، فى الوقت الذى تستمر فيه المحاكم العسكرية على مدار السنة .. « فضلا عن أن هذه القضية لخطورتها لابد أن تواجه بالحسم والقضاء على الانحراف وهذه هى الأسس التى يقوم عليها القضاء العسكرى » ، كما قال فى ذلك الوقت .

ولم ينس اللواء مخلوف أن يشير إلى أن القضاء العسكرى يطبق نفس القوانين فى قضايا أمن الدولة التى تحال إليه .

ولم ينس أن يشيد بمستوى وكفاءة رجاله الذين يحملون شهادات الماجستير والدكتوراة فى القانون .

وهكذا .. سرق العسكريون كل الأضواء ، وسحبوا كل الأبسطة ، وحصلوا على كل الثقة ، وجمعوا كل الخيوط فى أيديهم ، وأصبح الآخرون فى خلفية المسرح ، أشبه ما يكونون بالكومبارس ، لا مانع أن يقولوا كلمة أو عبارة أحياناً فى فترات يستريح فيها النجوم والأبطال .. كما أنهم وهم ينطقون كلماتهم القليلة ليس من حقهم الخروج على النص .

لم يكتف المدعى العام العسكرى بتوجيه الاتهامات إلى الشبان المتطرفين فقط ، وإنما وجهها أيضاً إلى رجال الدين وعلماء الأزهر الذين تركوا الشباب فريسة للتطرف .

وصف شكرى مصطفى بأنه « مجرد دجال » ... « ادعى أنه يملك القدرة على تفسير القرآن فى حين أنه يجهل أبسط قواعد النحو والصرف » .. « ويفتقد أصول الفقه والتفسير » .. « بل إنه لا يستطيع أن يقرأ سورة واحدة من القرآن قراءة صحيحة » .

---

(١٥) يرى د . فؤاد زكريا ان العنف المتبادل كان هو الوسيلة الوحيدة لحل الخلافات بين النظام والجماعات السلفية ، و « كان هذا بغير شك خطا فادحاً ترتبت عليه سلسلة من الأخطاء التى مازلنا نعانى منها حتى الآن ، ولكن اهم ما فى الأمر ان الخطا كان متبادلاً : ففى مقابل تهمة الاضطهاد والقمع الصارم التى دابت الحركات الدينية على توجيهها إلى فترة ما قبل السبعينيات (وما بعدها) ينبغى الاعتراف بأن هذه الحركات قطعت شوطاً لا يستهان به فى طريق العنف ، والشىء الوحيد الذى حال دون سيرها فى هذا الطريق إلى نهايته هو انها ووجهت بقوة اعتى منها ، وحين تصبح « لغة القوة هى السائدة لا يعود من حق المغلوب ان يشكو من قسوة الغالب » .

وسئل اللواء مخلوف عن مصادر ثقافة شكرى مصطفى ، فاكتفى بالقول . إنها « الكتب المنحرفة » .. ولم يعط أمثلة منها .

وسئل عن سر انجذاب الشبان له ، خاصة الشباب المثقف ، والمتخرج فى الجامعات ، فقال : إن ذلك النوع من الثقافة الجامعية لا يستطيع أن يواجه كارثة « الفراغ الدينى » التى تواجه الشباب الآن !

وأغلب الظن أنه لم يستطع (أو لم يشأ) أن ينظر إلى ماهو أبعد من ذلك ، ولم يرد أن يفتح عليه أبوابا قد تأتى منها رياح هو فى غنى عن مواجهتها .. إنه لم ينظر إلى أبعاد المشكلة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، وفضل أبسط التفسيرات .. تفسير الفراغ الدينى .

حتى عندما وقف يلقى مرافعته (فيما بعد) أمام المحكمة ، سار فى نفس الطريق ، واتهم مؤسسات التعليم بالتقصير فى تدريس الدين من الابتدائى إلى الجامعة .

والحل فى رأيه كان اعتبار الدين مادة أساسية ، مع أنها كذلك من أيام جمال عبد الناصر .

وطالب الرجل الصحافة والإعلام والأدباء ورجال الدين باستكمال الدور الدينى الذى على المدرسة أن تلعبه .

واقترب اللواء مخلوف أكثر من رجال الدين .

وبهذا الاقتراب بدأ الخلاف .

انتقد بوضوح موقف علماء الدين فى استمرار ما سمى بالفراغ الدينى ، وأضاف : « لذلك فإننى أرى أن من واجب رجال الدين الإسلامى سواء فى الأزهر أو وزارة الأوقاف أن يبدأوا فوراً لسد هذا الفراغ الخطير وتوعية الشباب إلى حقائق دينهم وبث التعاليم الحقة السليمة حتى لا يستغل أحد هؤلاء الدعاة المضللين هذا الفراغ » .

كأن رجال الدين وعلماء الأزهر لم يتحركوا .

كأنهم السبب .

هكذا ....

فهمت المؤسسة الدينية نقد المؤسسة العسكرية .. لكنها لم تعترف بالتقصير ، وقال شيخ الأزهر إن الدولة التى لا تطبق الشريعة الإسلامية هى السبب .

إن المؤسسة الدينية كانت فى الغالب تبرر الدور الذى تقوم به المؤسسة العسكرية فى مواجهة الحركات الدينية المتطرفة .. لكنها .. لم تتعرض من قبل إلى نقد من هذا الطراز .

كانت المؤسستان فى جبهة واحدة .. لكن .. هاهى الظروف تدفعهما ليكونا وجها لوجه .. وكالعادة كانت القوة والغلبة للمؤسسة العسكرية (بما فى ذلك الإعلام ووسائل

التأثير في الرأى العام) .. ووجدت المؤسسة الدينية نفسها - لأول مرة - بلا منبر وبلا مكبر صوت .

وكان هذا من طبائع الأمور ، فقد راهن النظام على المؤسسة العسكرية .. المؤسسة الوحيدة التي يثق فيها ثقة مطلقة .؟ عمياء .

وقد وصل الخلاف إلى مداه بعد أن أصدرت المحكمة العسكرية حيثيات الحكم في القضية (ربيع ١٩٧٨) .. فقد كررت في الحيثيات - من باب التوصيات - ما سبق أن قيل في حق رجال الدين وعلماء الأزهر من تقصير ونقد .

وغضب الشيخ عبد الحليم محمود (١٦)

وفي قمة الغضب أصدر بياناً رد فيه على ما قالته المحكمة .

وكان يدور حول الأفكار التالية :

١ - إن المحكمة لم تفرق بين واقعة اغتيال الشيخ الذهبي وأفكار شكرى مصطفى .

٢ - أنها حاولت أن تلقى على الأزهر تجريم أفكار جماعة المسلمين ، مستندة على أقوال المتهمين في التحقيقات دون أن يتاح لعلماء الدين أن يتأكدوا من سلامة أقوالهم ، أو أن يقابلوهم - وجها لوجه - ويستمعوا منهم ويحكموا عليهم وعلى أفكارهم بدقة .

٣ - في بلد تتأرجح فيه حرية الرأى « فتعطى الحرية للملحدين والشيوعيين ليستفيدوا منها ، فإنه ليس من مهمة الأزهر أن يجرم الأفكار خلسة » .

ولم تسمح السلطات بنشر بيان شيخ الأزهر .

ونشر على نطاق واسع في معظم الصحف العربية .

انحاز النظام ضد الشيخ عبد الحليم محمود بعد كل ما قدمه له .

وهكذا ..

كان لابد للمؤسسة العسكرية أن تنتصر .

مهما كان الثمن !

ومهما كانت مكانة الخصم !

---

(١٦) رفضت المحكمة أن تستدعى شيخ الأزهر للشهادة بناء على طلب الدفاع الذى أراد الاستفادة مما يقوله لصالح المتهمين .

| ١٢ |

بين المنصة والقفص !

□ خواطر شكرى مصطفى فى السجن □ أفكاره فى « الخلافة » و « التوسمات » □ الدولة الشكرية تسيطر بعد الحرب الذرية □ السيف سلاح المستقبل □ رفض كتب الأئمة □ غياب المصطلحات السياسية □ السخرية من المثقفين □ المساجد الضرار □ تأجيل صلاة الجمعة □ خطة كشف جاهلية المجتمع □ العدو القريب أولى بالقتال من العدو البعيد □ المرأة تتزوج على زوجها .. كيف ؟ □ الشذوذ يولد الشذوذ □

حاول شكرى مصطفى أن يكتب الشعر ..

فى كراسة بخط يده ، أسماها « الملحمة » سجل بعض الخواطر التى وصفها بأنها قصائد ..

تحت عنوان « من قبل الطوفان » كتب خاطرة ترجع إلى سنة ١٩٦٧ ، قال فيها :

« لقد كان داخلى مدى غالبا ..
« إن هذه الأرض ..
« وهذه الهجرة ..
« هى نجاة لى وكل من هاجر إليها ..
« من دمار وهلاك ..
« سيصيب ما عداها من الأرض ..
« وما عداهم من الناس ..
« ولكن كنت قعيداً ..
« وكانت الهجرة وهما ..
« ومن الآن أصبحت شعاعاً من الأمل » .

وفى قصيدة أخرى من « الملحمة » يقول :

« ياصديقى ..
« أخاطب بها نفسى ..
« وكأنى أعيانى أن يكون لى صديق ..
« من خارج نفسى » .

وفى كراسة أخرى بخط يده أسماها « الهجرة » كتب :

« لنجاتى ..لقد اعتقلت وبدأت فى طريق الهجرة إلى الله ، وأنا أدرى أن الذى يشكو من كل ما حوله ويخالف ما حوله ، ويعتقد أن ما حوله باطل ، فليس أمامه إلا أن يزيل الباطل ويزول هو عنه » .

إن كراستى « الملحمة » و« الهجرة » وجدتا بعد القبض عليه ، لكنهما لا تمثلان الكثير بالنسبة له ، إذا ما قورنتا بكراستين أخريين تركهما بخط يده أيضا .. « الخلافة » .. و « التوسمات » .. إنهما تلخصان أفكاره وخطته ، وأسلوبه فى الوصول إلى ما يريد .

وهذه الوثائق ، غير مطبوعة ، ويتداولها أنصاره بخط اليد حتى لا تدنسها ماكينات الطباعة وهى من اختراع الكفار .[1]

وعلى صدر « التوسمات » وصف شكرى مصطفى نفسه بأنه « أمير المؤمنين طه المصطفى شكرى مصطفى أمير آخر الزمان ووارث الأرض ومن عليها » [2]

لا يعطى شكرى مصطفى ـ على عكس سيد قطب وصالح سرية ـ أفكـاره صفة « العالمية » ، إنما يحصرها فى دولة واحدة هى مصر ، وإن كان سينطلق منها إلى العالم بأسره .

فهو يتساءل عن أم القرى فى عهدنا [3] الحالى ، عهد قيام الدولة الإسلامية مرة أخرى ؟!

« أين هى أم القرى (هذه) .. أين المكان الذى يصدر الكفر إلى العالم العربى » ؟

« أين القرية التى حاربت كل من نادى بالجهاد فى سبيل الله » ؟

ويجيب :

« هى ببداهة الآن مصر » [4]

من مصر (الكافرة) كان شكرى مصطفى سيبدأ دعوته لتمتد دولته إلى العالم كله ـ لكن .. كيف ؟

إن التوتر الحاد بين الكتلتين العظميين سيؤدى بهما إلى حرب نووية يكون فيها الفناء ، ولأن جماعة المسلمين ستكون مختبئة فى الكهوف والجبال ، فإن الأذى لن يصيبها ، بل إنها سترث الأرض ومن عليها ، وتقيم الدولة الإسلامية ، وتعيد استخدام السيف ، لأن كل الأسلحة الحديثة لن يكون لها وجود ، كما عبر بعض الأعضاء فى الجماعة .

أو كما قال شكرى مصطفى نفسه فى التوسمات : [5]

إن الله سبحانه وتعالى سيمهد « لجماعة الحق بقتال بين قوتين عظميين على خلاف فكرى

---

(١) غالى شكرى ـ الثورة المضادة فى مصر ، نقلا عن كتاب المسالة الطائفية فى مصر ـ دار الطليعة ـ بيروت .

(٢) هذا النص وغيره من « التوسمات » ماخوذ عن غالى شكرى ، نقلاً عن مقال لرفعت السعيد : « الحركات الإسلامية من الارتداد إلى مزيد من الارتداد » مجلة « دراسات عربية » .. نوفمبر ١٩٧٧ .. كما سنعتمد فى اقتباسات شكرى مصطفى ايضا على رفعت سيد احمد ـ مقال نموذج شكرى مصطفى مجلة اليقظة العربية يناير ١٩٧٨ .

(٣) أم القرى فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت مكة الوثنية قبل الإسلام .

(٤) غالى عن السعيد ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣ .

(٥) غالى عن السعيد ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣ .

كبير ، وكل منهما تحاول السيطرة والغلبة فى الأرض .. ونقصد بذلك روسيا وأمريكا .. فيضع كل منهما كل معداته وجيوشه وأسلحته فى هذه الحرب ، ويدمر كل منهما الآخر ، ويهلك كل منهما الآخر . كل هذا يصنعه الله تمهيداً لقيام الدولة الإسلامية التى تكونت من الجماعة الإسلامية .. جماعة الحق .. وبعد تدمير القوتين تدميراً كاملاً ، وذلك فى الحرب العالمية الثالثة كما نتوقع أن تتكافأ القوى بين المسلمين وغيرهم تكافؤا نسبياً ، ويبدأ القتال » .

أى أنه لتقوم الدولة الإسلامية على الطريقة الشكرية لابد من توافر ظروف وشروط ليست رهن إرادته ، أو مشيئته :

أن تقوم حرب بين روسيا وأمريكا تقضى على قوتيهما معا .. وأن تصبح هذه القوى أضعف من قوة جماعة الشكريين .. ثم .. والأهم .. أن تبقى الجماعة على قيد الحياة بعد الحرب النووية التى تنتظرها لتفرض دولتها ولتحكم العالم .. فحتى إذا نجت الجماعة من الموت ، فهل تنجو من الإشعاع والتلوث النووى ؟!

ولا تعليق !.

ومثل قطب ، وسرية ، يرى شكرى مصطفى أن المجتمع كافر ، ويعيش فى جاهلية كالتى كان عليها العرب قبل الرسالة المحمدية .. وإذا كان قطب ركز ـ وهو يدلل على الجاهلية ـ على نظام الحكم ، وإذا كان سرية ركز على مظاهر الفساد الخلقى ، فإن شكرى مصطفى ركز على وسائل التعليم .. فنظم التعليم فى « البلاد المسماة بالإسلامية » كما يقول ـ « هى من صنع الكافرين صنعوها لأنفسهم بعيدة عن عبادة الله ، وفى حدود الدنيا » .. ولا صلة لها بالآخرة . (٦)

ومن التعليم يقفز إلى العمل السياسي ، الذى هو ـ فى رأيه ـ خلاصة « جهد الكفار لمحادَّة الله تعالى من الناحية التشريعية أو التنفيذية .. سواء فى جاهليتهم الداخلية أو علاقاتهم الخارجية وأن الالتحاق بهذه الهيئات التشريعية الحاكمة بغير ما أنزل الله تعالى والتعاون معها فى ذلك لا يمكن أن يوصف بأقل من موالاة الكفر بحال من الأحوال شرقية كانت هذه النظم أو غربية .. استعمارية كانت أو وطنية .. إذ ليس فى أصل الكفر عربى وأعجمى » .(٧)

وبهذا ...

يكون شكرى مصطفى أقرب إلى سيد قطب منه إلى صالح سرية .

فهو يقاطع ـ مثل سيد قطب ـ المجتمع مقاطعة تامة .. ويستعلى عليه .. ولا يتعامل معه .. على عكس صالح سرية الذى كان يرى أن هناك نقاطا كثيرة للتماس مع المجتمع .

---

(٦) رفعت سيد احمد ـ ص ١١٩ .

(٧) رفعت سيد احمد ـ ص ١٢٠ .

وإذا كان سيد قطب قد اكتفى بالنواهى العامة ، كأن يأمر الجماعة المسلمة بعدم التعامل مع المجتمع ، فإن شكرى مصطفى دخل فى التفاصيل .. وتفاصيل التفاصيل .. الصلاة وراء إمام من غير الجماعة حرام .. صلاة الجمعة غير واجبة .. الصلاة فى مساجد الدولة حرام .. كذلك الزواج من غيرهم ، وتناول الطعام ، والمصافحة ، وإلقاء السلام ، والحوار ، والخدمة فى الجيش والشرطة .. الخ .

ومثل سيد قطب تماما ، فإن الجماعة المسلمة عند شكرى مصطفى يجب أن تبدأ بأفراد يؤمنون بالعقيدة ، ثم يعيشون مرحلة العزلة ، ولا يواجهون المجتمع الجاهلى إلا إذا اعتدى عليهم ، ويظلون هكذا ، حتى يصلوا إلى مرحلة القوة .. مرحلة التمكن .. عندئذ ينقضون على المجتمع ويقيمون الدولة الإسلامية على أمرين :

١ ـ تدمير الكافرين .

٢ ـ توريث المؤمنين الأرض ومن عليها .

« .. فإذا محق الكافرون وتمحص المؤمنون يظهر دين الله » .[٨]

.. ولكن .. « لا سبيل لإقامة هذه الدولة إلا على هدى نبى الإسلام » .. فلابد « من الهجرة .. لا إسلام ودولة تقام إلا بعد الهجرة » .. ذلك « إن هلاك الكفار وتدمير دولتهم لا يأتى وهناك مؤمنون فى وسطهم والسنة أن يخرج المسلمون من أرض الكفر ولا يبقى إلا الكافرون .. حينذاك ينزل العذاب عليهم » .[٩]

لكن .. من هو المسلم ، المؤمن فى رأيه ؟!

يقول شكرى مصطفى :

« المسلم اليوم هو المسلم الذى حكم له بالإسلام فى زمن الرسول (ﷺ) .. وهو من :

— أعلن كفره بالطاغوت .
— وإيمانه بالله .
— وتسليمه له وحده .
— والشهادة بنبوة محمد ﷺ .
— والدخول فى طاعته .
— وإتيان الفرائض التى افترضها الله عليه .
— والمداومة على ذلك .
— واجتناب النواقص .

---

(٨) غالى عن السعيد ـ ص ٤٢ .

(٩) غالى عن السعيد ـ ص ٤٢ .

وهذه الشروط ـ فى رأيه ـ لا تتوافر إلا فى أعضاء جماعة المسلمين .. وكل ما عداهم كافر ، لا تتوافر فيه هذه الشروط أو بعضها . (١٠)

كل ما عداها جزء من المجتمع الجاهلى الذى لابد من القضاء عليه دفعة واحدة .

لذلك ، فهو ينقد « الداعين للتدرج فى الدعوة الإسلامية وسط مجتمع جاهلى » (١١) ويقول : « إن الذين نادوا بفكرة المرحلية لبلوغ الحكم بما أنزل الله » أعطوا أئمة الكفر شرعية الحكم بغير ما أنزل الله .. وأخطأوا مرتين .. مرة حين ظنوا « أن الجاهلية تقلع حجراً حجراً وأن التسليم لله يكون لبنة لبنة » . ومرة أخرى « حين ظنوا أنه يمكن التصالح مع الفجرة وصنائع اليهود لإعلاء كلمة الله وإئتمانهم على ذلك » .(١٢) .

إن العمل الإسلامى داخل المجتمع الجاهلى مرفوض عنده .

ولا يمكن أن نقبل العمل الإسلامى داخل المجتمع الجاهلى بدعوى « إن الله تعالى أمر بإظهار دينه فى الأرض ثم لم يبين لنا الوسيلة ، أو بينها من غير تفصيل ـ أو بينها فى أول الإسلام لمحمد (عليه الصلاة والسلام) أيام الروم والفرس .. ولم يبينها لأمته أيام الروس والأمريكان » (١٣) .. إن هذا فى اعتقاده ضلالة وجهالة .

أم أنهم ـ كما يضيف ـ عشاق « جيفارا وماو والمتطفلون على أهواء الجاهلية وأساليبها ، ووسائلها » ..

هذا ..

باختصار أهم ما جاء فى مخطوطات شكرى مصطفى التى تركها بخط يده .

وإذا كنا لم نشأ التوسع فى النقل عنها ، والاقتباس منها ، فإن ذلك لأننا فضلنا أن نسمعه هو بنفسه وهو يتحدث عن أفكاره وجماعته .

لقد وقف شكرى مصطفى أمام المحكمة العسكرية العليا وهو يتحرق شوقا لكى يخرج ما فى صدره من كلام .

أحس أنه محروم من أن يقف أمام بطاريات التليفزيون وميكروفونات الإذاعة وأجهزة تسجيل الصحافة وأنه لا يملك حق الرد على ما يقال عنه وعن جماعته فى أجهزة الإعلام المختلفة .. وأدرك أن فرصته الذهبية والوحيدة لإرضاء ذاته هى قاعة المحكمة .

ورغم سرية الجلسات ..ورغم عزل ما يدور فيها عن الرأى العام ، فإن شكرى مصطفى أدرك بسهولة أن كل كلمة يقولها ستدخل التاريخ ، وتوضع تحت مجاهر الباحثين

---

(١٠) المرجع السابق (رفعت سيد احمد) ـ ص ١٢٥ ـ

(١١) المرجع السابق ص ١٢٢

(١٢) المرجع السابق ص ـ ١٢٢ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٢٣ .

والمؤرخين .. فلم يتردد فى أن يفرغ ما فى جعبته .. ويستنزف الفرصة حتى آخر نفس ..(١٤)

حتى أن عضواً فى هيئة الدفاع همس لزميل على يمينه قائلاً :

« إن شكرى مصطفى يسعى ـ على ما يبدو ـ إلى تجنيد من فى القاعة ، وضمهم إلى جماعته » .

وعندما نتعرض لما دار بين شكرى مصطفى وهيئة المحكمة .. أو بين القفص والمنصة ، فإننا سنحاول عرضه بصورة سهلة لا تخل بالمعنى .

كما أننا سنتجنب ـ قدر الإمكان ـ التكرار .

فى ٦ نوفمبر ١٩٧٧ ، بدأ شكرى مصطفى سرد ما يؤمن به من أفكار .. وفى اليوم التالى استكمل الحوار .

المحكمة : وضح لنا يا شكرى أفكارك .

شكرى : أفكارنا نابعة من الفكر الإسلامى الأصيل .. إن هذا الفكر منبعه ومصدره الوحيد هو القرآن .. والقرآن يقول : أنه لا علم لنا إلا ما علمه الله .. وعلم الله فى القرآن ، لا فى الكتب الأخرى .. والقرآن يقول : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة ٢١٦) .. ومعنى هذا أن ما دون القرآن مرفوض .

المحكمة : يعنى أنك لا تقبل باجتهادات أئمة الفقه ؟!

شكرى : العلم فى القرآن والشرع فى القرآن الذى يقبله أغلب المسلمين الآن قبولا شكليا فقط. وهذا سبب البلاء .. إن الإسلام بدأ فى الانهيار عندما توقف المسلمون عن التعامل مباشرة مع القرآن ووضعوا بينهم وبين كتاب الله وسطاء .. أو رجالاً أطلق عليهم اسم الأئمة .

المنصة : ألا ترى ضرورة من وجود الأئمة ؟

شكرى : لا .. إن اجتهادهم لا ضرورة له . وهو اجتهاد خاص بهم ، ولا يلزمنا بشىء والخطأ أننا مشينا وراءهم .. إن القرآن نزل بلغة عربية .. وهو واضح .. لا يحتاج إلى تفسير .. ولو كانت هناك صعوبة فى شرح معانى بعض الكلمات ، فإن وجود معجم جيد يخلصنا من هذه الصعوبة .. ثم .. من الذى يؤكد لنا أن تفسيرات الأئمة هى الحقيقة .. من الذى يقول لنا إن المعنى الذى توصلوا إليه هو المعنى الصحيح ؟! ولماذا لا يحتاج تفسيرهم إلى تفسير آخر ؟ لقد أغلق أولئك الأئمة بأيديهم باب الاجتهاد ، حينما أحطنا مؤلفاتهم بهالات التقديس ، واعتبرناها مصدراً للتعامل بيننا لا يجوز الاقتراب منها أو

---

(١٤) من المثير للدهشة ان يقبل شكرى مصطفى الدخول فى هذا الحوار مع المحكمة ، التى هى فى رايه جزء من المجتمع الكافر ، وقد حدث أن ذهب احد رجال وزارة الداخلية الكبار سنة ١٩٦٩ ، لفتح حوار داخل السجن مع بقايا قيادات الإخوان المسلمين ، فخرج عليه شكرى مصطفى قائلاً : « ارفض الحوار معك لأنك كافر وحكومتك كافرة ورئيسك كافر » ـ انظر مقدمة موضوع رفعت سيد احمد المصدر السابق .



شكرى مصطفى .. فى القفص .

الطعن فيها .. حتى حولناها إلى أصنام كالتى كان يعبدها المشركون فى الجاهلية .. فأصبحنا فى جاهلية . جاهلية فرضت علينا من زمن ، وبعد وضع أولئك الأئمة أنفسهم بين الله والمؤمنين به لقد خرجوا عن الإسلام .. وفرضوا حكم الجاهلية .

وسئل شكرى مصطفى عن كتب الفقه التى قرأها ، فعددها .. وأضاف ..

— لكننى قبلت منها .. ورفضت !

المحكمة : يفهم من إجابتك أن تلك المراجع بها شيء من الحق ؟!

شكرى : نعم ولا ريب .. لأن البشر يخطئون ويصيبون ، والمرجع فى ذلك هو ما اتصل سنده بالله تبارك وتعالى ، فطرة كان أو سنة فى الخلق ، أو كتابا أو رسولا .. إن كل ما أنكرته هو التسليم بقول أحد من الناس من غير دليل متصل بالله تبارك وتعالى .. وقد أنكرت كتابات بعينها للخطأ الذى فيها .. والتى أدخل أصحابها أنفسهم فيما سكت عنه رسول الله « ﷺ » غير أننى أكرر وأقرر أن موضوعى الأصيل هو السعى لإقامة الإسلام وهو ما لا يمكن العثور عليه فى كتابات الأولين .. « ولا يوجد كتاب من كتب الأولين يصلح أن يكون مرشداً إلى هذا الأمر .. ولا كتاب فى ذلك إلا كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ » .

المنصة : لكن الأئمة والعلماء لم يغلقوا باب الاجتهاد .. ومن حق كل مسلم أن يجتهد فى الدين !

شكرى : لا .. لقد أغلقوه تماما .. وخاصة أن الذين سموا بعدهم بالعلماء ، كانوا « علماء للحكام » وهؤلاء استخدموا ما تجمد عنده الأئمة وما قالوه لإصدار الفتاوى التى تناسب السلطة التى يخدمونها . والتى تبرر تصرفاتها .. مهما كانت طبيعة هذه السلطة .. وتصرفاتها .. ووجهة نظرها .. فانتشر الشر .. وعم الفساد .. وجاء الضلال .. وباسم الاسلام حللوا الحرام .. وحرموا الحلال .

وقدم شكرى مصطفى أكثر من مثال على كلامه لا نعرف ملابساتها ، أو مدى صحتها . نذكرها من باب الرصد والتسجيل .

قال :

١ ـ إن الشيخ « محمود شلتوت » أحد شيوخ « الأزهر » فى عهد ، عبد الناصر ، أصدر فتوى تحلل فوائد البنوك ، التى اعتبرها الإسلام ربا .

٢ ـ إن الشيخ « متولى الشعراوى » أشهر داعية إسلامى منذ عهد « السادات » أفتى بعدم تعارض سندات الحكومة مع الشريعة .

٣ ـ إن الشيخ « محمد سعاد جلال » الذى يوصف بالاستنارة ، أفتى بشرب « البيرة » ولم يعتبرها من الكحوليات المحرمة .

ووصف شكرى مصطفى التعليم فى الأزهر بالانحراف .. لأن الأزهر يقرر فلسفة ابن

سينا والفارابى والكندى وغيرهم برمتها بما فيها من انحراف متعمد .. وأضاف : « إن الأزهر يخرج عباداً لغير الله فكيف يكون هؤلاء دعاة إلى الله ؟! » .. وأضاف . ولو كان فى علوم الأزهر بعض الصواب ، فإن هذا لا يهم « لأن العبرة دائما بالمحصلة العامة للأشياء » .

المحكمة : وما رأيك فى التعليم العام بصفة عامة ؟

شكرى : أنا شخصيا لا أهتم أصلا أنا والجماعة بإبداء رأينا فى أسلوب التعلم فى هذه البلاد حيث أننا ليس فى خطتنا مناقشة جزئيات تقوم فى أسس الدولة وسياستها ، وإنما خطتنا أصلا تقوم على الانسحاب من هذه المجتمعات والعودة إليها ، ولا أقصد مصر بالذات ، لتغيير هذه المجتمعات من أسسها بكل ما فيها وقلبها رأسا على عقب ، إذا صح هذا التعبير ، حيث أننا لا نؤمن بسياسة الترقيع ولا نؤمن بتزيين الجاهلية بالإسلام ، وقال تعالى . « فأتى الله بنيانهم من القواعد » ـ سورة النحل ، دلالة على أن الخطة الإسلامية والسنة الربانية تقوم على الهدم من القاعدة .. وبالنسبة للعلم كعلم فهو من الحق الذى خلقه الله ، ومن ذا الذى ينكر السنن التى يقوم عليها علم الحساب أو السنن التى تقوم عليها التفاعلات الكيمائية أو السنن التى تقوم عليها الأفلاك فى مداراتها ، ومن ذا الذى ينكر أننا أمرنا فى ذلك كله ، ولكننا نعود ونكرر على وجوب أن يرتبط ذلك التعلم بغاية واحدة هى عبادة الله وأن تؤسس أسس العملية لتمجيد وتسبيح الله تبارك وتعالى والالتزام بشرعه .

والكلام الذى يقوله شكرى مصطفى جميل .. حلو .. عذب .. لكن الواقع العملى يكذبه .. والدليل على ذلك حالة عضو الجماعة ، الطالب بكلية العلوم قسم كيمياء ، عثمان عبد الرحيم السيد .. إنه فى السنة الأخيرة وهو لهذا السبب فقط يريد إتمام دراسته ليس إلا .. « فإتمام هذه الدراسة يتيح لى أن أحصل على شهادة تدر دخلا يعفينى من أن أمتهن مهنة أو أحترف حرفة تؤذينى فى نفسى وتكون مهينة لى .. وذلك قبل أن تتيسر للجماعة الهجرة » .. وعندما سئل عن رأيه فى علم الكيمياء ، والعلوم المشابهة ، قال : « إن مجتمع المسلمين لا يحتاج إليه لأنه ليس مجتمع زخرف ولا حضارة » !!

المحكمة : هل أمرت أحداً من جماعتك بترك كلية أو مدرسة ؟!

شكرى : نعم ، ولاريب . وباقتناعه !

المحكمة : وما الذى دعاك انت إلى إتمام دراستك فى كلية الزراعة ؟

شكرى : لأنه لم يكن قد بقى لى إلا سنة واحدة لإتمام دراستى .. ليس إلا !

رغم أن شكرى مصطفى حاول تبرير موقفه من التعليم ، إلا أنه فى حقيقة دعواه كان يحض على كراهية التعليم .. وقد حرمه .. لأن الرسول (ص) لم يفتح مدارس ولا كتاتيب .. ولأن الرسول (ص) لم يأمر المسلمين بتعلم الحساب ولا الهندسة

ولا العلوم ، ولا غيرها من العلوم التى نعرفها والتى لا نعرفها ، مثل هندسة الوراثة ، وعلوم الفضاء .. الخ .. بهذا المنطق رفض شكرى مصطفى كل ماهو موجود الآن ولم يكن موجوداً فى عهد الرسول (ﷺ) .. إن ما نعرفه الآن ولم يعرفه عهد الرسول الكريم ـ فى رأى شكرى مصطفى ـ حرام .. وهذا ينطبق على المبانى .. المصانع .. الجامعات .. المعامل .. السيارات .. الطائرات .. الطباعة .. الصحافة .. التليفزيون .. السينما .. الخ .. ويمكن أن نكمل القائمة التى نعتقد أنها تزيد على المليون .

المنصة : على أى أساس تحرم التعليم ؟

شكرى : القرآن يقول « هو الذى بعث فى الأميين ، رسولاً منهم » .. (الجمعة ـ ٢)

لم يكمل شكرى مصطفى الآية : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .. كما أن أمية الرسول (ﷺ) كانت أولى معجزات الدعوة .. كذلك فالرسول (ﷺ) هو القائل : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .. وكانت الصين فى ذلك الوقت أبعد بلاد الأرض ولم يكن الإسلام قد طرق أبوابها بعد .. أى أن العلم مطلوب وفريضة ولو كان فى آخر الدنيا .. ولو كان علما من علوم غير المسلمين .

ورغم غرابة دعوة شكرى مصطفى إلى الأمية واحتقار العلم ، فإن هذه الدعوة كانت مناسبة للانقلاب الاجتماعي ، والاقتصادى الذى وقع فى مصر منذ منتصف السبعينيات .. إن هذا الانقلاب أدى إلى احتقار شأن الثقافة والمثقفين ، الذين كان يسخر منهم رئيس الدولة ، ويصفهم بالأفنديات ، ويصف تصرفاتهم بالرذالات .. وأدى هذا الانقلاب إلى انخفاض القيمة المادية للتعليم والثقافة كما أن المتعلمين والمثقفين لم تعد لهم نفس المكانة الاجتماعية فى صدارة المجتمع .. ووصلت الإهانة الرسمية الموجهة من السلطة إليهم ، إلى حد أن قال وزير الداخلية الأسبق (النبوى إسماعيل) أمام مجلس الشعب عن بعض المثقفين (الصحافيين) : أنه يستطيع أن يحضرهم « بلابيص » .. أى عرايا فى أى وقت .. ولم يجد الوزير من أعضاء السلطة التشريعية من يرفض كلامه .. أو يقول له : قف مكانك !

وكان أن أصبح الأميون الذين يعملون فى حرف لا تحتاج إلى القراءة ولا الكتابة أكثر ثراء من خريجى الجامعة ، وحملة الدكتوراة .. السباك .. المبيض .. الكهربائى .. الميكانيكى .. عامل البناء .. سايس الجراج .. سائق التاكسى .. الخ .. إن ما يتقاضاه بعض أصحاب هذه الحرف فى يوم واحد وصل فى بعض الأحيان إلى ما يتقاضاه خريج جامعة فى شهر كامل .. بل إن كثيراً من المتعلمين من حملة الشهادات ، قد كفروا بثقافتهم وتعليمهم ، وركنوا شهاداتهم ونزلوا ليعملوا فى تلك الحرف التى كان من الممكن ممارستها قبل « التورط » فى السير فى طريق « التعليم » !

وبسبب هذا الانقلاب حلت الخرافة محل العلم وفرضت القوة الشرائية « الغاشمة »

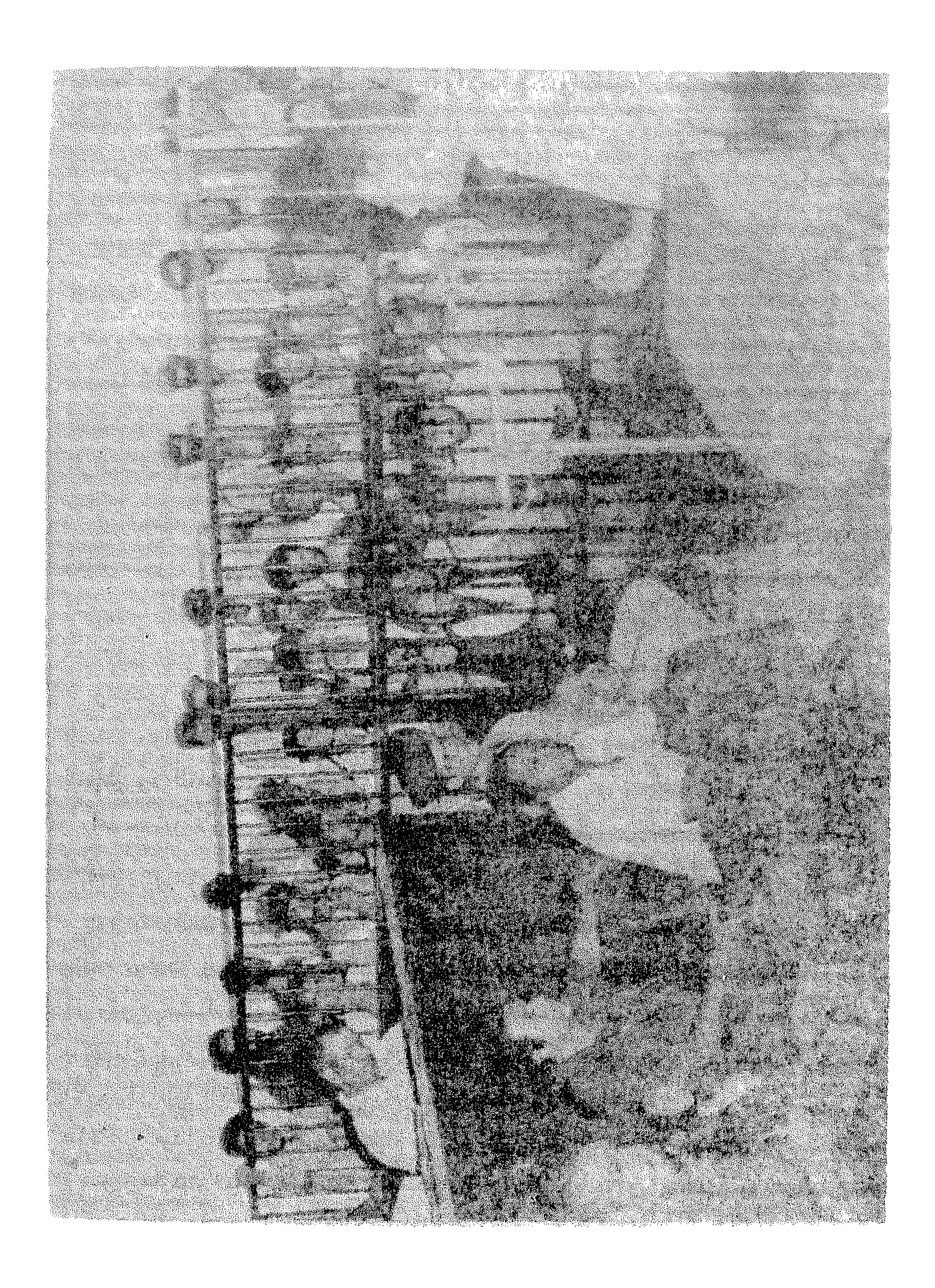
نفسها على كل مظاهر الوعى ، والفن .. والإبداع .. والثقافة .. أصبح « أحمد عدوية » المطرب الأكثر انتشاراً .. وتراجعت « أم كلثوم » للوراء .. وأصبح « عادل إمام » .. « أغلى نجم فى مصر » وانضم « الريحانى » إلى « خبر كان » .. وأصبح « يونس شلبى » .. « اللى ما بيجمعش » أفصح لسان .. وأصبحت السخرية من تعبيرات المثقفين وسلوكياتهم مهمة مقدسة .. كلماتهم عن العدالة .. والقضية .. والديكتاتورية .. والبنية الطبقية .. الخ أصبحت مجالى تهكم .. وتحولت كلمات جديدة وغريبة عن الآذان إلى أمر واقع وأسلوب تفاهم .. كلمات مثل .. « الفهلوة » .. و « إحنا اللى دهنا الهوا دوكو » .. و « إحنا اللى خرمنا التعريفة » وأصبحت مسرحية « مدرسة المشاغبين » .. المسرحية ـ النموذج .. ونافست أفلام « المخدرات » .. انتشار المخدرات نفسها .. وتحولت الراقصات إلى منتجات دعمتها الدولة بالسلفيات والخدمات !

إن احتقار « المتعلمين » و « المثقفين » حسر قيمتهم .. وقيمة التحصيل والدراسة .. وجعل سوق « الأمية » السوق الأكثر ازدهاراً ، والأكثر ازدحاماً ، وآمن عدد كبير جداً من المصريين بعدم جدوى التعليم .. وبجدوى الأمية .. وكل هذا بالتأكيد سهل لشكرى مصطفى مهمة إقناع أعضاء جماعته بأفكاره ومعتقداته .

وأتصور .. مدى غضب أى إنسان بسيط من الدعوة للأمية لو كان المتعلم فى مكانه السليم ، والأمى فى مكانه الطبيعى .. إنه بالقطع سيكون غضبا من النوع الذى لا يقبل النقاش ولا التفاهم ..

لقد حرثنا الأرض ومهدناها لشكرى مصطفى ، ولم يكن من الصعب أن ينثر فيها بذور أفكاره !

وفى تلك الفترة من السبعينيات والتى وجد فيها شكرى مصطفى من يسمعه .. ومن يتبعه .. أدت الظروف الاقتصادية الضاغطة ـ مع جمود التقاليد الاجتماعية الصارمة ـ إلى وقوع الشباب فى أزمات نفسية وأخلاقية وجنسية ، متلاحقة .. لقد جاء ما سمى بالانفتاح « أو الانتفاخ كما يسميه البعض » بطبقة طفيلية جديدة ، تحالفت مع بقايا الأرستقراطية القديمة ، ومع أثرياء البيروقراطية الاشتراكية فى الستينيات ، وراح كل هؤلاء ـ بعيداً عن أية رائحة للحياء وبدعم من بعض السلطات ـ يحولون المجتمع إلى « سوبر ماركت » يمتلىء بالسلع الاستفزازية .. وكدسوا من وراء ذلك الثروات الحرام . فالتهبت الأسعار ، وتضاعفت الاختناقات . ولم يعد أى شاب عادى يستطيع أن يتزوج أو يفكر فى الزواج .. إن الشقة الصغيرة المتواضعة تحتاج ٣٠ ألف جنيه ، عليه أن يدفع أغلب ثمنها قبل الاستلام ، وعليه أن يدبر مثل هذا المبلغ لكى يسدد باقى التزامات الزواج .. وبحسبة بسيطة كان على خريج الجامعة أن ينتظر ٥٠ سنة حتى يدخر هذا المبلغ من دخله .. لو وفره بالكامل .. وفى تلك الظروف أصبح الحلم القومى للشباب الحصول على



تنظيم التكفير والهجرة أثناء المحاكمة .

عقد عمل فى أحد بلاد النفط العربية ..وشهدت مصر نزيفا حاداً لطاقاتها ..وصفقت الدولة لهذا النزيف .. وغذت من حلم الثراء خارج الحدود .. واعتقدت أن تصدير المواطنين هو تصدير لمشاكلهم ، ومتاعبهم .. خاصة الشبان منهم الذين كانت الدولة تعتبر التخلص منهم فرصة للتخلص من معارضتهم لها ..

وسط كل هذا الحصار الخانق فتح شكرى مصطفى ثغرة للشبان الذين امتدت أفكاره إليهم .. حل لهم ببساطة أصعب مشكلة تواجههم .. مشكلة الزواج (حسب دراسة للمركز القومى للبحوث فإن ربع شباب مصر لا يقدرون على الزواج بسبب الإمكانيات المادية .. وترجمة النسبة إلى رقم مطلق توصلنا إلى وجود ما بين ٥ ـ ٦ ملايين شاب)

إن أى شاب من جماعة شكرى مصطفى يمكنه أن يتزوج بسهولة . كل ما يحتاجه الشاب فى هذه الحالة ، الشهود ، فقط .. لا مهر . ولا شبكة .. ولا خلو رجل ، ولا أى نقود .. وقد كان شكرى مصطفى هو الذى يختار العروس والعريس . ويعقد قرانهما .

ويحدد لهما المسكن الذى سيقيمان فيه ..داخل « الجيتو » أو « الكوميون » الذى يسيطر عليه .. وغالبا ما يكون هذا المسكن شقة مفروشة فى ضواحى القاهرة التى كانت مناطق ريفية من قبل « مثل المرج والمطرية وعزبة النخل » .. ولأن عدد المتزوجين أكبر من عدد الشقق فإن أكثر من زوجين يقيمان فى غرفة واحدة ، لا يفصل بينهما سوى « ستارة » من القماش .. قد تحجب الصورة لكنها لا تمنع الصوت ! وقد كان هذا الوضع ـ على ما يبدو ـ السبب وراء تلك الأساطير « المزرية » التى أطلقت عن نساء الجماعة .

لقد كان تنظيم شكرى مصطفى التنظيم الوحيد من نوعه الذى ضم نساء وفتيات (وأحداثا صغارا أيضاً) وعندما راحت الكاميرات تلاحقهن ـ بعد القبض على التنظيم ـ كنا ينكسن رءوسهن ، ويشعرن بكثير من الحرج .

وليس من الصعب أن نستنتج سبب لجوء شكرى مصطفى إلى الشقق المفروشة مع وجود أزمة الإسكان المزمنة .. لكن .. من الصعب أن نعرف من أين كان يأتى بالأموال التى يدفع منها إيجارات تلك الشقق وهى إيجارات تزيد كثيراً عن إيجارات الشقق غير المفروشة !

إن قراءة أوراق التحقيق مع أعضاء الجماعة يفسر لنا بعض التمويل فقط .. فهناك من باع كل ما يملكه وانضم للجماعة ..وهناك من فرض عليه شكرى مصطفى العمل فى إحدى دول النفط العربية .. على أن يكون أجره بالكامل من نصيب الجماعة ، لكن .. كل هذا لم يكن ليكفى دفع الإيجارات .

وهناك من يشير إلى تمويل خارجى .. لكن .. هذا لم يثبت .. وكان الأقرب للبرهان أن بعض الرأسماليين المصريين الجدد الذين يعملون تحت اسم « الاستثمارات الإسلامية » قد ساهموا فى التمويل .

وقد كان أعضاء الجماعة يمارسون أعمالاً بسيطة . ويدوية يأكلون من ورائها .. ومع ازدياد عدد الشبان عن الفتيات ، أفتى شكرى مصطفى بإباحة هجر المرأة المتزوجة لزوجها .. وقد كان ذلك موضع نقاش مثير بينه وبين المحكمة :

المحكمة : كيف يمكن للمرأة التى تنضم للجماعة أن تتحرر من زوجها والعصمة فى يده ؟

شكرى : إن الزواج فى هذه الحالة يكون باطلاً على أساس اختلاف العقيدة .. فالزوج هنا لا يكون مسلما لأنه كافر ، ينتمى للمجتمع الجاهلى !

ولا يمكن أن ننكر أن شكرى مصطفى قادر على الحوار .. وعلى المراوغة .. وقد ظهر ذلك بوضوح أمام المحكمة .. خاصة عندما كان يتكلم عن أفكار جماعته ، وكيف توصل إليها ؟

إنه يبدأ كلامه بتحديد الإسلام .. وهو يرى أن الإسلام الذى ندين له ليس هو الإسلام الذى فرضه الله .. الاسم ليس على مسمى .. والكلمة واحدة .. لكن لها أكثر من معنى ؟

ويستطرد أكثر فى الشرح :

شكرى : إن التسمية للشىء هى الأساس الذى نتعامل عليه .. نقول : جاء فلان .. أو ركبنا العربة .. ولو كانت كلمة العربة التى استخدمها غير معبرة عن العربة المعروفة ، تكون الكلمة ـ حينئذ ـ غير معبرة عن حقيقة قصدى .. ولا يمكن فهمها والتعامل معها ... إن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يستخلف آدم وذريته فى الأرض علمه الأسماء .. وكان هذا هو المؤهل الوحيد لأحقية آدم فى خلافة الله فى الأرض دون سائر المخلوقات . والأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام تتصل بموضوع التكليف الذى كلف به وهو خلافة الله فى الأرض .. يعنى كلمة العبادة .. الإسلام .. الطاعة .. الإيمان ... الكفر .. الظلم .. وكل الأسماء المتصلة بخلافته فى الأرض .. وكانت هذه الأسماء بلا ريب متفقة مع حقيقة المسمى .. مسلم يعنى مسلما حقيقيا فيه صفات المسلم التى علمها الله لآدم .. خير يعنى خيرا .. شر يعنى شرا .. قبح يعنى قبحا .. وبهذا يتضح جليا أن تسمية الأسماء باسمها الشرعى هو مناط الهدى والتدين بالدين الإسلامى الصحيح ، وإذا فسدت هذه الأسماء ووضعت أسماء على غير مسمياتها الحقيقية إختل الميزان والمعيار تماماً .. وبالتالى يمكن تسمية الشر باسم الخير ، والقبح باسم الجمال .. وهكذا .

إن ما يقوله شكرى مصطفى يمكن أن نطلق عليه « ضبط المصطلحات » ولابد من الاعتراف أن مصر عانت ـ ولا تزال ـ من خلل المصطلحات .. خاصة فى السنوات الأخيرة من تاريخها .. فالدستور (الوثيقة التى تنظم العلاقات بين السلطات) أصبح مجرد أوراق مطبوعة فى يد الحاكم يمكن تغييرها كما يشاء .. والمواطن (صاحب النفوذ الحقيقى) أصبح مجرداً من أى نفوذ .. والديمقراطية التى يتحدثون عنها غير الديمقراطية الفعلية .. الديمقراطية التى يتحدثون عنها .. « لها مخالب ولها أنياب » ..

والأحزاب .. وحرية التعبير .. وحقوق الإنسان التى نعرفها ، ليست هى التى يعرفها غيرنا .. وقد عاشت مصر فى الستينيات فى جدل لم يصل إلى شىء وهى تحاول أن تعرف من هو « العامل » ؟ - ومن هو « الفلاح » ؟ .. وفى السبعينيات جاء خلل المصطلحات بخلل آخر فى العلاقات .. والطبقات .. والتقديرات .. ويبدو أن هذا الخلل جعل من رغبة شكرى مصطفى فى عملية ضبط المصطلحات الدينية ، رغبة لها ما يبررها .

□□

فى رأى أغلب الجماعات الإسلامية الراديكالية ، المساجد ثلاثة أنواع : « المساجد الضرار » وهى التى بنيت لأغراض دنيوية بما فى ذلك الأغراض الحكومية .. و « المساجد المجهولة » وهى التى لا يعرف أحد من بناها ، ولا لماذا بنيت ؟ .. و « مساجد التقوى » وهى مساجد الأحياء الفقيرة الأقرب للزوايا ، وقد قاطعت هذه الجماعات الصلاة فى النوع الأول ، وتحمست للنوع الأخير وأطلقت بعض الريبة على النوع الأوسط .

المحكمة : ما رأيك بمسجد أسس على التقوى من أول يوم ، ثم طرأ على استخدامه طارىء قد لا يتفق مع التقوى ؟

شكرى : المهم أن يكون أسس على التقوى من أول يوم .. ولا يهم ما جرى له بعد ذلك .. فقد رأينا رسول الله (ﷺ) يصلى فى جوف الكعبة وفيها ٣٦٠ صنما .. المشكلة هى إثبات أن المسجد أسس على التقوى من أول يوم .. وعموما أبيحت لنا الأرض جميعا لنصلى فيها إلا ما ثبت أنه مسجد ضرار .

المحكمة : وما رأيك بشأن المساجد التى كانت فى أصلها كنائس قبل الفتح الإسلامى (أى أنها لم تؤسس أصلا من أول يوم على التقوى) ؟

شكرى : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .. ولا نحرم منها شيئا إلا ما حرمه الله وهى الحمام والسوق والقبر ومساجد الضرار » .

المحكمة : هل تعفى المساجد الأربعة التى ذكرتها إذا ما دعى فيها للحاكم غير المسلم ؟

شكرى : نعم .

المحكمة : أليس فى مصر مسجد أسس على التقوى ؟

شكرى : التقوى لا تعرف إلا بدليل من الشرع .. وباقى المساجد لا نحاسبها إلا على أساس الظاهر منها ، فإذا ظهر منها اتباع لأمر الله صلينا فيها ولم نسأل على التأسيس إلا أن يكون قد ثبت أنها لما أسست إنما أسست على غير التقوى !

المحكمة : ألا تعرف فى مصر مسجداً واحداً تصح فيه الصلاة شرعاً ؟!

شكرى : هناك مساجد أهلية ليست خاضعة للتوجيهات السياسية ولا داعية من مذاهب الجاهلية فهى ليست مما أحرم الصلاة فيها ما بقيت على ذلك ولا أعتبرها مساجد ضرار ــ غير أنى أرى بيتى وبيوت المسلمين أحسن وأولى بالصلاة فيها .

المحكمة : لكن الشرع يعطى الأفضلية للصلاة فى المساجد !

شكرى : هذا صحيح ولكن على أن يكون هذا المسجد بيت الله حقا .. وأن يكون إمام المسجد الإمام المسلم من الناحية الظاهرة حقا !

ويفسر هذا الرأى سر مقاطعة الجماعات الإسلامية للصلاة فى المساجد . ويفسر إصرار أفرادها على الصلاة فى الميادين العامة والشوارع التى تسد بالمصلين .. وفى العيدين كانت تلك الجماعات تعلق المنشورات التى تدعو للصلاة خارج المساجد . وكان عدد المصلين يصل أحياناً إلى ربع مليون مسلم .. وقد اعتبرت الحكومة قبل اغتيال السادات هذا المشهد صورة من صور التحدى ، واستعراض القوة .

وامتداداً لأفكاره وتصوراته اعتبر صلاة « الجمعة » غير جائزة .. لأن صلاة « الجمعة » لا تقام فى مجتمع جاهلى .. ولأنها تعبير ظاهر ، وعلنى على وجود مجتمع إسلامى ، لا وجود له . وكما أن الرسول « ﷺ » لم يقم صلاة « الجمعة » فى مرحلة « الاستضعاف » .. مرحلة ما قبل « الهجرة » إلى المدينة .. فإنه لا معنى لإقامتها الآن ، قبل أن يتخطى شكرى مصطفى وجماعته مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكن .. ويعودوا لفرض الإسلام على المجتمع الجاهلى .. كما فعل الرسول « ﷺ » بعد فتح مكة .

وقد قال شكرى مصطفى أمام المحكمة :

— بالنسبة لصلاة الجمعة ، يجب أن نناقش أولاً شروطها ، فهى ليست كالصلوات الأخرى .. إن صلاة الجمعة لا تجوز للجماعة المسلمة إلا أن تكون ممكنة ظاهرة ، وهذا شرطها الأول .

المحكمة : وهذا معناه أنكم لا تصلون الجمعة مع غيركم حتى تُمَكَّنُوا ؟

شكرى : نعم هذا هو المعنى .

المحكمة : وهل تصلون الجمعة مع بعضكم البعض وتقيمون فرائضها الشرعية ؟

شكرى : الصلاة مع غيرنا أصلا ليست واردة ، إنما كنت أقصد أن صلاة الجمعة فيما بيننا هى المشترطة بتمكن الجماعة المسلمة لأننا نتكلم عن شرط صلاة الجمعة المطلق أى أنها لا تقام إلا بهذا الشرط وإن كان النبى نفسه هو إمام الجماعة المسلمة .

المحكمة : قلت إن الصلاة مع غيركم غير واردة .. تقصد أنها حرام ؟

شكرى : إننا نعتبر أنفسنا هيئة مستقلة لا صلة لها من الناحية الإسلامية بغيرها مطلقا .. عباداتنا لنا .. لا نهتم فيها بغيرنا .. ولا ندعو غيرنا أن يشاركنا فيها ، إنما ندعوه إلى الإسلام أولاً ثم إلى جماعة المسلمين .. لكن إذا صلى غيرنا بصلاتنا .. لا نمانع .

المحكمة : ألا تصلون مع سائر الناس فى المسجد الحرام ؟

شكرى : لا !

المحكمة : لماذا ؟

شكرى : نصلى فى المسجد الحرام وإمامنا منا !

المحكمة : وضح حجتك الشرعية بشأن عدم جواز إقامة صلاة الجمعة إلا فى حالة التمكن !

شكرى : لما فرضت صلاة الجمعة لم يستطع الرسول « ﷺ » أن يصليها وهو بين المشركين .. إلا أنه أرسل إلى مصعب بن عمير فى المدينة يأمره إذا كان يوم يجمع اليهود لسبتهم فانتظر حتى تزول الشمس ثم تقربوا إلى الله بركعتين وقدموا بخطبة .. إن فريضة الجمعة قد فرضت على النبى « ﷺ » وهو فى مكة ففرضها على غيره من المكنين فى المدينة ولم يفرضها على نفسه وأصحابه من المستضعفين فى مكة .

المحكمة . وترى أن المسلمين كانوا متمكنين فى المدينة قبل هجرة الرسول « ﷺ » وذلك بحسب مفهوم التمكن عندك ؟

شكرى : التمكن درجات .. وهو يبدأ عندى من الخروج عن دائرة القهر والاستضعاف .. ثم يترقى حتى يصل إلى الفتح والتوسع .. ومما لاشك فيه فإنه بمجرد خروج المسلمين إلى المدينة فقد تمكنوا بالمعنى (أو الحد) الأدنى .. حيث لم يكن يرغمهم أحد على شىء ولا يكرههم على شىء .

المحكمة : ألم تصل جماعتك إلى الحد الأدنى من التمكن بحيث يمكنها إقامة صلاة الجمعة فى مصر .. فى أى مكان فيها ؟!

شكرى : كلا مطلقا .. ويكفى للاستدلال على ذلك أنه قد لفقت لنا أكثر من ١٥ قضية فى مدى ٥ سنوات حبسنا فيها مرات .. وفى المرة الأخيرة أطبقت السلطة على كثير من رجال الجماعة فأين التمكن ؟

المحكمة : نقصد التمكن فيما يتصل بالصلاة .. لقد كنتم تتصلون مع بعضكم البعض فى حرية وفى أماكن لا تعلمها السلطات .. ولا ترى المحكمة أن ثمة مانعا يمنعكم من الصلاة جماعة يوم الجمعة من الناحية الواقعية ، فكيف تكونون فى وضع أسوأ من وضع المسلمين الأوائل فى المدينة المنورة قبل هجرة الرسول إليها ؟!

شكرى : التمكن من اللقاءات بحرية لم يكن مكفولا لأفراد الجماعة .. والثابت فى الأوراق أن قيادة الجماعة كان مطلوبا القبض عليها منذ حوالى سنة .. وباعتراف رجال الأمن ، فإنهم كانوا يراقبون الجماعة بدقة ويعرفون أماكن تواجدها وتدريباتها .

المحكمة : وهل كان يصيبكم أى ضرر من جهة سلطات الدولة لو أقمتم شعائر صلاة الجمعة فيما بينكم فى أى مكان ؟

شكرى : هذا غير مؤثر على وجهة نظرنا فى صلاة الجمعة سواء كانت الإجابة بالإيجاب أو النفى ، حيث أننا ربطنا صلاة الجمعة بالاستضعاف العام المتصل بإمكانية العبادة بكل أركانها بما فيها الحكم بما أنزل الله ولكن الواقع أننا لو تجمعنا لصلاة الجمعة على فرض صحة ذلك هنا لزادت مضايقة وتتبع مباحث أمن الدولة لنا وكثرت ادعاءاتها .

المحكمة : ألا تتضمن سورة الجمعة قاعدة عامة مجردة تلزم المؤمنين كافة بأداء فريضة الجمعة حين النداء لها ؟

شكرى : طبعاً هى تدل على فريضة الجمعة ولكن بشروطها ..

المحكمة : حتى ولو كانت إقامة هذه الصلاة لأحد أفراد الجماعة المسلمة فى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى ؟

شكرى : صلاة الجمعة عندنا ليست مرتبطة بالمسجد وإنما مرتبطة بالتمكن !

المحكمة : وما الحكم الشرعى فى نظرك لو تواجدت أنت أو أحد من جماعتك عند المسجد الحرام وقت سماع نداء الجمعة ؟

شكرى : إن نودى بألف صلاة جمعة من مناد غير خاضع لجماعة المسلمين وجماعة المسلمين غير باسطة سلطانها على هذا المسجد فلا فريضة للجمعة علينا .

وتكلم شكرى مصطفى ـ مثله مثل الآخرين ـ عن الزنا .. والخمر .. وتحرير المرأة .. واختلاط الجنسين ، واعتبر العين واليد والأذن من أدوات الجرائم الجنسية .. واكتفى مثله مثل الآخرين بإدانة المجتمعات الإسلامية التى لا تطبق الحدود ، دون أن يشير إلى شروط التطبيق العامة والخاصة الواجب توافرها .. ولم يظهر ـ مثله مثل الآخرين ـ أية درجة من درجات الوعى بالمشاكل الاجتماعية .. أو الصراعات الطبقية .. أو المتاعب السياسية .

وعندما سئل عن الحل .. كانت إجابته تشير إلى ذاته ، باعتباره المخلص .. فقد أغلق باب الاجتهاد ، وفرضت الجاهلية حتى جاء هو .. اختاره الله وهداه وأرشده إلى الصراط المستقيم ليفتح باب الاجتهاد من جديد على مصراعيه ، ويفسر القرآن كما يفهمه ، ويستنبط القوانين كما يرى !

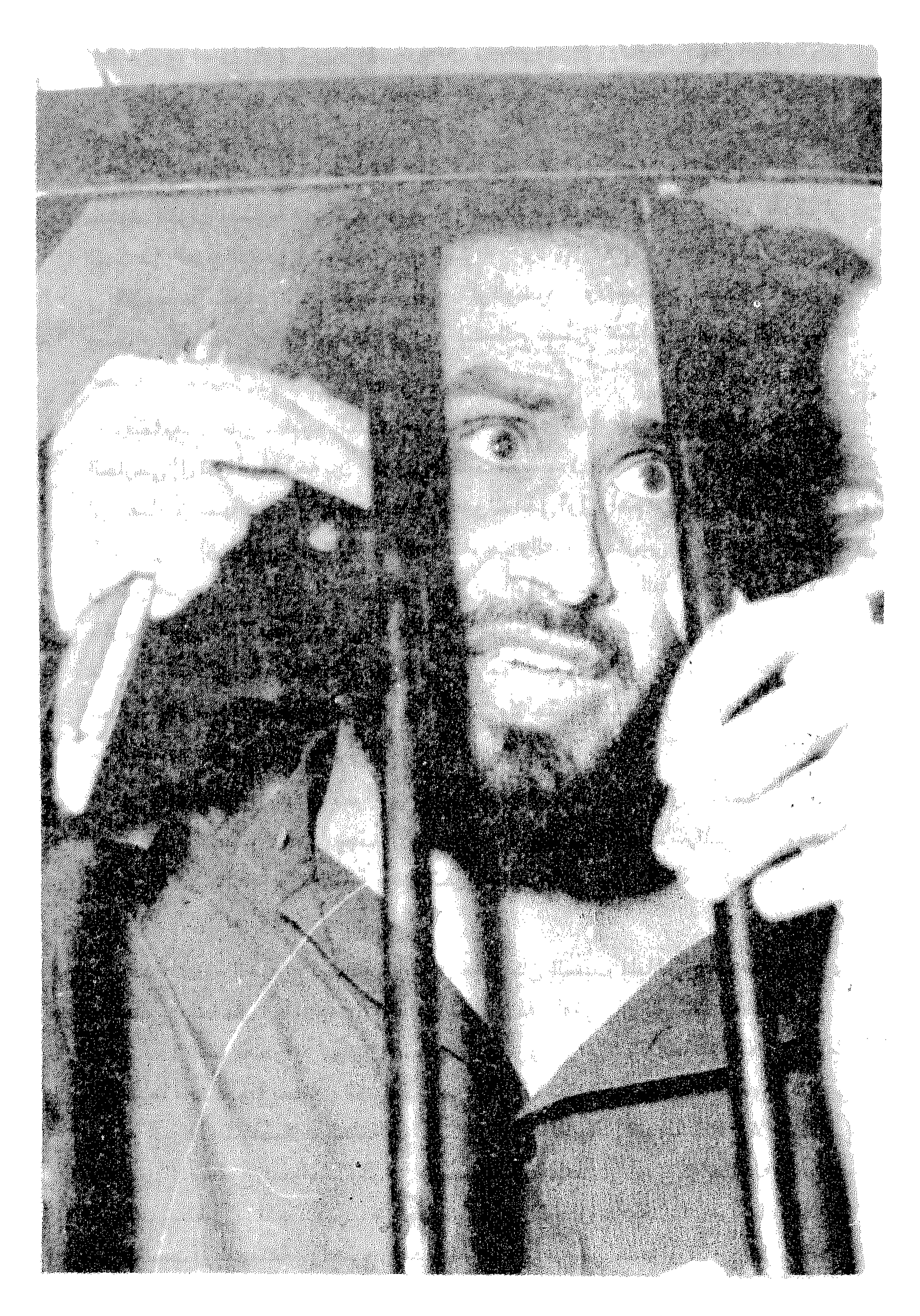
وحسب شرح شكرى مصطفى فإن خطة كشف القناع عن جاهلية المجتمع المصرى ، كانت تسير طبقا للخطوات التالية :

١ ـ الهجوم على المؤسسة الدينية .

٢ ـ الهجوم على المؤسسة العسكرية .

وإذا كان الهجوم على المؤسسة الدينية قد أقيم على استغلال تبرير رجال الدين لتصرفات السلطة السياسية فإن الهجوم على المؤسسة العسكرية كان سيقوم على أساس أنها القوة التى تحمى النظام « الجاهلى » .. «الكافر » ـ كما يؤمنون .

وشكرى مصطفى ـ مثله مثل الآخرين أيضا ـ لا ينظر إلى مشكلة الاحتلال الصهيونى لفلسطين على أنها مشكلة سياسية .. استعمارية .. يمتد فيها التحالف بين الإمبريالية وإسرائيل ضد العرب ، وضد حريتهم ، واستقلالهم ، وإنما ينظر إليها باعتبارها مشكلة دينية ، انتصر فيها « اليهود » ـ أعداء الله وأعداء المسلمين (لا أعداء العرب) ـ لأن



شكري مصطفى قبل سماع حكم الإعدام بدقائق .

المسلمين قد نسوا الله .. لم يطبقوا شريعته .. فنسيهم الله .. وسلط عليهم اليهود !!

المحكمة : ياشكرى .. ماموقف جماعتك من القوات اليهودية إذا ماقامت بالعدوان على مصر ؟

شكرى : إذا قام اليهود . أو أية قوة أخرى غيرهم بالعدوان ، فإن جماعتنا لن تحارب فى صفوف القوات المصرية .. ستلجأ إلى أماكن آمنة تهرب إليها .. إن خطنا بوجه عام هو أن نهرب من العدو الداخلى والخارجى على السواء .. ولا نقاومه !!

كلام مذهل بالقطع .. لا يعترف بالوطن .. أو الوطنية .. ولا يمانع فى احتلال الأرض .. وضياع الاستقلال .. ولا يحمل أى فهم لمصطلح سياسي متداول مثل .. الكرامة . الحرية .. المقاومة !!

وفيما بعد .. طور تنظيم « الجهاد » هذا الموقف الذى تساوى فيه العدو الداخلى والعدو الخارجى إلى تفرقة واضحة بين العدوين ، كانت للأسف فى صالح العدو الخارجى .. ذلك أن زعماء « الجهاد » كانوا يعتبرون قتال العدو الداخلى أولى وأهم ـ الآن ـ من قتال العدو الخارجى .. إن العدو الداخلى هو العدو القريب والعدو الخارجى هو العدو البعيد .. والعدو القريب ، أولى بالقتال .. وكانوا يرون أن الوقوف بجانب الدولة لمواجهة أى خطر خارجى هو نوع من دعم المجتمع الجاهلى الكافر ونوع من تثبيت أركانه ودعائمه .. وهو ما يؤجل قيام الدولة الإسلامية التى يسعون إليها .. إن ميدان « الجهاد » عندهم ليس محاربة إسرائيل ولا تحرير فلسطين أو الجولان ولا حتى القدس ، وإنما اقتلاع « الكفر من المجتمع الجاهلى الذى يعيشون فيه » .

إن سعد زغلول عندهم أسوأ من تيودور هرتزل وعبد الناصر أولى بالمحاربة من بن جوريون . والجيش المصرى يجب أن يواجه قبل « جيش الدفاع الإسرائيلى » .. وتحرير « مصر » من سلطان « الجاهلية » قبل تحرير « فلسطين » من قبضة « الصهيونية » !

.... ولا تعليق !

وهذا العداء الصارخ لطبيعة الدولة فى مصر كان السبب المباشر وراء رفض شكرى مصطفى (كما قال فى المحكمة) التعامل معها .. فقد أفتى بأن الوظيفة العامة حرام .. والخدمة فى الشرطة حرام .. وقبول التجنيد الإجبارى حرام .. وقياسا على رفض التعامل مع كل ما يمت للدولة بصلة . الشراء من المجمعات الاستهلاكية حرام .. المأذون الشرعى حرام .. ركوب المواصلات العامة حرام .. إن الولاء للدولة (الدولة كنظام لا كحكام) مرفوض .. مقطوع .. حرام .. وكل من ينضم للجماعة يجب أن يمزق كل صلة له بالدولة . الموظف يستقيل .. المجند يهرب من خدمته .. والمرأة المتزوجة يعد عقد قرانها باطلا إذا ما انضمت إلى الجماعة ، وأصبح زواجها كأن لم يكن .. ومن حقها أن تتزوج على زوجها !

إن كل ما قاله شكرى مصطفى هو وجماعته .. وكل ما فعلوه ، كان مشوها . لكنه فى

الوقت نفسه كان امتداداً لواقع مشوه .. إن الشذوذ يولد الشذوذ .. والعنف يولد العنف .. والجهل يولد الجهل وحكم أنور السادات كان لابد أن يعارضه شكرى مصطفى .

| ١٣ |

جزاء من نفس العمل !

□ التفسير الدينى للانتصار □ حلم حسين الشافعى □ الذين هبطوا من السماء □ تحطيم زعماء مصر □ التكفير الوطنى والتكفير الدينى □ السادات ينقلب على نفسه □ مشكلة الهوية □ تأثير الانفتاح □ التضخم يسحق الفقراء □ المليونيرات الجدد □ سراب الهجرة □ جنون الاستهلاك □ تدهور قيمة العمل □ الثقافة الغربية □ بين القصور والمقابر □ سيدة مصر الأولى □ العنف والحياة اليومية □

فى خريف ١٩٧٢ ، وقع حادث غريب ، لم ينل اهتمام الصحافة ، وتداول الناس تفاصيله ، وفتشوا عن مغزاه .. ثم .. ذاب ـ كفص الملح ـ فى مياه الحياة اليومية !

قام ضابط كبير من ضباط القوات المسلحة بقيادة وحدة من المركبات « المجنزرة » إلى مسجد الإمام « الحسين » . رضى الله عنه .. فى الطريق التجارى القديم المؤدى إلى وسط القاهرة .. وعند المسجد ، أسرعت قوات وأجهزة الأمن العسكرى بحصاره .. ودون مقاومة استسلم ، وقبض عليه .

وعندما سئل عن السبب ، قال :

« إنه حان الوقت لمحاربة إسرائيل » ![1]

وقيل : إنه من « المهووسين » دينيا !

وقيل : إنه « فقد عقله » !

ومهما كان تفسير ما حدث ، فإنه بدا واضحا أن ذلك الحادث كان إحدى نتائج سياسة دفن الرأس من برودة الهزيمة فى صدر عباءة التدين .. كان الحادث إحدى نتائج الإصرار المتعمد لتفسير الهزيمة تفسيراً أخلاقيا لا علميا . دينيا لا عسكريا .

ولو كان تعليق الهزيمة على « شماعة » عدم التدين ، له ما يبرره بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ ، حيث لم يجد النظام طريقا آخر يحشد الناس فيه ، ويدفعهم إليه غير هذا الطريق ، فإن ما حدث بعد عبور ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، الجرىء ، والمذهل ، والمتقن ، بدا فى حاجة إلى تفسير .

بعد « العبور » انتشرت القصص والروايات التى راحت تؤكد أن الملائكة نزلت من السماء وحاربت معنا ولولاها لكانت الهزيمة من نصيبنا كالعادة ..

والمعنى واضح ..

فنحن هزمنا لأننا ابتعدنا عن طريق الإيمان .

ونحن انتصرنا لأننا عُدنا إليه ..

---

(١) هيكل ـ خريف الغضب .

ولا بأس أن ينصر الله من ينصره .. ولا بأس أن يكون الإيمان قد ضاعف من قوة الرجال .. بل ولا بأس أن تنزل الملائكة وتقاتل معنا .. لكن .. لا يمكن أن يكون هذا قد حدث على حساب باقى عناصر القتال مثل تكنولوجيا السلاح ، والتنسيق البارع بين الأسلحة المختلفة ، والتدريب الشاق ، والخداع الاستراتيجى ، وشجاعة الرجال ، وتضحياتهم .. الخ .

إن الله لا يساعد القاعدين ، والخاملين ، والذين لا يساعدون أنفسهم .

وإذا كان العمل عبادة فى السلم ، فالقتال عبادة فى الحرب .. والله يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه .

لذلك ..

لم يكن لوجه الله أن يفقد المصريون كل تقدير عما فعلوه فى الحرب ، وأن ينسب ما حدث كله للملائكة .. جند السماء الذين حاربوا نيابة عنهم .

منتهى الظلم ـ الذى لا يرضاه الله سبحانه وتعالى ـ أن نقول ذلك .

وقد حدث ذلك قبل أقل من أسبوع واحد على ساعة الصفر .

كان العبور بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وفى يوم الجمعة التالى مباشرة ، قال شيخ الأزهر ، فى خطبة الصلاة التى نقلها التليفزيون : إن أحد كبار رجال الدولة رأى فى المنام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه تجول معه فى الضفة الغربية لقناة السويس ، ثم طلب منه إبلاغ الرئيس السادات بأن جند السماء سيحاربون معه .

وفيما بعد ..

اتضح أن رجل الدولة الكبير ، صاحب المنام ، هو حسين الشافعى ، نائب الرئيس السادات فى وقت من الأوقات ، ثم اختلف معه ، وأجبر على ترك منصب نائب الرئيس .

وفيما بعد ..

لم يتردد حسين الشافعى فى الهجوم على السادات ، وبدأت اتهاماته له بأثر رجعى ، من ليلة الثورة ، حيث أكد أن السادات لم يكن له أى دور فى تلك الليلة .

ولم يمر وقت طويل على ما قاله الإمام الأكبر ، حتى وقعت الثغرة .

وكان أن وجد الذين نسبوا العبور الناجح إلى السماء ، أنفسهم فى ورطة ، فهل تخلت السماء عنا مع أننا لم نفقد إيماننا ؟

ومرة أخرى ، لم يحاولوا وضع أقدامهم على الأرض ، وتخلصوا من هذه الورطة بورطة أكبر ، وقالوا :

ـــ إن المسئول عن الثغرة ضابط مسيحى !

لم يترددوا فى إشعال نيران الفتنة ، مهما كان الثمن .

فكان أن سارع السادات بتعيين ضابط مسيحى كبير ، قائداً للجيش الثانى الميدانى ، هو اللواء فؤاد عزيز غالى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

إن ترجمة هذه الروايات إلى لغة الحرب والسياسة ، تؤكد أن المصريين لا يمكن أن ينتصروا بمفردهم ، وأنهم منذ الهزيمة جثة هامدة لا يمكن أن تدب فيها الحياة إلا بمعجزة من السماء .. وسبحان الذى يحيى العظام وهى رميم .

سبحانه وتعالى هو وحده الذى يوقظ الموتى !

وليست صدفة أن تمتد هذه الحملة من الواقع إلى الماضى .. من الحاضر إلى التاريخ .. تاريخنا البعيد ، الذى لا يزال يذهل ويحير العالم كله .

فى تلك الفترة ظهرت كتابات تحكى عن الذين هبطوا من السماء .. من المريخ وكواكب أخرى ، وبنوا للمصريين الأهرام ، وأقاموا لهم حضارتهم العريقة .. المعابد .. التماثيل .. الحلى . التحنيط .. الخ ..

أى أنه حتى التاريخ الذى لا نملك غيره ، ولا نعتز إلا به ، ليس من صنعنا ، وإنما من صنع كائنات مجهولة هبطت من عوالم أخرى . (٢)

باختصار ..

نحن لا شىء . اليوم ، وأمس ، ومنذ فجر التاريخ .

نحن لا شىء .. من عصر بناء الأهرام إلى عصر العبور العظيم ..

إن هذه الحملة ـ التى لا يشك فى أنها مدبرة ـ سعت إلى تجريد الإنسان المصرى من أية قدرة على الفعل .. وتجريد العقل المصرى من أية قدرة على الابتكار .. وتجريد الكيان المصرى من أية قدرة على تخطى النكسات والهزائم .

كتلة من اليأس .. لا روح فيها ولا نفس .. لا حياة فيها ولا أمل .

إذا هُزمنا فنحن السبب ، وإذا انتصرنا فالفضل لغيرنا .

أى إصرار على أن نظل فى حالة انكسار دائم أكثر من ذلك ؟!

ولابد أن نعترف أن هذه الحملة .. قد نجحت .. ووصل نجاحها إلى حد بعيد .. إلى حد أن صدقها الشعب المصرى .. وآمن بها .. وبدأ يردد أقوالها .. ويتعامل على أساسها .. وبدأت مرحلة جديدة من الاستسلام لم تعرفها مصر ، ولم تشهدها من قبل .. حتى بعد الهزيمة .

فنحن رغم العبور غير قادرين على محاربة إسرائيل .

ونحن رغم حضارة ما قبل التاريخ غير قادرين على اطعام أنفسنا ..

ونحن رغم كل ما نملك من مقومات وأصول غير قادرين على أن نعيش بعيداً عن ظل دولة كبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية .

---

(٢) فيما بعد .. لم يتردد رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين ، فى أول زيارة له للقاهرة ، ان ينسب بناء الأهرام لأجداده اليهود قبل أن يخرجوا مع موسى عليه السلام من مصر .

شيء غريب ، وشاذ ، ومريب فعلاً أن نعرف الصمود بعد الهزيمة والاستسلام بعد الانتصار .. أن نعرف التحدى بعد ٥ يونيو واليأس بعد ٦ اكتوبر ..

لكن .. ذلك كله لم يكن بعيداً عن تخطيط أكبر ، قدر لنا ، وفُرض علينا ، قبل أن نرفع رءوسنا ، ونستثمر تجربة النصر ، ونستكمل مقومات الانطلاق ، ويعود للمارد دوره الشهير .

وقد امتد سرطان تلك الحملة الخبيثة ليشمل كل الزعماء .. وكل الأحداث .. فالثورة .. عورة .. والاشتراكية كانت اشتراكية فقر .. ومحمد نجيب واجهة .. وجمال عبد الناصر سفاح .. وعهد ما قبل جلاء الانجليز أفضل من عصر التحرر الوطنى .. كل الإنجازات شوهت .. كل الزعماء رجموا بالطمى والحجارة .. السد العالى كارثة .. الإصلاح الزراعى فضيحة .. القطاع العام خراب .. التعليم المجانى قلب الموازين .. لا شخص نجا من التشهير .. ولا شيء نجا من طلقات الرصاص .. الكل باطل .. قبض الريح .

كفر المجتمع المصرى بنفسه وبتاريخه ، وبرجاله وإنجازاته .. فكان من السهل بعد ذلك تكفيره .

ثم .. امتد السرطان من العام إلى الخاص ..

لم يعد فى يقين المصريين إمكانية الابتكار والازدهار الفردى دون مبررات غير أخلاقية .. دون مبررات قذرة .. أى أننا لم نعد قادرين على فعل أى شيء دون قوة ما .. وغرض ما .. وانحراف ما .. دون استسلام ما !

ولا يوجد ـ بالقطع ـ أفضل من هذا المناخ لإلقاء الاتهامات جزافا .. وبلا دليل .. ولمجرد إرضاء نزعات الأعماق البشرية المريضة .. فكانت اتهامات العمالة .. والرجعية .. وإطلاق البخور .. والانتهازية .. وبدت « الوطنية » مثل صكوك الغفران تمنح للبعض ، ويحرم منها البعض .. هذا « وطنى » وهذا غير وطنى .. هذا يؤمن بالوطنية المصرية ، وهذا يكفر بها .

ثم انقلب الكفر بالوطنية إلى الكفر بالله .. ومارس النظام هواية تكفير الخصوم .. خاصة اليساريين ، وكان السادات يصفهم بالإلحاد ، ويعلن أنهم لا يؤمنون بالله ، ويؤكد أنه لا أمان لهم لأنه لا دين لهم .

أى أن النظام هو أول من ابتكر أسلوب « التكفير » ..

وأول من مارسه .

ولم يدرك أن « الله حق » إلا عندما وجد من يلعب نفس اللعبة معه ، ويتهمه بالكفر ، والبعد عن الله ، ويبيح دمه ، ويسعى إلى تفجيره بالقنابل والمفرقعات ، وينجح فى اغتيال أكبر رأس فيه فى « عز الظهر » ودون نطق الشهادتين !

إن التكفير الوطنى سرعان ما انقلب إلى تكفير دينى .

والتكفير الذى مارسه النظام سرعان ما فُرض عليه .

الجزاء كان من جنس العمل !

إن هذا المناخ ،كان بالقطع أفضل مناخ لانتعاش التيارات السلفية التى وجد فيها آلاف من الشبان إمكانية الخلاص .. والهداية .. والسير فى أقصر طريق إلى الجنة .

وقد دُعم هذا المناخ بمزيد من الإفرازات والأسباب ، جعلت منه مناخا أكثر ملاءمة للنفور ، والتطرف .. للغضب والتمرد ..

فى مقدمة هذه الأسباب والإفرازات ، كانت شخصية الرئيس السادات نفسه .

لقد بدا الرئيس السادات كالمقامر المحترف ، الذى على استعداد لأن يراهن على أى شىء .. يملكه أو لا يملكه .. وأن يلعب بأية ورقة تحقق له الربح ، ويلقى بأية ورقة تعرضه للخسارة .. أو ـ على الأقل ـ لا تحقق له مواصلة اللعب .. بغض النظر عن أى شىء .

فى ١٥ مايو ١٩٧١ أطاح بمن أسماهم مراكز القوى ، وبمن وصفهم بأنهم « موالون للسوفيت » ، وقبل أقل من أسبوعين ، فى ٢٧ مايو ١٩٧١ ، تطرف فى علاقته بالسوفيت إلى حد لم يصل إليه عبد الناصر نفسه ، ووقع معاهدة للصداقة والتعاون معهم .. وقبل أقل من العام ، فى صيف ١٩٧٢ ، انقلب عليهم ، وطرد خبراءهم من القوات المسلحة . ثم .. راح بعد فترة وجيزة من حرب اكتوبر ، يهاجمهم بضراوة ، ورتب سياسته الداخلية والخارجية على محاربتهم قدر ما يستطيع داخل مصر وخارجها .

بدأ حكمه بالحديث عن الديمقراطية ، وسيادة القانون ، وحكم الدستور ، ودولة المؤسسات .. وانتهى حكمه بترسانة من القوانين الاستثنائية ، والشاذة ، التى وصفت بأنها قوانين سيئة السمعة ، وانتهى حكمه بضرب أحزاب المعارضة ، وبإغلاق صحفها ، وبسجن رجالها ـ مع باقى رموز المجتمع المصرى ـ بعد « هوجة » الاعتقالات الكبرى فى أوائل سبتمبر ١٩٨١ .

فى جلسة تنصيبه رئيسا للجمهورية ، انحنى ، انحناءة كانت محل انتقاد أمام تمثال جمال عبد الناصر فى البرلمان ، وأعلن أنه سيمشى على طريقه ، لكن ، ما إن سكتت مدافع حرب أكتوبر ، حتى راحت مدفعية الإعلام الرسمى ، تدك تاريخ وسمعة وتجربة « الزعيم الراحل » .. وامتدت الدانات والشظايا والشراك الخداعية إلى بيته وقبره وذمته المالية .

تحالف فى سنوات حكمه الأولى مع بعض اليساريين .. لكن .. سرعان ما أعلن الحرب المقدسة ضدهم جميعا .. كل الفصائل وكل التيارات .. وفى هذه الحرب برزت أسلحة التشهير ، والتلفيق ، والتكفير .

راهن على الإخوان المسلمين ، ومد يده إلى قاع التاريخ حيث يرقد السلفيون ، ودعم ـ من كل قلبه ـ الجماعات الإسلامية ، ثم انقلب على هؤلاء جميعا .. وانتهت الأمور بينه وبينهم إلى أقصى درجات العداء ، بالاعتقال .. ثم الاغتيال .

فتح صدره لليمين السياسي والاقتصادى ، وقبل أن يعود حزب « الوفد » وعلى رأسه فؤاد (باشا) سراج الدين ، وترك الحبل على الغارب للرأسمالية الطفيلية ، تكسب بغير حق ، وتنهب بغير حساب ، ولم يمت إلا وزعماء اليمين فى السجون .

أمسك بكل الخيوط .. لعب على كل الحبال .. راهن على كل الجياد .. بدا كمن يدور حول الذات .. وليس صدفة أن يسمى مذكراته « بالبحث عن الذات » .

ولا تتوقف الأمثلة .

لا تتوقف الأمثلة التى تأرجحت فيها تصرفات السادات من النقيض إلى النقيض .. من الضد إلى الضد .. من الديمقراطية إلى الديكتاتورية .. من حرية التعبير إلى تجريم الرأى الآخر .. من جنون العظمة إلى جنون الاضطهاد .

تناقضات هائلة سيطرت على القمة ، وعكست نفسها على المجتمع المصرى ـ الذى يعد الحاكم فيه نموذجاً لا يمكن إنكار تأثيره ـ وأفقدته توازنه ، وجعلته عرضة للتأرجح والاهتزاز المتواصل ، الذى أدى به إلى الدوار . والاغماء .. فنحن فى مجتمع اشتراكى يبيع القطاع العام .. ونحن فى مجتمع ديمقراطى يعتقل كل رموزه فى ساعات .. ونحن فى مجتمع فقير يعيش حاكمه كشاه إيران .. ونحن فى مجتمع نام يركب فيه الناس أفخر السيارات .. أى تناقض يمكن أن يكون أكثر من ذلك .

إن التناقض ـ الذى جاوز الحدود ـ جعل الأجيال الجديدة الشابة لا تثق فى شىء ، وتكفر بكل شىء .. فكل شىء أمامها كاذب .. غير حقيقى .. مشوه .. الاشتـراكية . الديمقراطية .. الليبرالية .. اليسار .. اليمين .. الوسط .. الغرب .. الشرق .. القومية .. العروبة .. والوطنية المصرية .

وكان أن بدأ الإلحاح يتزايد للمطالبة بهوية جديدة .. متجانسة .. ومستقرة ، يأنسون إليها ، ويجدون أنفسهم فيها ، ويجدون ذواتهم أيضا .. ولو إلى حين !

ومشكلة الهوية ـ التى أعادت فرض نفسها بإلحاح ولا تزال ـ ليست مشكلة جديدة .. فهى مشكلة قديمة ، قدم الصدام المزدوج بين قيم اجتماعية متبقية ، ومترسبة ، وموروثة من بقايا الخلافة والنظم الإسلامية ، وقيم اجتماعية جديدة ، ووافدة ، مع مـدافع الاحتلال القادمة ـ بعد الثورات الصناعية والعلمية ـ من الغرب .

حدث هذا الصدام بين بونابرت والمشايخ .

وحدث هذا الصدام بين محمد على باشا الكبير ـ بعد بلورة فكرة الدولة القومية الحديثة ـ والمشايخ أيضاً .

وانتصر المشايخ على بونابرت ، لكنهم هزموا على يد محمد على ، فتخلص منهم ، رغم أنهم هم الذين اختاروه للحكم ورفعوه للسلطة ، وفرشوا ـ بالرمال ـ طريقه إلى القلعة .

وبانتصار محمد على ، راح يتطلع إلى تحديث البنيان الاجتماعى ، فأدخل إلى البنيان

التقليدى ، عناصر ثقافية ، نقلها من الغرب ، وكان أن حدث الصراع بين الوافد والموروث ، بين الطراز الغربى ، والطراز الإسلامى .. ومنذ ذلك الوقت ، وإلى الآن لم يتوقف هذا الصراع .. أحياناً يخفت .. أحياناً يشتد .. أحياناً يميل لطرف .. أحياناً يميل إلى الطرف الآخر ، لكنه لم ينته أبداً .. وليس من السهل أن ينتهى .

ذهب محمد على ، وانهارت دولته ، وبقى هذا الصراع .[٣]

ومع استمرار عمليات النقل من الغرب إلى مصر ، قوى الصراع ، فكان « عدم الإجماع القومى حول شكل النظام السياسي والنموذج الحضارى ، وقيم ورموز وهوية المجتمع » [٤] وضاعف من ذلك ازدواجية التعليم والثقافة ، بكل أشكالها .

ومن يقرأ التاريخ المصرى الحديث ، لابد أن يلحظ أن التيار السلفى كان ينحسر كلما ازدهر التيار العلمانى ، والعكس صحيح .. فعندما عرفت مصر الليبرالية ـ بعد ثورة ١٩١٩! ـ وعرفت معها الدستور ، والبرلمان ، والأحزاب ، والمعارضة ، والجامعة ، بدا الناس أكثر تقبلا لهذا النظام الجديد ، ومع أن السلفية كانت بذرة فى التربة المصرية ، إلا أن المناخ لم يساعدها على النمو والازدهار ، إلا بعد أن عجزت الأحزاب عن طرد الاحتلال (القضية الوطنية) ، وعجزت عن رفع مستوى معيشة الأغلبية الساحقة (المشكلة الاجتماعية) وعجزت عن تقديم أى شيء بعيداً عن الفساد ، والمنافسة على الحكم مهما كان الثمن ، ومهما كانت التحالفات .. حينئذ نمت بذرة السلفية ، وتفرعت ، ووجدت الملايين التى هتفت لسعد زغلول نفسها تمشى وراء حسن البنا .

لكن .. هذه الملايين ، عادت لتلتف حول زعيم مثل جمال عبد الناصر ، قدم مشروعا قومياً ، تفرعت عنه الكثير من الإصلاحات والإنجازات ، لم تستكمل بتوجه ديمقراطى ، ثم سرعان ما أجهز عليه فى يونيو ١٩٦٧ . ومع انهيار المشروع الناصرى عادت السلفية الدينية تطل برأسها ، ثم تمد ذراعها ، فقدمها ، وأخيراً انتصبت واقفة .

وساعدها على ذلك غياب القضية الوطنية .. التى تؤجل الصراع الاجتماعى ، وتزيل حدة التناقض السياسي ، فإسرائيل لم تعد ـ بقرار من السادات ـ عدواً .. وحرب اكتوبر أصبحت ـ بعبارة منه ـ آخر الحروب .

وأكد ذلك أن الإسلام ليس نظاما مغلقا ، كما أنه بناء عقائدى وتشريعى متكامل ، ومتطور ، بدا بديلا عن الأيدلوجيات العلمانية التى وجهت إليها السهام والرماح .

وبغياب القضية الوطنية ، لم تكن المشكلة الاقتصادية هى البديل ، الذى يؤجل الصراع ، ويزيل التناقض ، ويؤلف القلوب ، ويجمع الشعب كله .. بل .. على العكس ..

---

(٣) لمزيد من التفاصيل حول مشكلة الهوية اقرا نبيل عبد الفتاح ـ المصحف والسيف ـ ص ٦٠ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ـ ص ٦١

فقد جاءت سياسة الانفتاح الاقتصادى بمزيد من الأسباب التى جعلت ظاهرة الإحياء الإسلامى أكثر إلحاحا من أى وقت مضى .

فبعد سياسة الانفتاح (أو الانتفاخ) تحسنت أوضاع الطبقات العليا ، وبعض شرائح الطبقة المتوسطة فى المدن ، وخرجت من بطون وأرحام الفساد جماعات طفيلية جديدة ، أثرت من تجارة المخدرات ، والسوق السوداء ، والمضاربات وتجارة العملة ، واستيراد السلع الاستهلاكية الاستفزازية .. الخ .

وحدث تحالف سريع بين فلول أثرياء ما قبل الثورة ، وأثرياء البيروقراطية الاشتراكية ، وأثرياء ما بعد الانفتاح وراح هذا التحالف يثمر شركات وبنوكا ومشروعات خاصة ، حققت أرباحاً فاحشة ، أغرت عدداً كبيرا من المهاجرين فى بلاد النفط الغنية ، بالعودة إلى السوق المصرية ، ليستثمروا أموالهم ، ويضاعفوا من تراكمها .. عن طريق التأكيد على المنهج الإسلامى فى حرية التجارة ، ورفض التسعير ، ومواجهة القطاع العام ، ومقاومة اليسار المتطرف واليمين المعتدل باعتبارها مبادىء هدامة بعيدة عن تراثنا الروحى .

ونجح هؤلاء المهاجرون ، الأثرياء ، الذين أصبحوا يشكلون ماسمى بالإسلام الثروى (من الثروة) فى السيطرة على مجموعة من المؤسسات المالية ، مثل شركات توظيف الأموال ، والمصارف الإسلامية ، واستثمروا نقودهم فى مشروعات لا تمت للفقراء بصلة مثل صناعة الثلاجات ، ومسحوق الغسيل الخاص بالغسالات « الفول أتوماتيك » والسجاد الفاخر ، ومتاجر الذهب ، ومطاعم الأسماك ، وضاربوا فى العملات الأجنبية .. والمثير للدهشة أن تمويل هذه المشروعات ساهم فيه الفقراء وصغار المدخرين بنسبة كبيرة من خلال شركات توظيف الأموال ، التى جمعت مدخراتهم مقابل عائد أكبر من فائدة البنوك .

وقد اكتفت المشروعات التى أقاموها بوضع آيات من القرآن الكريم على الإعلانات عنها فى الصحف والتليفزيون ، كما اشترطت تدين عمالها ، وتحجب عاملاتها ، وإن لم تتردد فى تمويل البرامج الاستعراضية التليفزيونية مثل فوازير رمضان .

كما أنها ـ والحق يقال ـ راحت تطبع وتبيع كتب التراث .

ورغم أن هذا التيار كان قريبا من النظام ، فإنه لم يتردد فى دعم اتجاهات إسلامية أخرى مثل الإخوان المسلمين وقد حدث ذلك فى انتخابات البرلمان عامى ١٩٨٤ ، و١٩٨٧ .

وفى الوقت الذى دفع فيه الانفتاح الأغنياء إلى مزيد من الغنى ، فإن الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة (التى تعيش فى أطراف وضواحى المدن وفى أحيائها الفقيرة) لم يتحسن وضعها الاقتصادى .. على العكس ، انخفض مستوى معيشتها بعد أن ارتفعت الأسعار بجنون ، وراح التضخم (٣٠ ـ ٣٥ ٪ سنويا) يدق عظامها ويسحقها بقسوة تحت أحذيته الثقيلة .. وتركت هذه المستويات الطبقية وجها لوجه أمام تيار جارف من

السلع الاستهلاكية الترفية التى احتلت أرصفة الشوارع والحوانيت (بما فى ذلك المتاجر الشعبية التابعة للقطاع العام) .. وعاش غالبية المصريين تناقضا حاداً كاد أن يصيبهم بالصرع .. فقد كان من السهل أن تجد فى الأسواق الثياب الفاخرة المستوردة من أغلى بيوت الأزياء الفرنسية ، ولا تجد قماش « الكستور » الشعبى الرخيص .. كان من السهل أن تجد أرقى أنواع العطور الفاخرة ولا تجد أنواع الصابون المحلى .. كان من السهل أن تجد « الجاتوه » .. « والبان كيك » و« الباتون ساليه » ولا تجد رغيف الخبز البلدى الأسمر .

وكان من السهل بعد ذلك ـ أن يتساقط الضحايا وكأن الطاعون أصابهم ـ فى مستنقع الانحرافات الأخلاقية !

إن هذا المستنقع الذى راح يتسع ـ لم يعد يضم ضحايا الفقر فقط ، وإنما أصبح يضم ضحايا التطلع أيضاً !

وامتلأت الصحف اليومية بقضايا الرشوة ، وفساد الذمم ، والدعارة ، والشذوذ ، وتجارة الأعراض والرقيق الأبيض .[٥]

وكان لابد للفقراء ، والذين أصبحوا فقراء (٤٠٪ من المصريين هبطوا إلى ما تحت حزام الفقر) من درع يحميهم من العواصف والأعاصير التى راحت تحاصرهم .. وكان هذا الدرع هو التدين .

أو بدقة أكثر .. التطرف فى التدين .

وكان أن اتجه البعض لشراء الآخرة بعد أن ضاع نصيبه من الدنيا .

وكان أن أعلن البعض الآخر تمرده على المجتمع ، فاتهمه بالكفر ، ثم سعى للقضاء عليه .

ولابد أنها ملاحظة صحيحة تلك التى أجمع عليها معظم علماء الاجتماع ، بعد دراسات ميدانية عديدة ، لم تأخذ الدولة بها .

لاحظوا أن المناطق التى تتركز فيها الجماعات الإسلامية هى المناطق الفقيرة جداً ، المكتظة بالسكان ، والخالية من الخدمات .. لا طرق مرصوفة .. ولا شوارع مستقيمة .. ولا كهرباء أحياناً .. ولا مياه أحياناً .. ولا نظام صرف صحى فى الغالب .

مثل المرج وعزبة النخل شرق القاهرة .

ومثل إمبابة وبولاق الدكرور داخل نطاق الجيزة .

إن مثل هذه الأحياء والمناطق يعيش فيها الشباب بالآلاف ، ويعانى من التناقض الحاد

---

(٥) وصل الأمر فى تلك الفترة إلى حد أن أحد الأثرياء العرب تبرع بمبالغ طائلة لأحد الملاجىء بالقاهرة مقابل أن يحصل على عدد من الصغار ، يسافر بهم إلى بلاده .

وقد لاحظت فى تلك الفترة أيضا ، أن الصحف اليومية لم تعد تهتم بنشر جريمة رشوة أو اختلاس يقل الرقم فيها عن ربع مليون .

بين الواقع المر ، وبين مايراه فى الأحياء والمناطق الراقية الأخرى التى يراها بانتظام ، ويتصل بها دائما ، بحكم الدراسة أو العمل ، أو قضاء الحاجات .

ومن الصعب جداً أن تجد رائحة للتطرف فى أحياء القاهرة الثرية مثل الزمالك وجاردن سيتى والمهندسين ، اللهم إلا فى أطرافها ، حيث بعض الامتدادات العشوائية .

كما أن من الصعب جداً أن تجد تلك الرائحة فى أوساط الحرفيين .. وأصحاب الورش الصغيرة ، الذين ارتفعت دخولهم بصورة مذهلة كانت محل نقد من الجميع .

ومع الانفتاح قفز عدد المليونيرات فى مصر ـ خلال سنوات النصف الثانى من السبعينيات ـ إلى مستوى الأرقام الفلكية .. قفز من ٣٠ إلى ٨ آلاف ثم إلى ١٧ ألفا .. ثم إلى رقم قدره البعض بربع مليون مليونير .. وقد تضخم الرقم بتوحش سرطانى ، فى وقت قفز فيه سكان المقابر بأطراف العاصمة إلى أكثر من مليون شخص .. وفى وقت لا يزيد دخل الغالبية فيه على ٣٠ دولاراً فى الشهر .

وجاء الانفتاح بحمى اسمها البنوك والشركات الأجنبية .

اشترطت هذه البنوك والشركات لمن يعمل فيها ويتقاضى أجراً كبيراً أن يجيد إحدى اللغات الأجنبية ، وأن يكون حسن المظهر ، وأن تكون له واسطة .

ووجد أغلب خريجى الجامعات (حتى أصحاب التقديرات المرتفعة) أنفسهم غير قادرين على الفوز بهذه الفرصة .. فرصة الأجر الكبير .. وكان عليهم الانتظار بضع سنوات حتى تعينهم القوى العاملة بأجر لم يعد ـ فى ظل التضخم ـ يكفى لشراء حذاء .

فكان اليأس بعد سنوات التعليم والمعاناة هو ما حصلوا عليه .

أحسوا أن كل أحلامهم وأحلام أسرهم التى طال ترقبها .. قد أجهضت .

وبسبب هذا العجز كان الإحباط .. وبسبب الإحباط كان الإحساس القوى بالاغتراب .. وكان الانفصال عن المجتمع الذى لم تعد لهم مصلحة فيه .

وكان من الطبيعى ـ بعد ذلك ـ أن ينكروه ، ويرفضوه ، ويكفروا به ، ويكَفِّروه .. بل ويسعوا إلى القضاء عليه .

وحاولت أعداد متزايدة من الشبان أن يفتشوا عن مستقبلهم خارج مصر .

أصبح الحلم فى السفر .

والأمل فى عقد العمل .

وكانت الهجرة إلى النفط .. ثم الهجرة إلى الدعوة الإسلامية الجديدة !

إن مصر بعد الحرب الأخيرة مع إسرائيل وارتفاع أسعار البترول ، أصبحت أكبر مورد للعمالة المهاجرة إلى البلدان العربية الغنية .. ووصل المصريون فى بعض هذه البلدان إلى

٦٠٪ من قوة العمل فيها كما أن معدل هجرتهم إليها زاد فى النصف الأول من السبعينيات بنسبة ٤٠٠٪ خلال خمس سنوات فقط .(٦)

وبجانب العوامل الديمغرافية (زيادة السكان) والعوامل الاقتصادية (انخفاض الناتج وزيادة الاستهلاك وقلة الإدخار الفردى ، وانتشار البطالة ، والهجرة من الريف إلى المدن) كانت هناك عوامل سياسية دفعت ملايين المصريين إلى الهجرة .

فقد تصور نظام حكم السادات أن فتح باب الهجرة أمام الشباب سيجنبه معارضته ، وغضبه ، ووقوفه الدائم له بالمرصاد .

تصور أنه يمكن تصدير المشاكل مع تصدير البشر .

ومن ثم أصبحت سياسة الهجرة سياسة ملائمة يتبناها النظام ، ويشجعها ، ويقدم القوانين والتشريعات التى تشجعها فالقرار الجمهورى رقم ٧٣ لسنة ١٩٧١ أعطى للمهاجر الحق فى العودة إلى وظيفته خلال سنة من استقالته .. وفى نفس العام صدرت لائحة حكومية من ١٨ بنداً لإزالة معظم القيود البيروقراطية التى تقف فى وجه المسافرين للعمل فى الخارج . وفى سنة ١٩٧٥ صدق مجلس الشعب على معاهدة حرية انتقال الأيدى العاملة بين الأقطار العربية .. وأخيراً أنشئت وزارة خاصة للمهاجرين .

وقد حققت هذه السياسة بعض النجاح فى البداية ، وساهمت تحويلات العاملين فى الخارج ، فى تخفيض العجز فى ميزان المدفوعات .. لكن سرعان ماتوالت الآثار الجانبية .. وسرعان ما اتضح أن عسل الهجرة هو من النوع المر .

فميزان المدفوعات عاد يعانى من العجز ، ومدخرات العاملين فى الخارج خلقت سوقا سوداء للعملة ، تتعامل فى ٣ مليارات دولار سنويا ، وفقدت البلاد أعلى الكفاءات البشرية وأكثرها تدريبا ، فضلا عن الأيدى العاملة ذات المهارات المتوسطة ، وبقيت العمالة غير المدربة ، التى انتهزت الفرصة ورفعت أسعارها بنسبة وصلت إلى ٨٠٠٪ أحيانا مع انخفاض مستوى أدائها إلى الربع غالبا .. ولم يرتفع مستوى دخل الفرد ، وظل كما هو (٢٠٠ ـ ٢٤٠ دولاراً فى السنة) .

أى أن الأسعار زادت ، ومعدلات التضخم ارتفعت ، وكفاءة الخدمات قلت ، وبقى مستوى المعيشة كما هو .. لم يتزحزح ..

وانتشرت ظاهرة الإفراط فى الاستهلاك .. وظهرت أنماط جديدة من الاستهلاك .. وانفلت زمام التطلع إلى السيارة والتليفزيون الملون ، والكاسيت ، والفيديو كاسيت ، ومعدات الطبخ الكهربائية المسماة « الكيتشن مشين » .

---

(٦) المعلومات والأرقام الخاصة بالهجرة مصدرها : د ، سعد الدين إبراهيم ـ « النظام العربى الجديد » ، و د . محمود عبد الفضيل ـ « النفط والوحدة العربية » ، وأوراق مؤتمر تنظيم هجرة العمالة المصرية إلى الخارج .

وبالأرقام : [٧]

ينفق المدرسون المصريون المعارون فى بلاد النفط ٦٤٪ من دخلهم على السلع الاستهلاكية ، وينفق أساتذة الجامعات ٥٦٪ من دخلهم على هذه السلع هناك .. وفى حالة العمال تزيد النسبة إلى ٨٨٪ تقريبا .. حيث يكون معدل الاستهلاك أكبر كلما كان مستوى المعيشة أقل .

وعندما يعود هؤلاء إلى بلادهم عودة نهائية يواجهون بمشكلة التكيف مع دخولهم الأصلية .. الأقل مما كانوا يتقاضونه فى بلد المهجر .. وهذا ما يدفع بعضهم إلى العودة من جديد .. ويحول أغلبهم إلى بؤرة تمرد ، ورفض لبلدهم الذى لا يستطيع أن يحافظ لهم على مستوى معيشة وصلوا إليه .

أما الذين بقوا داخل الوطن ، ولا يحظون بمستوى الدخل نفسه أو الادخار الناجمين عن العمل فى الخارج ، فيتولد لديهم شعور اللهفة الشديدة إلى أن يحظوا بأنماط استهلاك مماثلة لزملائهم وهى أنماط مغرقة فى الإسراف ، أى أنها تتجاوز الأساسيات والكماليات . [٨]

إن السفر إلى الخارج أصبح « الحلم الشعبى المصرى » .[٩]

ويضيف د . سعد الدين إبراهيم : « إن دور الدولة لم يكن حياديا أو بريئا . فالقيادة على أعلى مستوياتها دأبت على تغذية هذه التوقعات المادية العالية . فالنموذج الذى بشر به الرئيس السادات الشعب المصرى ، ليس مقصوراً على سلوك الرئيس نفسه ، وأنماط الاستهلاك التى يتبعها ولكنه تعدى ذلك إلى ما تردد على لسانه من أنه يريد لكل مواطن امتلاك سيارة و « ڤيلا » وعلى الرغم من أن هناك قلة تعارض تحقيق حلم كهذا من ناحية المبدأ ، إلا أن قدرة تجسيد هذا الحلم المادي ، لا تتوافر فى داخل مصر بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء الشعب المصرى ، ومن ثم تكون الطريقة الوحيدة لترجمة هذا الحلم إلى واقع هى العمل فى بلد نفطى ، والحاصل إذن أن الدولة فى شخص رئيسها إنما تبيع حلما لا سبيل إلى تحقيقه إلا إذا نزحت غالبية المصريين من بلدها فى صورة هجرة عمالية مؤقتة » .[١٠]

وبسبب الهجرة تدهورت قيمة العمل المنتج ، وتدهورت أخلاقيات العمل ، وتدهور الإحساس بقيمة الصناعة المصرية والسلع المحلية ، وسيطرت نعرة التفاخر بما نستورده من الآخرين .

---

(٧) انظر دراسة سوزان مسيحة عن تصدير المدرسين المصريين ـ جامعة القاهرة .

(٨) د . سعد الدين إبراهيم ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٨ .

(٩) بسبب هجرة الفلاحين انقلبت القرية من قرية منتجة إلى قرية مستهلكة ، وبسبب انتشار الفيديو والأفلام الممنوعة فى الريف ، ارتفع معدل الطلاق ، حيث قارن البعض بين زوجته ، ونساء هذه الأفلام .

(١٠) المرجع السابق ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

وقدر د . سعد الدين إبراهيم أن حوالى نصف المصريين المتزوجين النازحين إلى البلاد العربية ، قدر أنهم يتركون زوجاتهم وأطفالهم فى مصر ، وهذا خلق ماسمى « بتأنيث الأسر المصرية » ، حيث أن الزوجة تتولى بنفسها إدارة الأسرة بصورة كاملة ، بما فى ذلك تربية الأطفال فى أخطر سنوات نشأتهم .. وكان لابد أن يظهر جيل كامل ، تربى فى ظل عائلات وحيدة الوالد .. فالوالد الآخر لايعدو كونه زائراً يفد إلى العائلة بين فترة وأخرى .(١١)

ولم يقل أحد : إن بعض الزوجات خنقن بطول هجرة الأزواج ، فرحن يفتشن عما يطرد الملل ، ويفرج الضيق . وكانت تحويلات أزواجهن من الخارج عنصراً من عناصر التشجيع .. فزادت فرص الانحراف ، وزادت معدلات الطلاق .. ودفع الجيل الجديد المزيد من الثمن .

ولاحظ د . سعد الدين إبراهيم أن عدداً كبيراً من النساء العاملات فى بلاد النفط ، سافرن بمفردهن للعمل ، وفى حالات كثيرة كان الزوج يصطحبها دون أن تكون له فرصة عمل ، فإذا لم يجد هذه الفرصة ، فإن الآية تنقلب .. فيكون على الزوجة الحصول على المال ، ويجد الزوج نفسه فى البيت ، يطهو الطعام ، ويغسل الثياب ، ويمسح البلاط ، ويرضع الصغار .. وقد نجمت عن هذه الحالات « نتائج مأساوية للغاية ، فلا يزال من الصعب على الزوج المصرى أن يتقبل القيام بـ (دور عكسى) فى الأسرة » .(١٢)

من ناحية أخرى .. أهم ..

سعى نظام السادات إلى تصدير الشباب إلى خارج مصر ، لأنه عجز عن استيعابهم ، وخشى أن يصبحوا « بمثابة ديناميت اجتماعى » !!

لقد رحب النظام بهجرة الشباب متصوراً أنهم سيركزون على « جمع الثروة » بدلاً من التفكير فى « إشعال الثورة » .. وأن ذلك سيضعف المعارضة الداخلية ، ومن الممكن أن يقضى عليها .. لكن الذى حدث أنهم جمعوا الثروة ، وراحوا يمولون بها الثورة ، كما اعترف بذلك أعضاء جماعة شكرى مصطفى .

أى أن السادات كان كمن يطفىء النيران بخراطيم الزيت والبنزين .

فكانت محصلة الهجرة النهائية مزيدا من المتاعب ، والاضطرابات ، والانقلابات والقلق ، والتوتر ، والتطرف أيضا !

وقد كانت سياسة الانفتاح ، ودفع المصرين للهجرة ، جزءاً من سياسة أكبر لدفع البلاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. فبعد حرب أكتوبر نزل « الأمريكان » بثقلهم ، فكانت اتفاقيتا « فك الاشتباك » الأولى والثانية .. وكان الهجوم على السوفيت ، وكان تغيير أسلحة الجيش من الشرق إلى الغرب ، وكانت زيارة القدس ، ثم معاهدة الصلح ، وكانت

---

(١١) المرجع السابق ـ ص ١٤٥ .

(١٢) المرجع السابق ـ ص ١٤٦ .



السادات وكيسنجر : بداية الانقلاب الأمريكي في مصر .

العبارة الشهيرة للسادات .. إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة الأمريكية .

وعكس ذلك نفسه على أسلوب الحياة .. حيث اندفع الشباب القادر يقلد أبطال الأفلام الأمريكية ، وعرفت المدن الكبرى مشهداً شهيراً فى تلك الأفلام .. مشهد الشاب الذى يقود سيارته بيد واحدة ، ويضع اليد الأخرى على كتف فتاة تجلس إلى جواره ، بينما الموسيقى الصاخبة تندفع من داخل السيارة إلى خارجها .. وكان هذا المشهد كفيلاً بإقناع أعداد متزايدة من الشباب غير القادر بأن ذلك غير ملائم لمجتمعنا الشرقى الإسلامى ، ولابد من التخلص منه .

وقد زاد ـ فى تلك السنوات ـ العنصر الأمريكى « فى الاستهلاك الثقافى » .. زاد استيراد الأفلام والمسلسلات التليفزيونية الأمريكية ، التى تمتلىء بالعنف ، والقسوة ، والخيانة ، والتآمر ، والغدر والدماء ، والبحث عن الثروة مهما كان الثمن ، والاندفاع الغريزى تجاه المتعة مهما كان العائق ومهما كانت طبيعة المحرمات .

ولعل أبرز مثال على ذلك مسلسل « دالاس » الشهير ، الذى لم يترك قيمة واحدة يحترمها الناس إلا ودهسها .. سحقها .. بصق عليها .

وقد وصل التأثر بهذا المسلسل إلى حد أن قلد بعض الشبان بطله ـ النذل ـ المسمى « جى . آر » .. ووضع اسمه على يافطة نيون لمركز تجارى كبير فى ضاحية مصر الجديدة .

وامتد الاستهلاك الثقافى الغربى إلى الرقص والموسيقى والغناء .. وبتشجيع من رئيس الجمهورية وأسرته جاء عدد من مطربى الغرب (أشهرهم فرانك سيناترا ، وخوليو) ليغنوا تحت سفح الهرم وأبى الهول .. وكان ثمن التذكرة الواحدة يزيد على دخل أسرة مصرية فقيرة فى السنة ، حسب إحصائيات صندوق النقد الدولى .

وامتد الاستهلاك الثقافى إلى الشوارع والمحلات .
اختفت حروف اللغة العربية من لافتات المحلات .
والأسماء المصرية أيضا .

محل البقالة أصبح « سوبر ماركت » .. محلات الخردوات والملابس أصبحت « بوتيكات » .. مراكز البيع أصبحت « شوبنج سنتر » .. محلات الحلوى أصبحت « سويت سنتر » .. وسيطرت الأسماء الغربية على كل شىء .. « جراتسيا » .. « ستيك كورنر » .. « ساوند أوف أمريكا » .. « تيك أوى » .. « كنتاكى فريد تشيكن » .. « الفاليرو » .. « لوترين » .. الخ .

وفى المقابل خرجت من أعماق الماضى أسماء مضادة .. الامبراطورة . السلطانة .. السلطانية .. الحرملك .. الطربوش .. المماليك .. وكلها أسماء مطاعم فاخرة .

وبدت الشوارع والمحلات مجالا للصراع الثقافى المسطح ، بين من يأخذون من الغرب البركة والقشور ، وبين من يقاومونهم بأمنيات الرجوع إلى عهد الدراويش ، وحريم هارون الرشيد .

من ناحية أخرى ، كانت مقاومة هذا الغزو الثقافى الغربى ، بثقافة محلية منحطة ، وبفن أكثر انحطاطا .. وكان أبرز نجوم ذلك العهد أحمد عدوية الذى نافست مبيعات تسجيلاته ، مبيعات تسجيلات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، ومحمد عبد الوهاب :

وأصبحت عبارات أغانيه « مثل السح الدح امبو ، وسلامتها أم حسن » على كل لسان .

وعكست هذه الكلمات نفسها على لغة المصريين اليومية ، وسيطرت ألفاظ غريبة على قاموس حياتهم،ألفاظ تعطى قيمة للفهلوة (إحنا اللى دهنا الهوا دوكو وخرمنا التعريفة) والمكسب السريع (مشى حالك) والرشوة (فتح مخك) وقبول أى شىء وبعد أى شىء (كله على كله) ...

وضاعف من انتشار تلك اللغة تجار السينما والمسرح ، فبرز نجوم ماكان من الممكن أن يبتعدوا عن الأدوار المساعدة ، لولا الانفتاح ، فظهر من يلقب بأغلى نجم ، وظهر من لا تفهم ما يقوله ، وظهر نموذج المتشرد الذى يصل بسهولة إلى القمة .

وازدحمت المدن الكبرى بالفنادق الكبرى (طراز خمسة نجوم) .. وبالملاهى الليلية .. والمطاعم الغالية .. ومراقص الديسكو .. وبوتيكات الثياب المستوردة . وتوكيلات السيارات الفارهة (ڤولفو ، مرسيدس ، وشيفروليه) .. ومكاتب استيراد الأطعمة النادرة (الكافيار . السمك المدخن . ولحم الطاووس) .. وراح الدولار يفرض نفوذه على الجميع .. وراح « المستورد » يثير جنون الجميع (حتى ولو كان ثيابا مستعملة ، وأطعمة فاسدة وبضائع لا تناسبنا) ..

وبدا الانقسام والازدواج والتناقض الحاد أمراً واقعاً فى كافة نواحى الحياة .. القصور والمقابر .. السيارات الشاهنشاهية وأتوبيسات النقل العام .. مدارس اللغات ومدارس الحكومة .. الجامعة الأمريكية وجامعة الأزهر .. شارع الشواربى والكساء الشعبى .. مستشفى قصر العينى والمستشفيات الفندقية الخاصة .. الفقراء جداً والأغنياء جداً .. التخمة والجوع .. الاستنزاف والاغتراب . ثم .. الرفاهية الشديدة والتطرف الممزوج بالدم والبارود .

وفى هذا التناقض الحاد ، بدا واضحاً أن السادات ينحاز للأثرياء ، ويسعد بهم ، ويعتز بهم ، ويدفع أصحاب النقود إلى النفوذ .. أما الفقراء فكان يعتبرهم ـ كما يقول المثل العامى ـ لهم رائحة كريهة ، لا تطاق ولا تناسبه !

فكانت حياته اليومية مثالا يحتذى به الملوك والسلاطين والأباطرة !

استراحات فاخرة فى أربعة أنحاء البلاد .. من « مرسى مطروح » إلى « جزيرة الفرسان » .. من أسوان إلى « القناطر الخيرية » ومن « جناكليس » إلى وادى « الراحة » .. بخلاف قصور الملك فاروق فى القاهرة والأسكندرية .

طعام خاص .. مستورد .. يناسب الرشاقة والرجيم .. فودكا .. خبز خالى من النشويات .. وأرز ومكرونة أيضا .. وغذاء ملكات النحل !! (١٣)

طائرات خاصة للسفر إلى الخارج .. طائرات .. « هيلكوبتر » للتنقل فى الداخل .

تقول مراسلة التليفزيون الأمريكية « دورين كايز » :

« إن غرام السادات بالتطلع إلى بلاده فى مكانه بالطائرة أكثر من رؤيتها على الأرض ، لم يكن بسبب دواعى الأمن فقط ، بل لعلنى أجرؤ فأقول إن السبب الأهم هو أن السادات وهو يتنقل بالهيلكوبتر بين القاهرة ومسقط رأسه فى ميت أبو الكوم ، أو استراحته المفضلة فى القناطر ، أو إحدى استراحتيه الفاخرتين فى الاسماعيلية ، أو قصره الصيفى بضاحية المعمورة قرب الأسكندرية ، وعشرات الاستراحات فى مدن مصر وقراها بالدلتا ، أو على طول نهر النيل أو شط القناة ـ أقول كان تفضيله للانتقال بطريق الجو هو أقل الوسائل إيلاما ـ وإن كان أكثرها كلفة ، حتى لا يكلف نفسه مشقة رؤية وسماع وشم الفقر الناشب أظفاره في عنق الملايين من أبناء شعبه على طول الطريق » .(١٤)

« لقد كان السادات يدرك جيداً أنه لن يستطيع أبداً إنجاز وعده للناس بأن الأوضاع الاقتصادية سوف تتحسن وأن الرخاء سوف يعم بين يوم وليلة ، أو بين سنة وأخرى ، وبدلاً من أن يواجه المشكلة الحقيقية آثر الهرب بالقفز فوقها محلقا فى السماء » .(١٥)

« وبحسبة بسيطة .. كان السادات يقضى فى الجو ساعات أكثر من التى يقضيها أى طيار محترف يعمل على أى شركة طيران تجارية » .(١٦)

إن تحليق السادات الدائم فى الجو ، وحياته المرفهة فى الاستراحات ، جعلاه ينفصل تماما عن السواد الأعظم من الشعب .. لذلك .. لم يصدق مظاهرات ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ ، وأصيب على أثرها بصدمة عصبية حادة ، أضافت لطاقم الأطباء الدائم ـ الذى يرافقه ـ طبيبا متخصصا فى الأعصاب ، وأضافت إلى الأدوية التى يتعاطاها ، حقنة خاصة ، يأخذها كل ١٢ ساعة .

ولم يتردد ـ كالعادة ـ أن يعد بماليس فى يده .. إذ بينما كان يتحدث عن الرخاء القادم ، قريبا ، كانت الديون تتراكم على البلاد وتصل قبل اغتياله إلى ٢٥ مليار دولار .. وهو رقم كان على الفقراء وأبنائهم وأحفادهم سداده ، وتحمل تبعاته .(١٧)

---

(١٣) لمزيد من التفاصيل عن حياة السادات الخاصة راجع هيكل ـ خريف الغضب .

(١٤) و (١٥) دورين كايز ـ كتاب « ضفادع وعقارب » ترجمة مصطفى كمال ـ كتاب البيان ـ دبى .

(١٦) و (١٧) دورين كايز ـ المرجع السابق .

وبجانب ذلك كانت حياة الرئيس العائلية ، تخضع للنمط ، والأسلوب الغربى ، وتخاصم البساطة ، وتعطى ظهرها ـ رغم حديثه الدائم عن أخلاق القرية ـ للتقاليد الشرقية .[١٨]

وكانت من حوله حاشية من رجال المال والأعمال ، والأثرياء الجدد ، والأرستقراطية القديمة ..وكانت هذه الحاشية تلفظ أهل الفكر ، والنصح ، والخبرة ، وتتهم كل من يتجرأ ويقول كلمة حق بأنه شيوعى .. غير وطنى ![١٩]

حياة خاصة عاشها السادات كان المثل الأعلى فيها شاه إيران .

حياة خاصة كانت تكذب كل ما يقوله عن الزهد والتواضع والاعتكاف والتقشف .

كان الواقع الملموس الذى يعيشه ، يخالف صورة الحاكم المسلم ، الورع ، التى كانت تروج لها أجهزة دعايته .

تناقض آخر أفسح المجال للتطرف ، وللبحث عن تفسير يملأ المسافة الشاسعة والمتزايدة بين ما يقال وما يحدث ..

وكان التفسير الذى قنعت به معظم الجماعات والتنظيمات الدينية هو أن السادات مسلم بالاسم لا بالفعل .. مثله مثل التتار ، كما ألمح إلى ذلك ، كتاب « الفريضة الغائبة » فيما بعد .. وهذا يعنى خطورة أكبر على الإسلام من الذين أعلنوا كفرهم بوضوح .. فكان الرصاص المنهمر على المنصة ظهر يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

وزاد الطين بلة أن السادات كان يعتبر كل شيء فى مصر من نصيبه .. فكان أن استخدم بإفراط ضمير الملكية .. وراح يردد كلماته مثل « شعبى » .. « جيشى » .. « أبنائى » .. وكان هذا يعنى أن أى نقد يوجه له هو موجه لمصر كلها .. فهو مصر ، ومصر هو .

وتحت شعار « رب العائلة » بدا أنه الوحيد الذى يعرف مصلحة الشعب المصرى .. « ولم يدرك أبدا أن هذا الأسلوب ينطوى على احتقار وازدراء للمواطنين ، وإن كثيرين منهم لابد سيشعرون بالإهانة ، وخاصة من كان منهم على حظ من التعليم أو المعرفة .. فالشعب فى رأيه لم ينضج بعد ليكون فى مستوى الديمقراطية[٢٠] .

أو فى مستوى محاسبته ..

أو مراجعته ..

« لذلك فإن عليه هو باعتباره رب العائلة أن يعنى بأمرهم ، وينقذهم من أنفسهم »[٢١] .

---

(١٨) لمزيد من التفاصيل ننصح بقراءة بكتاب عادل حسين ـ الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية ـ دار المستقبل .

(١٩) وننصح هنا بقراءة كتاب عبد الله إمام ـ سيدة مصر الأولى والأخيرة ـ الناشر : المؤلف .

(٢٠) و (٢١) دورين كايز ـ المرجع السابق .

وعندما يشعر الشعب أن الحاكم يحتقره ، فإن الرد المناسب عليه هو التمرد ، والغضب ، والخروج عن طاعته !

ومنذ اللحظات الأولى لحكم السادات برز دور زوجته .. التى وعدها فى سنوات اللقاء والتعارف الأولى بأن تكون « ملكة مصر » .(٢٢) ولا أحد يستطيع أن ينكر أن هذا الدور راح يتضخم بمرور الأيام ، وأثر ذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة على السادات نفسه .. فقد أثبتت السيدة « جيهان » - كما يقول هيكل - أنها « قوة ضخمة فى حياة زوجها » .(٢٣) وأصبحت بهذه القوة عيون السادات وآذانه .. « وسرعان ماجمعت من حولها بلاطا خاصا بها » .(٢٤) .. « وفى وقت من الأوقات كانت تعتبر نفسها مسئولة مسئولية مباشرة عن ضباط الحراسة فى الرئاسة » .(٢٥)

وقد ارتبطت صورة جيهان السادات بكل مظاهر الثراء ، والراحة ، والرفاهية ، والترف .. على خلاف صورة زوجة الرئيس جمال عبد الناصر « السيدة تحية كاظم » التى عرف عنها التواضع والبساطة والاكتفاء بالظل ، كما أنها كانت فى عرف المصريين نموذجاً للأم وللزوجة التقليدية ، التى لا تستغل نفوذ زوجها ، ولا تميل إلى حب الظهور ، ولا تنجذب إلى الأضواء .(٢٦)

وكثيراً ما استفزت مشاعر الصداقة الحارة بين السادات وزوجته والملوك والرؤساء على شاشة التليفزيون الشعب المصرى ، الذى راح ينفض الاستفزاز بالنكات الساخرة ، وأحاديث المقاهى ، وشائعات الصالونات .. لكن .. من ناحية أخرى بدأت الجماعات الإسلامية تهاجم الصورة التى كانت عليها (سيدة مصر الأولى) وتعتبرها صورة بعيدة عن صورة المرأة المسلمة .. حيث تفرض صورة المرأة المسلمة التواضع فى الثياب ، والتجمل داخل البيت لا خارجه .

ويعتقد بعض علماء الاجتماع(٢٧) أن الصورة الغربية التى كانت عليها جيهان السادات كانت من أسباب عودة الحجاب والنقاب .

ونحن نعتقد أن هذا التفسير لا يخلو من المبالغة ..

فالأسر المسلمة الفقيرة شجعت بناتها على الثياب المحتشمة من باب الحماية .. حماية الفتيات من الانفجارين المادى والأخلاقى .(٢٨)

---

(٢٢) يذكر بعض زملاء الرئيس السادات فى المدرسة انه كان يكتب على غلاف كراساته اسمه مقرونا بلقب « ملك مصر والسودان » .

(٢٣) و (٢٤) و (٢٥) هيكل - خريف الغضب .

(٢٦) كانت الشخصية النسائية البارزة فى عهد جمال عبد الناصر المطربة الشهيرة ام كلثوم .

(٢٧) قال د . سعد الدين إبراهيم فى برنامج تليفزيونى بريطانى بعنوان « يوم خيم الصمت على القاهرة » إن شخصية مسز سادات أدت إلى عودة الحجاب والنقاب .

(٢٨) لم يتردد السادات فى السخرية من ثياب الفتيات المسلمات اللاتى يرتدين النقاب ، ووصفها بانها مثل « الخيمة » .

لقد ازدادت الرياح المادية والأخلاقية الباردة فكان لابد من التغطية بالثياب الطويلة .. وعندما تحولت الرياح إلى عواصف تسهل رفع أطراف الثياب القصيرة ، كان لابد من النقاب والحجاب .

وضاعف من ذلك كله ، فشل نظام السادات فى خلق هدف عام ، أو أيدلوجية متجانسة ، أو حلم قومى يلتف الشباب حوله ..

بل .. إن المثير للعجب .. أن نجده يدعو إلى هوية مصرية ـ فرعونية ، خاصة فى الوقت الذى دفع فيه الشباب إلى تحقيق أحلامه فى البلاد العربية .. ففى الوقت الذى كان يرفع فيه شعار « مصر فوق الجميع » كان يسهل إجراءات الهجرة للملايين .. وفى الوقت الذى كانت تتردد فيه نغمة « ماذا أخذنا من العرب » ، كان يعمل فى البلاد العربية حوالى ٢ مليون مصرى ، يحولون سنويا حوالى ٤ مليارات دولار .

وقد تأكد ـ فيما بعد ـ أن هذا الانسلاخ المدبر عن القومية العربية ، كان متعمداً .. سعى إليه ليسهل له الانفراد بقرار خطير مثل زيارة القدس ، وبقرار أخطر مثل الصلح مع إسرائيل ، دون أن يطالب بالربط بين المصالح الوطنية لمصر والاعتبارات القومية لباقى العرب .

وكان من الطبيعى أن يرفض الشباب هذا الانسلاخ ، على الأقل من باب الحفاظ على مصالحه العملية فى البلاد العربية .

إلا أن ذلك لم يمنع الجماعات الإسلامية من رفض فكرة القومية العربية ، وراحت تتحدث فقط عن العالم الإسلامى ، والأمة الإسلامية .

وبسبب التلاعب فى الهوية العربية ، فقدت مصر زعامتها للمنطقة .. تلك الزعامة التى أشعرت المصريين بالزهو فى عهد جمال عبد الناصر ، ولم يفقد هذا الإحساس الكثير من بريقه حتى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وكان سندا لهم فى محنتهم القاسية .

وإذا كان السادات قد نجح فى تشويه (لا نقول تحطيم) الهوية التى « حاول » أن يقدمها جمال عبد الناصر (من خلال حملات التشهير وإعادة القوى القديمة والانحياز ضد الفقراء) فإنه لم يستطع أن يبلور هوية جديدة لنظامه .. لم يستطع حتى أن يقدم مجموعة من المفاهيم الشاملة ذات الأهداف المحددة .. ولم تكن فلسفته سوى مجموعة من التصرفات والتحالفات المتغيرة حسب الظروف ، وحسب الحاجة ، وحسب موازين القوى والصراع ..

لذلك ..

كان رهانه الأكبر والأخطر على الولايات المتحدة الأمريكية .. القوة الكبرى ، والدائمة ، والوحيدة فى اعتقاده ..

وحتى يكسب الرهان وضع كل شىء على مائدة واشنطن .



وضع كل البيض فى سلتها .

ولم يكن مستعداً لأن ينظر حوله مباشرة ، ويستفيد من الدرس الذى تلقاه ـ صديقه العزيز ـ شاه إيران المخلوع .

انجذب السادات ـ كالفراشة ـ ناحية حزم الضوء المبهرة الصادرة من بطاريات التليفزيون الأمريكية ، وسعى بكل ما يملك ليقدم للأمريكيين أكثر مما يطلبون ، وبثمن أقل مما يعرضون ، وأحياناً كان يقدم بضاعته بدون مقابل .. مجاناً .

تنوع مصادر السلاح .. تعميق التعاون الاستراتيجى .. المناورات المشتركة .. المعونات والقروض والاتفاقيات المقيدة .. مظاهر الحياة المتنوعة على الطريقة الأمريكية .. من زجاجة البيبسى كولا إلى فنادق شيراتون .. من لبان تشكليتس إلى مطاعم الهامبرجر .. من السجائر إلى البلوجينز ..

ولفرض هذا الطراز من الحياة فى مجتمع لا يزال فى حاجة إلى السلع المدعومة ، كان لابد من استخدام كل إمكانات الإبهار ، وتليين الأعصاب .. فبدأ عصر الإعلانات المبهرة فى التليفزيون والشوارع والمجلات الملونة وعلى سيارات النقل العام .. وضاعفت الأحلام الاستفزازية التى تروج لها هذه الإعلانات من ضغط الغيظ والبخار فى الصدور .

وفى مواجهة مظاهر هذه الهوية المشوهة فقد كل شىء معناه .. الديمقراطية اقتربت من الديكتاتورية .. والقطاع العام اختلط بالقطاع الخاص .. والاعتبارات الخاصة تحكمت فى المواقف العامة .. وسيادة القانون أصبحت سيادة تابعة لرئاسة الجمهورية تذهب بمن تحمله إلى أى طريق يشاء .

لا الاشتراكية كانت اشتراكية .

ولا الليبرالية كانت ليبرالية .

فكان من السهل الطعن فى هذه الأيدلوجيات .. وكان من السهل إسقاطها .. وكان من الضرورى البحث عن بديل لم يختبر منذ سنوات طويلة .. وكان أن وجدت الهوية الإسلامية نفسها طافية على السطح .. محمولة على الأعناق .. مترددة على كل لسان .

وفى مواجهة « الحرمان النسبى » المتزايد بدأ السخط .. ثم .. كان أن انقلب السخط إلى عنف .

والحرمان النسبى « هو إدراك الفرد للفجوة بين مستوى توقعاته وحقيقة الإمكانات المتاحة له » .(٢٩)

والسخط تزداد حدته إذا « زادت الفجوة بين التطلعات أو التوقعات والإمكانات المتاحة » .. والسخط تزداد حدته إذا انهارت الظروف المعيشية فى المجتمع ، مع صعوبة

---

(٢٩) و (٣٠) السيد ياسين ـ حوادث العنف الجماهيرى ـ جريدة الأهرام ـ ١٩٨٦/٥/٢٣ .

حصول الناس على فرص لتعديل أوضاعهم الاقتصادية وكلما زادت حدة السخط كان احتمال العنف قائماً .[٣٠]

وقد عبر السخط الذى عاشه المصريون (ولا يزالون) عن نفسه فى ظهور أنواع جديدة ، من جرائم العنف الفردية الشاذة علينا .. زوجة تذبح زوجها وتفرم جسده لتتزوج صديقه وصديقها .. ابن يقتل أباه وأمه .. أم تلقى بأطفالها فى النيل .. رجل يصاب بسعار الدم فيتحول إلى سفاح ، يقتل لمجرد القتل .. فتاة تحرق نفسها بعد أن اعتدى والدها عليها وعلى أختها .. معيد فى الجامعة يقتل قريبته وطفلها الرضيع بعد أن رفضت التجاوب معه ... الخ .

والعنف ـ عموماً ـ أصبح جزءاً من سلوك المواطن اليومى .. يفرض عليه . ويلجأ إليه كلما تعامل مع غيره .. وهو يقف فى طابور الجمعية الاستهلاكية بحثاً عن قطعة صابون أو دجاجة مجمدة .. وهو يقوم بسباق الجرى اليومى وراء أتوبيس مزدحم يرفض سائقه التوقف فى المحطات .. وهو يفتش لنفسه عن مقعد فى سيارة أجرة .. وهو يقاتل من أجل دستة أرغفة سمراء رخيصة لأسرته .

حياة ضاغطة ، صعبة ، لا مفر من التعامل معها بعنف .

عنف فردى فى مواجهة عنف اقتصادى .

قسوة فردية ، إجبارية ، فى مواجهة قسوة الفقر ، والتضخم ، وانهيار المنازل ، والسوق السوداء ، وفساد الذمم ، وعجز القانون ، وعسف الإدارة الحكومية .

ثم ..

كان من الطبيعى أن ينظم العنف الفردى (أو الاستعداد للعنف الفردى) ويأخذ صورة جماعية .

بعد أقل من عامين على الانفتاح الاقتصادى فى يونيو ١٩٧٦ ، هاجمت عصابة « مسلحة » بالرشاشات جمعية تعاونية فى شبرا الخيمة .

فى نفس الوقت ، اقتحمت عصابة أخرى ، مسلحة مستشفى « الحسين » الجامعى ، واعتدت على المرضى والأطباء واستولت على نقود وطعام المرضى ، وساعات وسماعات الأطباء .

فى نفس الوقت ، تشاجرت سيدة مع سائق أتوبيس (خط الإمام الشافعى) لأنه رفض التوقف لها ، فذهبا إلى قسم الشرطة ، وبعد أقل من ساعتين أضرب سائقو النقل العام فى منطقة البساتين تضامنا مع زميلهم وكانت فرصة ليعلنوا أن لهم مطالب ، وأن الإضراب لن ينفض إلا بعد الاستجابة لها .

فى نفس الوقت اشتركت حملة مكونة من ١٠٠ ضابط و ١٥٠٠ جندى من الأمن المركزى فى مطاردة عصابة فى قنا ، كانت تحمل وتقاتل وتسرق بأسلحة أتوماتيكية سريعة الطلقات

(١٢٣٧ قطعة سلاح) من بينها مدفع للطائرات تقدر قيمتها بمليون جنيه ، واستمرت عملية القبض على العصابة ١٣ يوما .

فى نفس الوقت ، كانت هناك عصابة على كوبرى « المرازيق » بالجيزة ترتدى « الجلاليب السوداء » وتسلب ضحاياها ما يحملون من نقود وساعات وذهب بعد تهديدهم بأسلحة نارية .[٣١]

وفى تلك الأيام ...

برزت ظاهرة العنف الرسمى أيضا .

برزت من خلال تقوية جهاز الأمن المركزى ، الذى راح يتضخم يوما بعد آخر حتى وصل عدد أفراده إلى حوالى ربع مليون جندى ، ودعم بأحدث معدات مقاومة المظاهرات ، وبالمدرعات ، وطائرات الهيلكوبتر ، وفرق الصاعقة ، وراح هذا الجيش الداخلى الموجه للشعب ، يحاصر القرى ، ويقتحم البيوت ، ويعتدى على الرجال ، ويجرد النساء من ثيابهن ، ويضرب الصغار .

وتبادل الناس والحكومة العنف .

عنف شعبى مقابل عنف حكومى .

ثم ....

كان من الطبيعى أن ينظم العنف الجماعى ليستخدم كوسيلة من وسائل الصراع الأيدلوجى .. سواء بين الدولة وجماعات سياسية ترفضها ، أو بين جماعات سياسية متنافسة .

وكان أن برزت على السطح الجماعات الدينية الراديكالية ، المؤمنة بالعنف .. ووجدت أجيال عديدة من الشباب نفسها فيها .. وجدت نفسها فى عمل يفرغ طاقاتها ، ويشعرها بدورها وذاتها ، ويجعلها تحارب مجتمعا لا مصلحة لها فيه .. مجتمع خرجت منه ثم خرجت عليه .. مجتمع يخرج لسانه لها كل دقيقة ، ويحفزها للغيظ والاستنفار دائما ، ويفرض عليها أن تصبح مثل حبات « الفشار » على سطح ملتهب .

إن البديل الوحيد أمام هذه الأجيال كان الغيبوبة المخدرة فى سحب الدخان الأزرق .. أو شمة من سم أبيض ..

وهذا ترف لا تقدر عليه !

وكان أن تعاملت الدولة مع هذه الجماعات كما تتعامل مع العصابات والخارجين عن القانون .. تصورت أن حل الصراع الأيدلوجى بينهما فى المواجهة الأمنية فقط .. لم تفكر فى الحوار .. ولا فى بحث أسباب وجذور الخلاف .. ولم تحدد مسئوليتها .. ولم تلجأ إلى توسيع دائرة ممارسة الحقوق الديمقراطية .

---

(٣١) انظر تحقيقنا الصحفى عن العنف السافر ـ مجلة روز اليوسف ١٢ /٧/ ١٩٧٦ .

اكتفت بأن تعالج العنف بالعنف ..

والقسوة بالقسوة ..

فراحت دوائر النار تتعدد .. وتتسع وتمتد إلى مزيد من الضحايا .

لم تعترف الدولة بأنها مسئولة أكثر من غيرها .

إنها لم تقدم إلى أولئك الشبان أفكاراً جديدة تبهرهم ، أو معانى جديدة تضىء طريقهم ، ولم تأخذ بأيديهم لعبور الطرق القاتلة .

فكان الملاذ الوحيد لهم .. العنف .

ولا يمكن أن ننسى أن العنف والتفسخ والابتذال من ظواهر ما بعد الحروب .

إن الذين يعودون من الحرب يشعرون أن القتل ليس بالصعوبة التى كانوا يتصورونها من قبل .

وعادة العنف المنظم ، الشرعى التى تمارس فى ميادين القتال لا تنتهى بنهايته ، ولا تسكت بسكوت المدافع ودفن جثث القتلى .. أبداً .. إن العائدين من ميادين القتال لا يتخلصون بسهولة من إحساسهم بأن العنف عمل طبيعى .. وأن الضغط على الزناد أقصر طرق الحوار ، وأسرع سبل التفاهم ، وأبسط أسلوب لتغيير الواقع .. وخاصة أن واقع ما بعد الحروب ينفجر دائما بما يستوجب الخلاص منه .. فساد خلقى .. فساد اقتصادى .. أغنياء حرب .. وظواهر أخرى تثير الفزع والدهشة ، يحسمها الرصاص أحيانا .

ولا يمكن أن ننسى أن الحروب تؤدى إلى تسرب أطنان هائلة من الأسلحة والذخائر إلى الحياة المدنية دون عقاب .. حيث أن فقد السلاح ، وتبديد الطلقات من طبائع الأمور فى الحروب .. وغالبا ما تظهر هذه الأسلحة والذخائر بعد الحروب ، فى أوقات لا يتوقعها أحد !

إن كل هذه الأسباب والاحتمالات التى نرصدها ونحن نغوص فى أعماق أعماق ظاهرة التطرف الدينى لا يمكن أن تجعلنا نغض البصر عن وجود أسباب واحتمالات أخرى ، لم نتعرض إليها ..لعل من أهمها استثمار البعض (أفرادا وجهات) لكل هذه الأمور (مناخ يقبل العنف وشباب يتفجر حيوية وبراءة) لصالحه ، تحقيقا لأهداف قد يصعب علينا تحديدها دائماً .(٣٢)

يضاف إلى ذلك :

أن هناك من سعى إلى استغلال الدين استغلالاً اقتصادياً وتجارياً .

---

(٣٢) لا يستبعد البعض استغلال أمريكا لظاهرة التدين فى صراعها الأيدلوجى ضد السوفيت ، ولا يستبعدون أن يعمل الذين يتورطون فى الظاهرة لحساب الشيوعية ، أو لحساب منظمات إرهابية دولية .. انظر فتحى غانم ـ مقال : الطلبة لا يحكمون ـ روز اليوسف ابريل ١٩٨٦ .



انور السادات : الصورة الأخيرة قبل النهاية المتوقعة .

وأخذ هذا الاستغلال صورة بسيطة أحياناً صورة بناء مسجد في الدور الأرضي من العمارات الفاخرة مقابل عدم دفع الضرائب (حسب القانون) .

وليست صدفة أن تأتي هذه الحمى (وغيرها) في وقت استغل فيه نظام السادات الدين في تحقيق أغراضه وأغراض الرأسمالية العالمية ، في مكافحة الشيوعية .

لذلك .. فلا يمكن فصل هذه الظاهرة عن حركة الصراع الدولي .

إن الدين في نظام السادات لم يكن ابتغاء مرضاة الله .. وإنما كان لتخدير الناس وإبعادهم عن التحول السياسي ، والفساد الاقتصادي ، ولتحطيم ما بقي من العقل ، ولفرض نفوذ الخرافة من جديد .

وعلى حد قول هيكل : (٣٣)

بدا وكأن النظام الذي يعادي الشيوعية يريد أن يجعل من التدين تطبيقا عمليا لقولة « ماركس » المشهورة عن أن الدين « أفيون الشعوب » .

لكن ...

« المشكلة أن النظام لم يعد يعرف مع من يتعامل ..

« ولم يكن قد استوعب درس التاريخ أو تعلم منه شيئا .. فإن تيار التدين كان خليقا أن ينمو إلى درجة لا تسمح لأحد بالسيطرة عليه ولا باستغلاله لصالحه » !

وقد كان ..

ففي منتصف نهار الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، قتل السادات برصاص تنظيم كان هو السبب في قيامه .

كان الجزاء من نفس العمل .

وكان ..

أن راحت الدوائر تدور .. وتدور .. وتدور ..

ولا تزال !

---

(٣٣) خريف الغضب .

مراجع الكتاب
ولمزيد من الاطلاع

كتب باللغة العربية :

١ ـ أنور السادات : « البحث عن الذات » الناشر المكتب المصرى الحديث .. بدون تاريخ .

٢ ـ غالى شكرى مع آخرين تقديم خالد محيى الدين ـ المسألة الطائفية فى مصر ـ دار الطليعة ـ بيروت .

٣ ـ سيد قطب : معالم فى الطريق ـ دار الشروق ـ ١٩٨٠ .

٤ ـ عادل حمودة : سيد قطب من القرية إلى المشنقة ـ دار سينا ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ .

٥ ـ محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ الطبعة السابعة ـ بيروت .

٦ ـ عمر التلمسانى : ذكريات لا مذكرات ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ .

٧ ـ نبيل عبد الفتاح : المصحف والسيف ـ صراع الدين والدولة ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة .

٨ ـ د . عبد العظيم رمضان : عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤ ـ روز اليوسف ـ القاهرة .

٩ ـ الشيخ عبد الحميد كشك : قصة حياة ـ المختار الإسلامى ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

١٠ ـ الشيخ أحمد المحلاوى : قصتى مع السادات ـ المختار الإسلامى ـ ١٩٨٥ .

١١ ـ الشيخ عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه قصة حياتى ـ دار المعارف ـ ١٩٨٥ .

١٢ ـ د . سعد الدين إبراهيم : النظام الاجتماعى العربى الجديد ـ دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ـ دار المستقبل العربى ـ القاهرة .

١٣ ـ عمى ايلون مع آخرين : النظام الحاكم والمعارضة فى مصر ـ فى عهد السادات ـ مترجم عن العبرية ترجمة هيئة الاستعلامات ـ القاهرة ـ محدود التداول .

١٤ ـ عادل حمودة : قنابل ومصاحف ـ قصة تنظيم الجهاد ـ دار سينا ـ القاهرة .
١٥ ـ د . محمود عبد الفضيل : النفط والوحدة العربية ـ دار المستقبل العربى ـ القاهرة .
١٦ ـ دورين كايز : ضفادع وعقارب ـ ترجمة مصطفى كمال ـ كتاب البيان ـ دبى .
١٧ ـ حسين عبد الرازق : مصر فى ١٨ ، ١٩ يناير ـ دار شهدى ـ ١٩٨٥ القاهرة .

□□ مقالات وموضوعات باللغة العربية :

١٨ ـ د . عبد العظيم رمضان : الإخوان المسلمون والتنظيم الجديد ـ روز اليوسف ـ ١٣ سبتمبر ١٩٧٦ .
١٩ ـ عمر التلمسانى : خطاب مفتوح لرئيس الجمهورية ـ جريدة الشعب ـ ١٨ مارس ١٩٨٦ .
٢٠ ـ رفعت سيد أحمد : الرؤى الفكرية لقادة التنظيمات الإسلامية فى السبعينيات ـ نموذج صالح سرية ـ مجلة اليقظة العربية ـ ديسمبر ١٩٨٦ .
ـ نموذج شكرى مصطفى ـ مجلة اليقظة العربية ـ يناير ١٩٨٧ .
٢١ ـ عادل حمودة وشفيق أحمد على ، وجمال عنايت : تقرير عن الانتخابات الطلابية ـ روز اليوسف ٢٢ أغسطس ١٩٧٥ .
٢٢ ـ عادل حمودة : ماذا تقول مجلات الحائط ؟ ـ روز اليوسف ـ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ .
: ـ محافظ أسيوط يرد على كل الاتهامات ـ روز اليوسف ـ ٢٦ اكتوبر ١٩٨١ .
٢٣ ـ جمال حمدى وشفيق أحمد على : ملف التكفير والهجرة ـ روز اليوسف ـ ١١ يوليو ١٩٧٧ .

□□ دراسات ووثائق باللغة العربية :

٢٤ ـ د . عمر شاهين : بعض مؤشرات للتغيرات النفسية والاجتماعية فى المجتمع المصرى بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ . بحث مقدم للندوة الدولية عن حرب اكتوبر ـ ١٩٧٥ .
٢٥ ـ بيان ٣٠ مارس : طبعة اللجنة العربية لتخليد جمال عبد الناصر .
٢٦ ـ د . صالح سرية : رسالة الإيمان ـ وثيقة غير مطبوعة .
٢٧ ـ بحوث ودراسات مؤتمر هجرة العمالة المصرية إلى الخارج .
٢٨ ـ د . سعد الدين إبراهيم : ورقة عن جماعات العنف الإسلامية .

٢٩ ـ د . طاهر مرسى عطية · تنظيم اتحادات الطلاب فى الجامعات المصرية ـ دراسة تحليلية بالتطبيق على جامعة قناة السويس ـ المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة ـ تجارة عين شمس ١٩٨٤ .

٣٠ ـ محاضر جلسات محاكمة شكرى مصطفى ـ ملف القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧ أمن دولة عليا .

□□ دوريات باللغة العربية :

٣١ ـ جريدة « الأهرام » من ١٦ إلى ٣٠ أبريل ١٩٧٤ ، ومن ٥ إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٧ ، ومن ٢٠ إلى ٢٧ فبراير ، ومن أول أبريل إلى نهايته سنة ١٩٦٨ ، ومن ١٢ إلى ١٦ ديسمبر ١٩٦٨ ، ومن ٢٠ إلى ٢٨ نوفمبر ، ومن ٣ إلى ٥ ديسمبر سنة ١٩٦٨ .

٣٢ ـ مجلدات مجلة « الدعوة » ـ الإصدار الثانى ـ من يوليو ١٩٧٦ إلى أغسطس ١٩٨١ .

٣٣ ـ مجلة آخر ساعة : ٣٠ يوليو ١٩٧٥ .

٣٤ ـ مجلة روز اليوسف : ١١ أغسطس ١٩٧٥ .

□□ كتب ودراسات باللغة الانجليزية :

٣٥ ـ جيلس كيبل ـ النبى والفرعون ـ قصة التطرف الإسلامى فى مصر ـ دار الساقى ـ لندن ـ ١٩٨٥ .

٣٦ ـ د . سعد الدين إبراهيم : جماعات العنف الإسلامى فى مصر ـ انترناشيونال جورنال أوف ميدل إيست ستدى ـ ١٢ ـ ١٩٨٠ .

٣٧ ـ رافاييل إيسرائيل : دور الإسلام فى الإطاحة بالسادات ـ جيروزليم جورنال ، أوف انترناشيونال ريليشن ـ الجزء الرابع ، العدد الرابع ـ ١٩٨١ .

□□ مراجع لمزيد من الاطلاع والتحقق :

٣٨ ـ القضية رقم ١٢/ ١٩٦٥ أمن دولة عليا ، والقضية رقم ٤٨٤/ ٦٥ حصر ـ المتهم فيها سيد قطب وغيره .

٣٩ ـ د . محمد عمر : يهود الدونمة ـ مؤسسة الدراسات التاريخية ـ الكويت .

٤٠ ـ رفعت سيد أحمد : الدين والدولة والثورة ـ كتاب الهلال ـ ١٩٨٥ .

٤١ ـ د . مصطفى كامل السعيد : المجتمع والسياسة فى مصر ـ دور جماعة المصالح فى النظام السياسي (٥٢ ـ ٨١) دار المستقبل ـ القاهرة .
٤٢ ـ صلاح عيسى : مثقفون وعسكر ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة .
٤٣ ـ د . عبد العظيم رمضان ـ التنظيم السرى للإخوان المسلمين ـ روز اليوسف ـ ١٩٨٢ .
٤٤ ـ د . رفعت السعيد : الحركات الإسلامية من الارتداد إلى مزيد من الارتداد ـ مجلة دراسات عربية ـ نوفمبر ١٩٧٧ ـ

دليل الكتاب



رقم الايداع ١٩٨٧/٥١٧٣

سينا للنشر

□ أسرار حادث الفنية العسكرية □ البيان رقم واحد من رئيس الجمهورية الإسلامية □ حزب « التحرير الإسلامى » يولد فى فلسطين ويزدهر فى الأردن ويعتقل فى مصر □ دكتور صالح سرية : الطريق إلى الله يبدأ بالانقلاب العسكرى □ زينب الغزالى : السادات رجل مسلم ابن رجل مسلم .. الإخوان تأكدوا من ذلك □ ظهور السيدة العذراء .. البداية الرسمية لانهيار دولة العقل فى مصر □ هزيمة يونيو بين « العتبة جزاز » وأغانى نجم ـ إمام □ حوار المينى جوب بين عبد الناصر والشيخ عاشور □ مظاهرات العمال والطلبة من فبراير إلى نوفمبر ١٩٦٨ □ تحالف غير مقدس يتزعمه السادات ضد اليسار □ هؤلاء وضعوا الخناجر فى أيدى الجماعات الإسلامية □ عمر التلمسانى يشكر السادات فى سجل التشريفات □ دولة شكرى مصطفى من كهوف الصعيد إلى مساكن عزبة النخل □ من قتل الشيخ الذهبى ؟.. اتهام جديد فى جريمة قديمة □ الصدام بين المؤسسة الدينية والمؤسسة العسكرية □ لماذا أصبح هؤلاء نجوماً : الشيخ الشعراوى ، الشيخ المحلاوى ، الشيخ كشك ، الدكتور مصطفى محمود ؟... هذه الموضوعات قطرات فى بحر هذا الكتاب الذى ينقب ويسجل أسباب وظروف وأطوار العنف الدينى فى مصر منذ ٥ يونيو ١٩٦٧ إلى ٦ أكتوبر ١٩٨١ والذى لا يخشى مؤلفه وهو يقدمه سوى الله وضميره ومستقبل هذا البلد □

الناشر

